

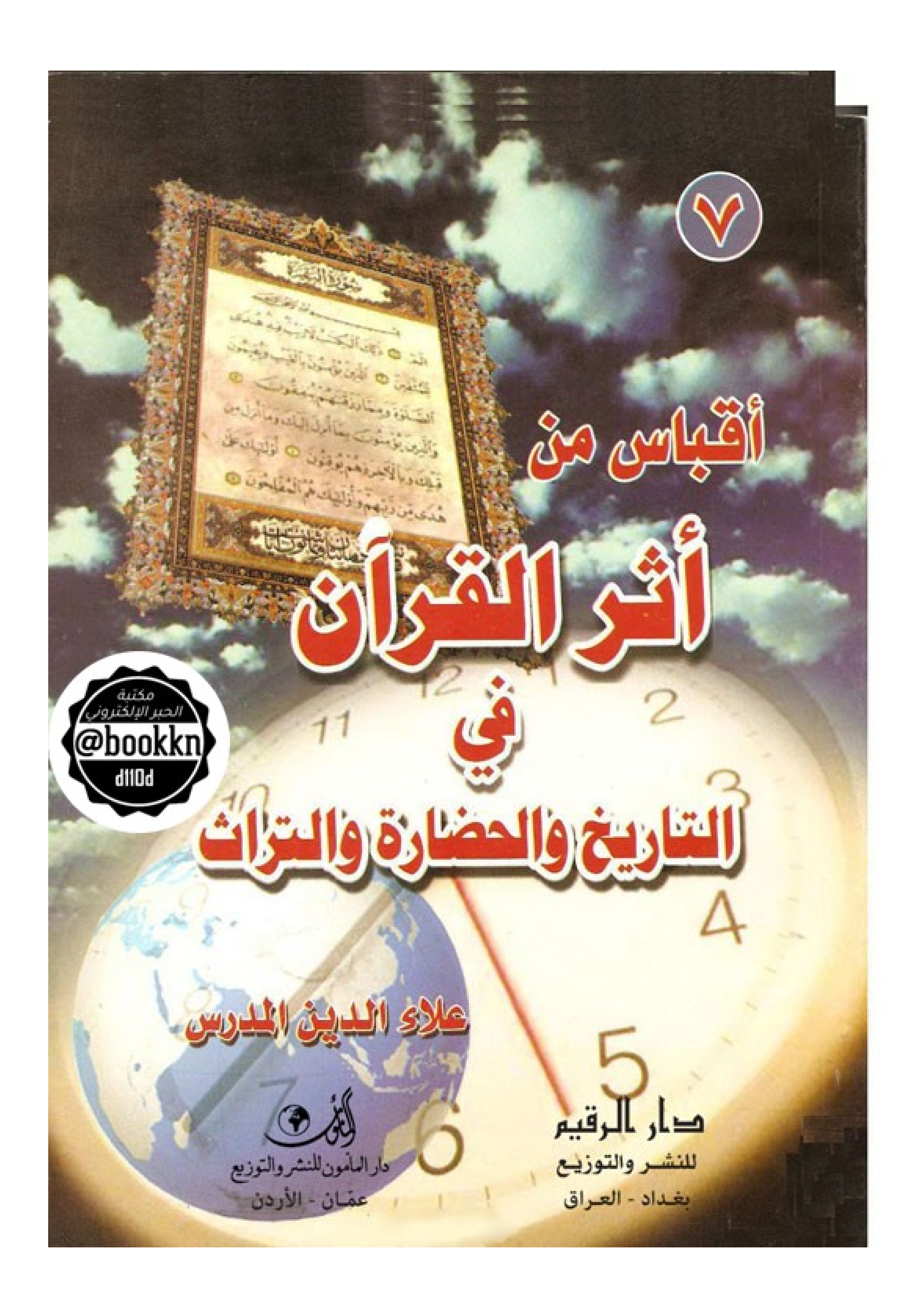
أقباس من

أثر القرآن في التاريخ والحضارة والتراث

علاء الدين المدرس

دار المأمون للنشر والتوزيع
عمان - الأردن

دار الرقيم
للنشر والتوزيع
بغداد - العراق



٧
أقباس من
أثر القرآن
في
التاريخ والحضارة والتراث
علاء الدين المدرس
دار المأمون للنشر والتوزيع
عمّان - الأردن
دار الرقيم
للنشر والتوزيع
بغداد - العراق
مكتبة
الحبر الإلكتروني
@bookkn

أقباس من

أثر القرآن

في

التاريخ والحضارة والتراث

- نسب النبي وآل إبراهيم والعرب القدماء.
- فضائل الآل والأصحاب في القرآن والسنة والتراث.
- واقع الخروج السياسي في صدر الإسلام.
- شخصيات قرآنية...في ضوء منهج الوحدة والتقريب.
- الصراع الصفوي العثماني وأثره في بلورة الطائفية.

علاء الدين المدرس

دار الرقيم للنشر والتوزيع

بغداد – العراق

الطبعة الأولى

1422هـ - 2001م

م/ جماعة الإعجاز العلمي في بغداد

يشير الأستاذ محمد أحمد الراشد إلى جماعة الإعجاز العلمي في بغداد، التي انطلقت للعمل الدعوي والتبشير بأهمية الإعجاز العلمي بفروعه المختلفة في أواخر القرن الماضي، في كتابه السابع في سلسلة إحياء فقه الدعوة الموسوم (منهجية التربية الدعوية)، والتي كان من أبرز أعضائها:
الأساتذة.. أنيس مالك الراوي ومحمد جميل الحبال ورعد عبد عون وعبد الحميد العبيدي وخالد العبيدي ومحسن عبد الحميد ووميض العمري وعمر عبد الستار وأحمد عدنان وصبحي الراوي.. فضلاً عن المؤلف..

والتي كان مركز نشاطها معهد الشرق وجمعية الشبان المسلمين وبعض الفضائيات العربية المعروفة والجامعات والمنتديات العلمية والأدبية والدواوين في بغداد وباقي مدن العراق الأخرى..

يقول الأستاذ الداعية والمفكر الإسلامي المعروف الشيخ الراشد:

زرت حدائق (وزلي) في ضواحي لندن مرتين، فرأيت عشرات ألوف أنواع النبات، من فواكه وورود وحشائش، وجملة ما فيها أكثر من مائتين وعشرين ألف شكل من النبات، تنطق بتسبيح الله تعالى خالق الأنواع ومصور الجمال. وما زال التلفزيون يعرض لنا في برنامج عالم البحار، عجائب الأسماك ومخلوقات الماء ولا تنفد العجائب. ومفردات الإعجاز القرآني وإعجاز بعض أقوال النبي كثيرة، وفيها ما يحير الألباب، وكلام زغلول النجار ومحسن صالح وعبد المجيد الزنداني، وأضرابهم فيه كلام رصين مؤيد بالبرهان، ويقود علاء الدين المدرس اليوم ببغداد جناحاً إعجازياً آخر.

فهذا كله من منهج تربيتنا الدعوية، لكن ليس الإنصات لهذه العلوم، وإنما المطالعة المستوعبة لكتب كثيرة، قدح زناد البداية فيها الدكتور أحمد زكي في كتاب (مع الله في السماء)، مع مشاهدة عشرات أفلام فيديو، خاصة تلك التي صدرت عن مراكز الإعجاز، وفيديو محاضرات الإعجاز، ووسائل إيضاح علم الذرة والفيزياء، مما أنتج الغرب، مع مقتبسات مما تعرضه قنوات ديسكفري والجغرافية ...

بسم الله الرحمن الرحيم

إن هذا القرآن يهدي للتي هي أقوم ويبشر المؤمنين الذين يعملون الصالحات

أن لهم أجراً كبيراً.

سورة الإسراء/ 9

شكر وتقدير

باحترام بالغ أتقدم بشكري وتقديري إلى أساتذتي الأفاضل الذين لم يثنهم انشغالهم وتقدمهم في العمر من النظر في بحثي المتواضع هذا وإبداء النصح والمساعدة والتدقيق والتصحيح، فأفادوا البحث وأغنوه، بفوائد جمة، وأكملوا النقص الذي فيه، مادة ولغة وأسلوباً وتحليلاً، وعلى رأسهم.. أستاذي الفاضل الحاج وليد الأعظمي والدكتور رشيد العبيدي والدكتور خليل الحديثي والشيخ كاظم أحمد المشايخي والدكتور زياد العاني وغيرهم من الأساتذة والشيوخ الكرام، راجياً من الله أن يمد في عطائهم خدمة لدينه الحنيف وإرشادا لمن يأتي بعدهم..

انه نعم المولى ونعم النصير.

المؤلف

المقدمة

الحمد لله رب العالمين.. والصلاة والسلام على سيد المرسلين محمد وعلى آله وصحبه ومن دعا بدعوته إلى يوم الدين.. وبعد.

فإن هذه السلسلة القرآنية، هي مجموعة من الحلقات وباقة من أقباس القرآن وأثره في التاريخ والحضارة والتراث، وقد بُثت معظمها من إذاعة القرآن الكريم في بغداد منذ بداية رمضان سنة 1420 هـ، وقد قمت باختيار قسم منها لوضعه بين يدي القارئ الكريم، لما كان لها من صدى طيب وأثر عميق في قلوب المستمعين.

وقد عنيت بالدرجة الأولى بمواضيع التراث عموماً وبعض الأقباس من حلقات الإعجاز العلمي في القرآن والسنة، مبتدأ بموضوع أنساب الأنبياء من آل إبراهيم وأنساب العرب في عصر الرسالة وما قبله، ثم موضوع الروابط والصلات العميقة التي كانت تؤطّر حياة جيل النبوة، من أهل البيت والصحابة وأبنائهم النجباء، لاسيما الخلفاء الراشدين ومن في منزلتهم من المهاجرين والأنصار، وأزواج النبي وبناته، والصحابيات الجليلات، التي تصور لنا دور المرأة في عصر الصحابة، ثم تأتي مواضيع الإعجاز العلمي وأسلمة العلوم والحياة بالدرجة الثانية بعد استعراض سلسلة مواضيع التراث المنير لحياة أهل البيت والصحابة الكرام، يلي ذلك نظرة الغرب إلى الإسلام وتراث الأنبياء عموماً، وتسليط الضوء على بعض الزوايا المظلمة التي مثّلتها تاريخياً نزعة التعصب الأوربي تجاه العالم العربي والإسلامي، لاسيما في القرون الاستعمارية الأخيرة، وتقويم الظروف التي سادت في العالم الإسلامي، ومنها الجهل والتخلف والخرافة والفرقة والاختلاف والصراع السياسي والطائفي والعرقي التي أفرزتها قرون الفترة المظلمة من حياة الأمة، واستغلال دول الاستعمار الغربي لتلك الظروف السيئة، مما مهّد لعصر الاستعمار والاحتلال المرير مع مطلع القرن العشرين.

ولابد من الإشارة هنا إلى أن المجموعة المختارة لا تمثل إلا جزءً يسيراً من السلسلة الكاملة، آملين أن تتيح الظروف والأحوال إخراجها إلى النور ونشرها في المستقبل، سائلين المولى أن يجعل ذلك خالصاً لوجهه الكريم، إنه نعم المولى ونعم النصير.

علاء الدين المدرس

12 ربيع الأول 1421 هـ

الفصل الأول

نسب آل إبراهيم والعرب القدماء

نسب آل إبراهيم

يُعدّ إبراهيم أبا الأنبياء، للدور التاريخي والديني الهام الذي قام به، وهو يبني صرح الحنيفية السمحاء وما حولها من أرض الجزيرة والعراق وبلاد الشام ومصر، ولكثرة الأنبياء من ذريته سواء من آل يعقوب أو بني إسماعيل، وهو أحد أولي العزم من الرسل، ويعد عصره عصر البشرية الثالث من الناحية الحضارية والدينية، بعد عصر آدم أبي البشر، وعصر نوح أو عصر الطوفان والبداية الثانية للبشرية كما تذكر الكتب المقدسة. ولقد كان من نسله معظم الأنبياء الساميين (أو العرب القدماء)، وقد جعل الله في ذريته الخلافة والنبوة.

ولد إبراهيم -كما تذكر التوراة- في جنوب العراق في مدينة أور جنوب بابل، وبدأ رسالته ودعوته للتوحيد مع شعب بابل في عصر أحد ملوكها القدماء الذي سبق عصر حمورابي بقليل كما يتوقع علماء الآثار وعلماء اللاهوت، ثم خاض نوعاً من الصراع مع الكهنة وعبدة الأصنام والذين يدعمهم الملك النمرود (كما يطلق عليه المؤرخون القدماء) وبعد صراعه المرير مع الوثنية والطاغوت الحاكم وبعد أن حاول النمرود أن ينفذ حكم الإعدام به، حيث ألقاه في النار، التي تحولت برداً وسلاماً على إبراهيم بمعجزة إلهية إكراماً لهذا النبي العظيم خليل الله، بعدها قرر الهجرة من العراق إلى بلاد الشام ومصر والحجاز، ماراً في طريق هجرته المباركة وسياحته في الأراضي المقدسة، التي تضم بلاد الشام والحجاز ومصر فضلاً عن العراق، بمدن عديدة شهيرة، فمن بابل ذهب إلى شمال العراق على الحدود مع تركيا الحالية إلى مدينة حرّان التي أصبحت بعد وصوله إليها من المدن القديمة الدينية المقدسة لدى البابليين والآشوريين، حتى أن نابونوئيد الملك البابلي حفيد نبوخذ نصر قد تأثر بمنهج حرّان الديني وغير دين البابليين ليقترب من التوحيد، وهاجر إلى تيماء في الحجاز بعد أن هجر بابل عشر سنوات، ويعدّ هذا الملك البابلي (اخناتون العراق) حيث حاول إصلاح الوضع الديني في بابل ونقله من الوثنية إلى التوحيد تأسياً بدين إبراهيم الخليل الذي ظهر في بابل قبله بأكثر من ألف وخمسمائة عام، ثم هاجر النبي إبراهيم من حرّان قاصداً دمشق ثم منها إلى الخليل في فلسطين ثم ذهب إلى مصر في عهد حكامها الهكسوس من العرب الساميين أيضاً (أي من أبناء عم إبراهيم) وقد أكرم الملك المصري النبي العراقي البابلي، واستضافه وأهداه المال والجواري، ثم قفل إبراهيم عائداً إلى الخليل بالقرب من القدس الشريف، ومن فلسطين ذهب بابنه إسماعيل (أبو العرب العدنانيين) وأمه هاجر المصرية إلى الحجاز، حيث تركهم بواد غير ذي زرع عند بيت الله الحرام في مكة المكرمة، بناءً على وحي من الله سبحانه، ليترك أهله وذريته في هذا المكان المقدس ثم عاد إلى فلسطين، ليعود بعدها مرات عديدة إلى مكة متردداً على أهله بين القدس ومكة، حتى إذا شبَّ الفتى إسماعيل

وتزوج من العرب من قبيلة جرهم التي سكنت إلى جوار إسماعيل بعد أن أنعم الله عليه وعلى أمه بماء زمزم الذي تفجر من تحت أرجله وهو طفل رضيع، فعندما جاء إبراهيم في إحدى زياراته العديدة إلى بيت إسماعيل، أمره الله سبحانه أن يرفع قواعد الكعبة المشرفة وأن يعيد بنائها بالشكل الذي استمر حتى مجيء خاتم الأنبياء محمد بعد إسماعيل بأكثر من ألفي عام.

في الحقيقة إن أقدم ما عثر عليه من المصادر الموثوقة عن تاريخ تحضُّر الحجاز هو ما تذكره المصادر العربية القديمة من أن قلب الجزيرة العربية كانت تسكنه بعض القبائل من العرب البائدة المعروفة ببني جرهم. كما نجد إن اسم العرب قد ذكر أيضاً في المصادر الآثارية والرقم والألواح الطينية فضلاً عن المصادر التاريخية، ففي عصر شلمنصر الثالث الذي حكم في القرن التاسع قبل الميلاد وفي عصر الدولة الآشورية في نينوى، قد ذكر عرب الشمال باسم عربو أو عربيا، وان الملك شلمنصر الثالث قد حاربهم وأخضعهم لنفوذه بحدود عام 853 ق.م.، ويبدو أن هذه النصوص كانت تشير إلى قبائل العرب المتاخمة لحدود الدولة الآشورية من الجنوب الواقعة في شمال الجزيرة وبادية الشام( ). ويذكر الدكتور محمد بهجت قبيسي إن أول ذكر للعرب في التاريخ القديم يرقى إلى الألفية الثالثة قبل الميلاد ولكن خصوم العرب يحاولون إغفال ذلك لأسباب عنصرية ودينية .

وتذكر المصادر إن إسماعيل بن إبراهيم وأمه هاجر قد هاجرا من فلسطين في القرن التاسع عشر ق.م. أو قبل ذلك إلى الحجاز، وتقول المصادر العربية الإسلامية القديمة إنهما قد قصدا الحجاز، وأن برية فاران المذكورة في التوراة هي جبال مكة باتفاق أهل الكتاب والمسلمين. وان إسماعيل قد شبّ بين قبيلة جرهم وأعجبهم فزوجوه إحدى بناتهم وهي رعلة بنت مضاض بن عمرو الجرهمي، وقد ولد لإسماعيل أثنا عشر ولداً، منهم نابت (نبيت) وقِيدار، وهما أبوا العرب المستعربة، يقول صاحب كتاب (تاريخ العرب قبل الإسلام) ما ملخصه: يؤخذ من القرائن المتقدمة إن عرب الشمال في الطور الثاني تتصل أخبارهم بأقدم تاريخ لجزيرة العرب لأن الإسماعيلية يبدأ تاريخهم في القرن التاسع عشر قبل الميلاد.. والغالب إن أولئك العرب كانوا قبائل بدوية ولم ينشئوا دولاً، وكانت دول العرب الأخرى في مشارق الشام والعراق واليمن وغيرها تستخدمهم في نقل التجارة على القوافل بين ممالك ذلك العصر، ويعبرون عنهم تارةً بالإسماعيلية وتارة أخرى بني قيدار أو غيرهما.. كما تذكر التوراة هذين الاسمين للدلالة على العرب، في مواقع كثيرة، فتذكر أن قافلة من الاسماعيليين مرّوا بالصحراء جنوبي فلسطين وعثروا على يوسف في البئر، كما تذكر اسم بني قيدار في البشارات التي تخص نبي الإسلام. وعليه فإن هجرة إسماعيل إلى الحجاز حقيقة تاريخية جاءت بها الكتب المقدسة ومصادر التاريخ والآثار وتراث الأنبياء، وان فاران التي ذكرتها التوراة ليست إلا اسماً من أسماء مكة أو جبال مكة. قال ياقوت الحموي في معجم البلدان: إن فاران كلمة معربة ذكرت في التوراة وهي من أسماء مكة وهي اسم لجبال مكة. وتقول التوراة في سفر التثنية: وجاء الرب من سيناء وأشرق لهم من ساعير واستعلن من جبل فاران . إنّ مجيئه من سيناء، تكليمه لموسى وتسليمه ألواح التوراة، وإشراقه من ساعير، وهي جبال فلسطين هو إنزاله الإنجيل على عيسى واستعلانه من جبال فاران إنزاله القرآن على محمد في مكة. وفي ذلك يقول تعالى في القرآن: والتين والزيتون. وطور سينين. وهذا البلد الأمين. . وفيها يذكر مواطن الرسالات الثلاث في القدس وسيناء وهذا البلد الأمين أي مكة. وفي التوراة إشارة إلى هجرة إسماعيل إلى أراضي مكة، إذ يقول: إن إسماعيل سكن وشبَّ في برية فاران.. ومن

الجدير بالذكر أن التوراة أهملت إسماعيل ولم تهتم بتراثه، ولم تذكر إسماعيل بعد خروجه من فلسطين وهجرته إلى الحجاز إلا قليلاً، بعكس إسحاق ويعقوب ، فلم تُشر إلى دوره وعلاقته بأبيه بعد الهجرة إلا إشارات خفيفة، أهمها حضوره دفن أبيه في مقبرة مكفيلية في فلسطين، وتلك من خصال التوراة التي كتبها اليهود، وهي عادتها في الاختصار فيما يخرج عن تاريخ اليهود وتراثهم.

إن العرب قبل الإسلام وبعده يعتبرون النبي إبراهيم أبا العرب القدماء، وكذلك ابنه إسماعيل الذي اشتهر في إطلاق تلك التسمية عليه، وإنهما قد بنيا الكعبة المشرفة، وهو ما يؤكده القرآن الكريم، قال تعالى: وما جعل عليكم في الدين من حرج ملة أبيكم إبراهيم هو سماكم المسلمين ، وتجمع المصادر الإسلامية على إن إبراهيم هو الذي بنا الكعبة، وما زال أثر قدميه محفوظاً قرب الكعبة في المكان الذي أمر الله سبحانه باتخاذه مصلى بعد الطواف حول الكعبة استذكاراً لهذا الدور العظيم الذي قام به إبراهيم يساعده فيه ابنه إسماعيل، قال تعالى: واتخذوا من مقام إبراهيم مصلى ، وقال تعالى:

إنَّ أول بيت وضع للناس للذي ببكة مباركاً وهدى للعالمين فيه آيات بينات مقام إبراهيم .

ومن الآيات القرآنية الأخرى التي تشير إلى دور إبراهيم وإسماعيل في بناء البيت العتيق، وإقامة شعائر الحج قوله تعالى: وإذ جعلنا البيت مثابة للناس وأمنا واتخذوا من مقام إبراهيم مصلى وعهدنا إلى إبراهيم وإسماعيل أن طهرا بيتي للطائفين والعاكفين والركع السجود. وإذ قال إبراهيم رب اجعل هذا بلدا آمنا وارزق أهله من الثمرات من آمن منهم بالله واليوم الآخر قال ومن كفر فأمتعه قليلا ثم أضطره إلى عذاب النار وبئس المصير. وإذ يرفع إبراهيم القواعد من البيت وإسماعيل ربنا تقبل منا إنك أنت السميع العليم. . كما تشير المصادر أن نبي العرب القدماء قد يزوّج من جرهم الذين سكنوا وادي مكة، وتولّوا سدانة الكعبة قبل أن تصل إلى قريش، ثم بعد جرهم بقرون طويلة تحولت إلى خُزاعة ثم استقرت في قريش منذ عصر قصي بن كلاب جد النبي الرابع. وقد كانت العرب المستعربة من ذرية إسماعيل (وهم العدنانيون) قد قاموا بأعمال جليلة من الناحية الدينية والتجارية والسياسية، فأقاموا إمارة عربية (أو سامية حسب تسمية المستشرقين) تقوم برعاية الكعبة وزوارها من الحجيج والمعتمرين، وتؤمّن سبل الحج إليها كما تؤمّن طرق التجارة إلى الشمال والجنوب بين مكة والشام واليمن، وتعمل على إقامة مُدن وقرى في ذلك الوادي المقدس وما حوله من أرض الحجاز، وقد أشار القرآن الكريم إلى دور قريش في مكة وإلى الرحلات التجارية إلى الشام واليمن فقال في سورة قريش: لإيلاف قريش .إيلافهم رحلة الشتاء والصيف . فليعبدوا رب هذا البيت . الذي أطعمهم من جوع وآمنهم من خوف . .

الأنبياء في العراق والحجاز والمشرق العربي

إبراهيم الخليل ، النبي العراقي، هو أبو الأنبياء، وأحد أولوا العزم من الرسل، وعصر إبراهيم هو عصر البشرية الثالث بعد عصر آدم وعصر نوح، ولقد كان من نسله كثير من الأنبياء، وقد جعل الله في ذريته الخلافة والنبوة، وأشهر بني إبراهيم ابنه البكر إسماعيل وأمه السيدة هاجر المصرية التي أهداها الملك المصري الهكسوسي لإبراهيم عند زيارته لمصر، وإسماعيل هو نبي

العرب القدماء وهو إسماعيل بن إبراهيم بن آزر.. من نسل سام بن نوح، كما تذكر التوراة، أرسله الله إلى العرب في الجزيرة وهم قبائل جرهم والعمالقة وأهل اليمن، وقد أنجب إسماعيل اثني عشر ولداً هم: نابت أو (نابيوت) بكر إسماعيل وقيدار وادبئيل ومبسام ومشماع ودمة ومسّا وحدار وتيماء ويطور ونافيش وقدمة( ). ويطلق على بني إسماعيل العرب المستعربة، وهم الذين جاءوا من أعقاب نابت وقيدار، أما باقي إخوتهم فقد انقرض نسلهم. ومن أعظم أحفاد إسماعيل النبي العربي القرشي محمد بن عبد الله خاتم الأنبياء والمرسلين، أُرسل إلى الناس كافة بالإسلام الخالد وكتابه العظيم القرآن، ومنهم خلفاؤه الراشدون والأمويون والعباسيون والعلويون.

ومن بني إبراهيم إسحاق بن إبراهيم الخليل، وهو الابن الثاني لإبراهيم ، ومن ذرية إسحاق، ابناه عيسو (عيص) ويعقوب (وهو إسرائيل)، ومن بني إسرائيل، الأسباط الاثنا عشر وهم ابناء يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم، وهم: رأوبين وشمعون ولاوي ويهوذا ويساكر وزبولون ودان ونفتالي وجاد وأشير ويوسف وبنيامين( ). وأشهرهم نبي الله يوسف بن يعقوب، أرسل إلى أهل مصر، وكان يحكمها عند بعثته الهكسوس وهم من العرب الساميين.. وقد قال النبي في مدح يوسف الصديق: إنما الكريم بن الكريم بن الكريم يوسف بن يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم، إشارة إلى أنه بلغ الغاية في المجد في الحسب، وهذا الحديث يشير إلى أن الأعقاب الأربعة خلة في النسب والحسب، وإن الآباء الأربعة نهاية في الحسب، كما يراها ابن خلدون، حيث يقسم الأحساب إلى أربعة أجيال هي: بانٍ للمجد ومباشر له (مجتهد) ومقلد وهادم. وذلك يعني أن الحد الأدنى للأجيال التي تسهم في بناء مجد الأمة أربعة والله اعلم( ). ومن بني إبراهيم النبي لوط بن هاران أو هارون (أخو آزر) وهو ابن عم إبراهيم، وينسب إليه لأنه كان من أتباعه إذ ولد في بابل ثم هاجر من بابل إلى حرّان ثم إلى دمشق، واستقر بعدها في أدوم شرقي الأردن، وبعث فيهم نبياً ينهاهم عن الفاحشة، ولكنهم أبوا أن يؤمنوا به وبدعوة التوحيد، فغضب الله عليهم ودمّر قريتهم، وجعل عاليها سافلها، وأنجى لوطاً والذين آمنوا معه من العذاب المهين. ومن بني إبراهيم ذو الكفل وأيوب.. وهما من نسل عيص بن إسحاق بن إبراهيم، أرسلا إلى أهل دمشق وعموم بلاد الشام (سورية).

ومنهم موسى وهارون ابنا عمران، اللذان أرسلا إلى فرعون مصر في عصر رمسيس وابنه منبتاح على الأرجح كما يرى علماء الآثار والتاريخ واللاهوت، وهو عصر الأسرة الثامنة عشرة من فراعنة مصر، ولكن طغيان فرعون وتجبره وغروره أبى أن يستجيب لدعوة التوحيد، فهاجر موسى بقومه إلى سيناء، لينقذهم من الاستعباد والطغيان والوثنية.

ومنهم الياس وصاحبه وابن عمه اليسع، وهما نبيان من نسل هارون بن عمران.. ومنهم النبي داود وابنه سليمان بن داود، النبي والملك المسلم وهو من نسل يهوذا بن يعقوب، ومن نسل سليمان لامه عيسى بن مريم بنت عمران، ومن نسل سليمان أيضاً يحيى بن زكريا، ويحيى النبي الشهيد الذي قتله اليهود هو ابن خال السيدة مريم بنت عمران.

أما النبي الآشوري سيدنا يونس، فقد اختلف أهل الكتاب وكتبة الإسرائيليات والتوراة، هل هو من نينوى عاصمة الآشوريين أصلاً؟ أم هو من نسل بنيامين بن يعقوب وهاجرت أسرته إلى نينوى بعد ذلك. وقد بعث يونس بن متي الملقب بذي النون إلى الآشوريين في عاصمتهم الشهيرة نينوى قرب الموصل في شمال العراق، وإلى بقية بلاد العراق والمشرق.

وهناك عدد من الأنبياء الذين ذكروا في القرآن الكريم، قبل عصر إبراهيم على رأسهم نوح النبي السومري الذي بعث في جنوبي العراق كما تذكر ذلك الكثير من المصادر( )، وهو أشهر الأنبياء قبل إبراهيم وبعد آدم أبي البشر، وتشير الكثير من الدلائل والحفريات إلى أن الطوفان حصل في العراق قرب منطقة بابل وفي حوض دجلة والفرات الجنوبي وأن سفينة نوح قد استوت على جبل الجودي قرب الموصل حسب رواية القرآن، وعلى جبل أرارات شمال شرق تركيا الحالية حسب رواية التوراة، والمكانين غير بعيدين عن بعضهما، ويدعما النظرية التي تقول بحدوث طوفان نوح في العراق. وعصر نوح أسبق من عصر الحضارة السومرية، ولا يستبعد أن تكون ذرية نوح وأتباعهم -بعد أن تكاثروا عبر القرون- كانوا هم النواة لشعب العراق القديم، وأقدمهم السومريون في جنوب العراق، وان هذا الموضوع جدير بالبحث والدراسة في مجال الآثار والتاريخ القديم للربط بين تاريخ الشعوب القديمة وتاريخ وتراث الأنبياء، ولاسيما في منطقة الشرق العربي التي تشمل العراق وبلاد الشام والجزيرة ومصر، فقد كانت المحيط الحيوي للعديد من النبوات والرسالات السماوية والحضارات القديمة والأصيلة في التاريخ البشري.

ومن الأنبياء الآخرين الذين سبقوا عصر إبراهيم، النبي إدريس الذي يُعتقد أنه بعث في مصر قبل عصر نوح، وقد شهد بدايات تكوين دولة مصر القديمة وعصر الأسر الأولى في مصر.

ومنهم بعد نوح، النبي العربي هود الذي أرسل إلى قبيلة عاد العربية (من القبائل البائدة) في منطقة الأحقاف بعُمان والخليج العربي، وهو من نسل سام بن نوح، ومن نسل قوم عاد من العرب البائدة، ومنهم النبي صالح (صاحب الناقة)، أرسل صالح إلى قومه ثمود في الحِجر (جنوبي بلاد الشام)، ومنهم النبي شعيب، ويذكر أنه من نسل قبيلة مدين في سيناء وشمالي الجزيرة، وأهل مدين هم أصحاب الأيكة المذكورين في القرآن، أي أصحاب الجنان والبساتين.. والجدير بالذكر أن عدد الأنبياء الذين بعثهم الله سبحانه إلى البشرية بالتوحيد غير معروف، فمنهم من قصَّ أخبارهم القرآن ومنهم من لم يقصص، ويجعل بعض العلماء عددهم يتجاوز المائة ألف نبي، إذ من سنن الله مع بني آدم قبل نبوة محمد وخلال العصور السالفة أن ليس هناك مدينة (قرية) أو بلد إلا خلا فيها نذير لكي لا يكون على الله من حجة بعد إرسال الأنبياء والرسل، لكن البشر من طبعهم ستر الحق وتركه وتحريفه، مما دعا إلى أن تكون الرسالة الخاتمة هي الباقية والمحفوظة من قبل رب العالمين، قال تعالى: إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون .

أما ذكر بعض الأنبياء ودعوتهم وقصصهم في القرآن الكريم، فقد خصص ثلث مساحة القرآن لسرد سيرتهم وعقيدتهم وجغرافيتهم وتراثهم الخالد..

قال تعالى: إنا أوحينا إليك كما أوحينا إلى نوح والنبيين من بعده وأوحينا إلى إبراهيم وإسماعيل وإسحاق ويعقوب والأسباط وعيسى وأيوب ويونس وهارون وسليمان وآتينا داوود زبورا. ورسلا قد قصصناهم عليك من قبل ورسلا لم نقصصهم عليك وكلم الله موسى تكليما. رسلا مبشرين ومنذرين لئلا يكون للناس على الله حجة بعد الرسل وكان الله عزيزا حكيما. .

وقال تعالى: وتلك حجتنا آتيناها إبراهيم على قومه نرفع درجات من نشاء إن ربك حكيم عليم. ووهبنا له إسحاق ويعقوب كلا هدينا ونوحا هدينا من قبل ومن ذريته داوود وسليمان وأيوب ويوسف وموسى وهارون وكذلك نجزي المحسنين. وزكريا ويحيى وعيسى وإلياس كل من الصالحين . وإسماعيل واليسع ويونس ولوطا وكلا فضلنا على العالمين. .

وقال تعالى: ألم يأتكم نبأ الذين من قبلكم قوم نوح وعاد وثمود والذين من بعدهم لا يعلمهم إلا الله جاءتهم رسلهم بالبينات فردوا أيديهم في أفواههم وقالوا إنا كفرنا بما أرسلتم به وإنا لفي شك مما تدعوننا إليه مريب .

وقال تعالى: ما كان إبراهيم يهوديا ولا نصرانيا ولكن كان حنيفا مسلما وما كان من المشركين. إن أولى الناس بإبراهيم للذين اتبعوه وهذا النبي والذين آمنوا والله ولي المؤمنين. .

وقال تعالى: أم تقولون إن إبراهيم وإسماعيل وإسحاق ويعقوب والأسباط كانوا هودا أو نصارى قل أأنتم أعلم أم الله ومن أظلم ممن كتم شهادة عنده من الله وما الله بغافل عما تعملون .

وقال تعالى: وإذ قال عيسى ابن مريم يا بني إسرائيل إني رسول الله إليكم مصدقا لما بين يدي من التوراة ومبشرا برسول يأتي من بعدي اسمه أحمد فلما جاءهم بالبينات قالوا هذا سحر مبين .

نسب النبي والقبائل المرتبطة به

قال تعالى: محمد رسول الله والذين معه أشداء على الكفار رحماء بينهم... .

وقال : (كل نسب وسبب منقطع يوم القيامة إلا نسبي وسببي)( ).

ونسب النبي هو رسول الله محمد بن عبد الله بن عبد المطلب بن هاشم بن عبد مناف بن قصي بن كلاب بن مرّة بن كعب بن لؤي بن غالب بن فهر بن مالك بن النضر (قريش) ابن كنانة بن خزيمة بن مدركة بن إلياس بن مضر بن نزار بن معد بن عدنان.

ويقول علماء الأنساب في نسب المصطفى ونسب قريش: إنه يمكن متابعة النسب الشريف وأنساب قريش المرتبطة به إلى جد المصطفى الأعلى عدنان، بشكل دقيق وصحيح، أما ما فوق عدنان ففيه نظر بين النسّابة، إذ هناك تقديم وتأخير في الأسماء، وقد رفع علماء النسب والنسّابة العرب نسب قريش إلى جد قريش الأعلى النبي إسماعيل بن إبراهيم، ومنهم من أوصله إلى نوح أو أعلى من ذلك، ويمكن الاطمئنان إلى النسب الشريف حتى إسماعيل، أما فوق ذلك فيصعب الاطمئنان إليه، إذ إن سلسلة الأسماء بين إبراهيم وآدم هي من الإسرائيليات، وما ترويه كتبهم وعلى رأسها التوراة. ويمكن أن نذكر بقية النسب الشريف حتى إبراهيم على سبيل العناية بنسبه ، فإن عدنان ابن أدّ بن أدَد ابن العميسع بن سلامان بن بنت بن حمل بن قيدار بن إسماعيل بن إبراهيم بن تارح (آزر)، ويسمى النبي إبراهيم أبو الأنبياء، وهو من نسل سام بن نوح كما تذكر التوراة.

نلمس من هذا النسب العلي الشريف، أن النبي محمد هو من أوسط العرب نسباً، من ولد إسماعيل بن إبراهيم عليهما السلام، وهو النبي العدناني القرشي الهاشمي، اصطفاه الله سبحانه لتبليغ رسالة الإسلام الخاتمة إلى العالمين.

أما الأحاديث التي تؤكد رفعة نسب المصطفى وفضل العرب ولاسيما كبار الصحابة من المهاجرين والأنصار، فهي كثيرة، نختار منها:

قال رسول الله : إن الله اصطفى كنانة من ولد إسماعيل، واصطفى قريشاً من كنانة، واصطفى من قريش بني هاشم، واصطفاني من بني هاشم( ).

وقال : حب العرب إيمان وبغضهم نفاق( ).

وقال : الأئمة من قريش( ).

يقول ابن تيمية تعقيباً على هذه الأحاديث النبوية: هكذا جاءت الشريعة، فإن الله خص العرب ولسانهم بأحكام تميزوا بها، ثم خص قريشاً على سائر العرب بأن جعل فيهم من خلافة النبوة.. وقد أفاد الخبر أن العرب أفضل من جنس العجم، وأن قريشاً أفضل العرب، وأن بني هاشم أفضل قريش، وأن المصطفى أفضل بني هاشم، فهو أفضل الناس نفساً ونسباً( ).

وفي فضل قريش وأهل البيت والصحابة، نذكر بعض الأحاديث النبوية:

قال رسول الله : العلم في قريش والأمانة في الأنصار( ).

وقال : إن قريشاً أهل أمانة لا يبغيهم العثرات أحد إلا أكبه الله على منخريه( ).

وفي فضل كبار الصحابة وأهل البيت نذكر بعض الأحاديث النبوية:

قال رسول الله : أنا أمنةٌ لأصحابي، فإذا ذهبت أتى أصحابي ما يوعدون، وأصحابي أمنة أمتي، فإذا ذهب أصحابي أتى أمتي ما يوعدون( ).

وقال : لا تسبوا أصحابي فلو أنفق أحدكم مثل أحد ذهباً ما بلغ مُدَّ أحدهم ولا نصيفه( ).

وقال : سيد الشهداء حمزة، ورجل قام إلى إمام جائر ونهاه فقتله( ).

وقال : الحسن والحسين سيدّا شباب أهل الجنة( ).

وقال : اللهم ارحم الأنصار وأبناء الأنصار( ).

وقال : أذكركم الله في أهل بيتي( ).

أما القبائل العدنانية المرتبطة بالنسب النبوي الشريف، ولاسيما قريش وبطونها، فيمكن متابعتها من خلال متباعة نسب العدنانيين من بني إسماعيل، إن مهد العدنانيين مكة وما جاروها من أرض الحجاز وتهامة، وعدنان من بني إسماعيل بن إبراهيم –كما ذكرنا- وهو الذي جاء مكة وساكن جرهم وصاهرهم، ولم تزل أبناء إسماعيل بمكة تتناسل حتى كان عدنان وولده معد، ومنه حفظت العرب العدنانية أنسابها، ويقال لبطون شعب عدنان المعدية والنزارية، وقد تفرقت بطونه من نزار بن معد، فمنه أياد وربيعة ومضر.. وكان من ربيعة قبائل كثيرة لها شهرة وذكر عظيم.. ومنهم كان أكثر الخوارج في الإسلام، وتشعبت قبائل مضر إلى شعبتين هي: قيس عيلان بن مضر وإلياس بن مضر، ومن بطون قيس: سُليم وهوازن ومنهم ثقيف وغطفان، ومن بطون إلياس بن مضر: تميم وهذيل وأسد وكنانة، ومن كنانة قريش، وهم أولاد فهر بن مالك بن النضر بن كنانة، وانقسمت قريش إلى قبائل شتى أشهرها البطون العشرة.

أما مساكن عدنان، فلم تقتصر على مكة وما حولها، بل هاجرت بعض بطونها في أنحاء الجزيرة، فهاجرت بعض بطون ربيعة وبكر بن وائل إلى البحرين، مع بطون من تميم، وخرجت بنو حنيفة إلى اليمامة فنزلوا وادي (حجر). وأقامت تغلب بالجزيرة الفراتية، وأقامت بنو سليم بالقرب من المدينة، وسكنت ثقيف بالطائف وهوازن بمكة، وسكنت بنو أسد وذبيان شرقي واحة تيماء، وبقي بتهامة بطون كنانة، وأقام بمكة وضواحيها بطون قريش متفرقين حتى نبغ فيهم جد النبي الرابع

قصي بن كلاب فجمعهم، وسمي قصي مجمعاً لأنه جمعهم من كل أوب وقد كانوا متفرقين في بني كنانة، وفي ذلك يقول الشاعر:

قصي أبوكم من يسمى مجمعا به جمع الله القبائل من فهر

وهو الذي بنى المشعر الحرام بالمزدلفة، وكان يقوم عليه أيام الحج، وإنما دونه قريش وما فوقه عرب مثل كنانة وأسد وغيرها من قبائل مضر، وأما بطون قريش فإنها تنتهي إلى فهر لا تتجاوزه.

وفي تسمية من انتهى إليه الشرف من قريش في الجاهلية فوصله الإسلام، يقول النسّابة هشام بن السائب الكلبي: وهم العباس بن عبد المطلب بن هاشم، كان يسقي الحجيج في الجاهلية واستمر على ذلك في الإسلام، وأبو سفيان بن حرب من أمية، كانت عنده العقاب (راية قريش)، والحارث بن عامر من نوفل، كانت إليه الرفادة، وهي ما كانت تخرجه قريش من أموالها وترفد به منقطع الحاجّ، وعثمان بن طلحة من عبد الدار، كانت إليه اللواء والسدانة والحجابة والندوة، ويزيد بن زمعة من أسد كانت إليه المشورة، ترجع إليه قريش في أي أمر تجتمع إليه، وقد استشهد في الطائف مع رسول الله ، وأبو بكر الصديق من تيم وكانت إليه (الأشناق) وهي الدّيات والمغرم، وخالد بن الوليد من مخزوم، وكانت إليه القبّة والأعنة (وهي مخازن تجهيز الأسلحة والمعدات في السلم والحرب)، وعمر بن الخطاب من عديّ كانت إليه السفارة في الجاهلية في الحرب، أو التفاوض والمفاخرات السلمية، فهو ممثل قريش لدى خصمها، وصفوان بن أمية من جمح وكانت إليه اليسار وهي الأزلام، والحرث بن قيس من سهم كانت إليه الحكومة والأموال المحجرة.

إلى هؤلاء العشرة من البطون العشرة انتهت خدمات البيت الحرام من زمن قصي بن كلاب حتى عصر الرسالة، وقد تركها الإسلام كما هي يتناقلها الأبناء عن الآباء، واعتبرها أمانة تجب المحافظة عليها والوفاء بها إلى أصحابها، فوصلها الإسلام ولم يقطعها، وكان كل شرف في الجاهلية أدركه الإسلام وصله.

أما صلة كبار الصحابة النسبية بالنسب النبوي الشريف فهي كما يلي:

1. أبو بكر الصديق وطلحة بن عبيد الله من بني تيم بن مرة بن كعب، وهو الجد السادس للنبي .

2. عمر بن الخطاب وسعيد بن زيد من بني عدي بن كعب بن لؤي، وهو الجد السابع للنبي .

3. عثمان بن عفان من بني عبد شمس بن عبد مناف بن قصي، وهو الجد الثالث للنبي وأمه أروى بنت كريز أمها أم حكيم بنت عبد المطلب عمة النبي .

4. علي بن أبي طالب بن عبد المطلب بن هاشم، وهو جد النبي الأول.

5. عبد الله بن العباس بن عبد المطلب بن هاشم، وهو جد النبي الأول.

6. خديجة بنت خويلد وابن أختها الزبير بن العوام من بني أسد بن عبد العزى بن قصي بن كلاب، وهو جد النبي الرابع، وأم الزبير صفية بنت عبد المطلب عمة النبي .

7. سعد بن أبي وقاص وبنت عمه آمنة بنت وهب والدة النبي من بني زهرة بن كلاب بن مرة، جد النبي الخامس، ويعدّ سعد خال النبي .

8. الأرقم بن أبي الأرقم وخالد بن الوليد من بني مخزوم بن يقظة بن مرة بن كعب، جد النبي السادس. وجدة النبي لأبيه فاطمة من بني مخزوم.

9. عثمان بن مظعون من بني جمح بن عمرو بن هصيص بن كعب بن لؤي وهو جد النبي السابع.

10. هشام بن العاص وأخوه عمرو من بني سهم بن عمرو بن هصيص بن كعب بن لؤي وهو جد النبي السابع.

11. أبو عبيدة عامر بن الجراح أمين الأمة، من بني الحارث بن فهر بن مالك وهو جد النبي العاشر.

وهكذا تترابط الوشيجة وتتداخل الأنساب وتتحد، كما اتحدت أواصرهم بالإيمان والجهاد وحمل الرسالة، وكان هؤلاء الرهط الأخيار هم أنفسهم أهل البيت وهم أنفسهم الصحابة المقربين الأخيار، وفيهم نزل أمر الله لنبيه أن يأمرهم ليتبعوه ويتركوا إرث الماضي باعتبارهم عشيرته الأقربين فدعاهم وسمّاهم: يا آل غالب من قريش.. قال تعالى: وأنذر عشيرتك الأقربين .

العرب القدماء وأنسابهم

يصطلح علماء التاريخ والأنساب على تقسيم العرب القدماء إلى العرب البائدة والعرب العاربة والعرب المستعربة، ويُقصد بالعرب البائدة تلك القبائل التي ظهرت واختفت من الوجود إلا بقايا ضئيلة منها هنا وهناك في أنحاء جزيرة العرب، وأبرز تلك القبائل عاد وثمود ومدين التي ذكرت أخبارها في القرآن الكريم، وقبائل طسم وجديس والعمالقة وجرهم الأولى وغيرها، وقد اندثرت هذه القبائل وطُمست آثارها وحضارتها، فخلفتها قبائل العرب العاربة، وهي قبائل قحطان في اليمن، وأبرزها قبائل سبأ وحمير وطيء وكندة والأزد ومن نسلهم جاء الأنصار من الأوس والخزرج، ثم بعد العرب العاربة من القحطانيين ظهرت العرب المستعربة، وهي قبائل عدنان في الحجاز التي انحدرت من بني إسماعيل بن إبراهيم، ومن عدنان انحدرت قبائل ربيعة ومضر، ومن مضر قريش وتميم وقيس عيلان وغيرهم. وهكذا نشأت من القبائل القحطانية والعدنانية القبائل والبطون التي اشتهرت في جزيرة العرب قبل الإسلام، وانتشرت شرقاً وغرباً بعد الفتح الإسلامي.

ومن الجدير بالذكر أن بني إسرائيل قبيلة عربية قديمة من نسل النبي إبراهيم وأتباع حفيده يعقوب كما تذكر التوراة، وربما يعود وجودهم وعهدهم إلى ما قبل عصر إبراهيم كما يلمح القرآن، مميزاً بين بني إسرائيل وآل يعقوب بخلاف التوراة التي جعلت يعقوب هو نفسه إسرائيل والله أعلم.

وهي إحدى القبائل العبرية وأوسطها نسباً –في حينها- وقد شرفها الله سبحانه برسالة موسى ثم عيسى ، لكنها نكثت العهد ولم تحفظه وارتدت على أعقابها، فلم تكن أهلاً لذلك التشريف بعد انحرافها وقتلها الأنبياء وتجاوزها على حدود الله وتحريفها كلام الله وكتبه المقدسة، فأصابها الله بغضب منه، وسلّط عليها من يذيقها العذاب والهوان على مدار العصور التي تلت بعثة عيسى .

قال تعالى: لقد أخذنا ميثاق بني إسرائيل وأرسلنا إليهم رسلا كلما جاءهم رسول بما لا تهوى أنفسهم فريقا كذبوا وفريقا يقتلون

وقال تعالى: لعن الذين كفروا من بني إسرائيل على لسان داوود وعيسى ابن مريم ذلك بما عصوا وكانوا يعتدون . وقال تعالى: وقضينا إلى بني إسرائيل في الكتاب لتفسدن في الأرض مرتين ولتعلن علوا كبيرا .

وهذه النظرة تفرض على المسلمين اليوم أن يميزوا بين العبريين اليوم (وهم يهود المشرق أو معظمهم) وبين يهود أوربا لاسيما يهود الخرز والدونمة( ) وغيرهم ممن اعتنق الديانة اليهودية عبر القرون من الأجناس الأوربية، الذين جاؤوا إلى فلسطين محتلين غاصبين ليس لهم أدنى حق فيما احتلّوه وغصبوه سوى روح الاستعمار والاحتلال الغربية الصهيونية التي سيطرت على العالم الأوربي منذ القرن الثامن عشر بعد النهضة الصناعية، فقد تآمر هؤلاء اليهود الأوربيون بالتنسيق مع أبناء دينهم من يهود فلسطين والمشرق تآمروا مع الغرب المستعمر على سكان فلسطين العرب الآمنين من المسلمين والنصارى، فتركوا ديارهم في أوربا وأمريكا، واحتلوا تلك الديار المقدسة في فلسطين ظلماً وعدواناً، ومنطق العدل والتاريخ يحتّم رجوعهم إلى أوطانهم عاجلاً أم آجلاً. ويفسر بعض العلماء والمفسرين والمؤرخين أن بني إسرائيل هم أتباع يعقوب وليسوا ذريته فقط أي اليهود عموماً لأن نسب بعضهم قد اختلط مع الزمن ولم يعد له وجود، وهو تفسير شائع لكلمة (بني) في لغة العرب، ونفس الأمر ينطبع على كلمة (آل)، كآل إبراهيم وآل عمران فهم الأتباع، كما في قوله تعالى عن قوم فرعون: ويوم تقوم الساعة أدخلوا آل فرعون أشد العذاب .

أما لفظة السامية الذي أطقت على الأقوام العربية القديمة فهي تسمية استشراقية أيضاً، فقد اصطلح المستشرق (شلوتسر) في بحث نشره سنة 1781م، على تسمية الأقوام الذين قاموا بتلك الهجرات والموجات المتعاقبة إلى العراق والشام بالساميين، اعتماداً على معلومات توارتية أسطورية ذات طابع ميثولوجي، وذلك لأن أصول لغات هذه الأقوام (العربية والآرامية (السريانية) والكنعانية والفينيقية والعبرانية والبابلية والآشورية والحبشية) ذات صلات قوية فيما بينها مما يدل على أنها ترجع إلى أصل لغوي واحد، وقد نسب بعض الآثاريين –اصطلاحاً- أولئك الأقوام إلى سام بن نوح اعتماداً على أسطورة التوراة تلك فقالوا: إن هذه الأمم كلها سامية أي من نسل سام بن نوح، وهذا الاستدلال الاستشراقي التوراتي خطأ علمي وتفسير واهي لا يعتمد على واقعة تاريخية أو سند علمي، وإنما بني على الظن وزعم التوراة التي كتبها اليهود حسب ما تهوى أنفسهم، كما إن سام بن نوح فرد ولا يمكن أن يحدد الفرد مدلول لغوي أو أصل لغوي لمجموعة بشرية كبيرة.

لقد استغل اليهود اصطلاح السامية هذا أقصى استغلال، بعد أن استبعدوا العرب والكنعانيين (أي عرب فلسطين) منه، وتذكر التوراة أسطورة استبعاد كنعان بن حام بن نوح عن بركة أبيه، وأنه جعله عبداً لسام هو ونسله العرب ، وهذه الخدعة اليهودية تسمى في أدبيات الفكر الغربي بالمسألة السامية.

وقد رفع اليهود شعار الأصل السامي وتهمة اضطهاد السامية لإحراج أعدائهم الأوربيين الذين يكرهون اليهود ويحتقرونهم، فكان سلاح العداء للسامية يشهر بوجه كل من يعادي اليهود في العالم، بحجة إن اليهود هم شعب الله المختار، وقد أدت هذه الخدعة دوراً مهماً في تعاطف الغرب مع الصهاينة في مطلع القرن العشرين ثم اغتصاب فلسطين، وقد نجح اليهود في تسخير العداء

التاريخي الأوربي لهم( )، والاضطهاد الذي مورس ضدهم منذ قرون حتى أيام هتلر لصالح القضية الصهيونية، وأشاعوا أنّ ذلك الاضطهاد للجنس السامي الذي هو أرقى الأجناس والذي ظهر فيه الأنبياء (ومنهم موسى وعيسى) والمصلحون... وغير ذلك من المزاعم التي خلطوا فيها بين الزيف والحقيقة، ليبرروا لشرعية حركتهم الصهيونية العنصرية ويكسبوا عطف العالم بضرورة إنشاء وطن قومي وديني لهم في فلسطين، على حد تعبير الوزير الإنكليزي بلفور ووعده المشؤوم، ومن ثم إعلان قيام إسرائيل.

وقد أظهرت الأبحاث الآثارية واللغوية للعلماء تقارباً كبيراً بين تلك اللغات واللغة العربية في العصور القديمة، مما يؤكد إن اللغة العربية هي اللغة الأم لهذه اللغات واللهجات، وان العرب القدماء والساميين هما مصطلحان مترادفان لمعنى واحد، وأن الأقوام والأمم التي خرجت من الجزيرة وأسست الحضارات القديمة في الشرق الأدنى في بابل وآشور وماري واوغاريت وسبأ وغيرها ما هم إلا جزء من عرب الجزيرة،( ) الذين عاشوا فيها منذ فجر التاريخ، ولا يصح إطلاق كلمة سامي أو حامي على شعب أو لغة إلا على سبيل المجاز مجاراة لأساطير التوراة ومسمياتها.

أنساب العرب في عصر الرسالة

اشتهر العرب في جاهليتهم باهتمامهم بالأنساب والمحافظة عليها، بسبب الوضع القبلي الذي كان سائداً في الجزيرة منذ القدم. ويتحلى العربي بالشجاعة والكرم والشهامة والتعصب القبلي والولاء للعشيرة وتقاليدها وقيمها، وكان عرب الجاهلية لا تجتمع قبائلهم تحت لواء ملك أو أمير إلا ما ندر، وكان اهتمامهم بالشعر واللغة وآدابها يوازي اهتمامهم بالفروسية حتى وصلت اللغة العربية إلى قمة الرقي الأدبي والبلاغة والجمال قبيل عصر الرسالة، فبرز في صحراء الجزيرة العربية من الشعراء من لا يجود الزمان بمثله من الفحول والنوابغ، وكان الشعر عند العرب يؤدي دور وسائل الإعلام في العصر الحاضر، وكان للشعر والأدب منتدياته ومؤتمراته، أشهرها اجتماع الشعراء ومناظراتهم في سوق عكاظ في موسم الحج، ولعل المعلقات من أشهر القصائد التي اعتز بها العرب في الجاهلية، وعند بزوغ الإسلام وهيمنته على الجزيرة هذّب الكثير من تلك الخصال والأعراف والتقاليد التي كانت شائعة لدى العرب، مصداقاً للهدي النبوي الشريف: إنما بعثت لأتمم مكارم الأخلاق( ). وفعلاً فقد تمم الإسلام أخلاق العرب وسجاياهم الكريمة وهذّب المعوج منها، وقضى على شرورهم وخِصالهم الذميمة كالتعصب والغزو بين القبائل بدافع السلب والنهب، قال تعالى: إن الله يأمر بالعدل والإحسان وإيتاء ذي القربى وينهى عن الفحشاء والمنكر والبغي يعظكم لعلكم تذكرون .

أما بالنسبة للأنساب فقد أعطاها الإسلام اهتماماً خاصاً، ووضع جملة شرائع وقوانين لحفظ النسل والنسب، فنظم الزواج والعلاقات الاجتماعية والإرث وحرّم الزنا والمخادنة والعلاقات غير الشرعية بين الجنسين، ومنع الاختلاط ونكاح التمتع الذي كان موجوداً عند عرب الجاهلية، وقيد التبني، وأصرّ على إلحاق الرجل بأبيه الحقيقي، وشجع على تحرير الرقيق وأكد مساواتهم وإخوتهم مع غيرهم من المسلمين، وقيّد تعدد الزوجات بأربع، كل ذلك حفاظاً على نظافة المجتمع

وأخلاقه، لبناء أواصر سليمة وأنساب معلومة وصلات محددة، وقد شجع ذلك المسلمين على الاهتمام بالأسرة والأنساب واحترام رابطة الدم وصلة الأرحام، لبناء مجتمع متماسك وعفيف.

وقد أدّت تلك الرعاية وذلك الاهتمام إلى بقاء المجتمع الإسلامي محافظاً على ملامحه وأواصره الأصيلة إلى يومنا هذا، رغم تراجع هيمنة الدين وتشريعاته على الناس في العصر الحاضر، يعقب الأستاذ الندوي على ذلك فيقول ما ملخصه: يشهد علماء الاجتماع والتاريخ في الشرق والغرب أن العرب والمسلمين هم أنقى الأجناس والشعوب نسباً، وأكثرها اهتماماً بنسبها والمحافظة عليه، بفضل تعاليم الإسلام التي تؤكد على الأصالة والأخلاق الكريمة والعفة والعلاقات السليمة، وتمنع الاختلاط والشذوذ والعبث والانحراف، بل تفرض عقوبات صارمة على التحلل والإباحية، مما كوّن في المجتمع الإسلامي أعرافاً موروثة تمنع التحلل واختلاط الأنساب، وتحافظ على أخلاقياته وموروثاته، رغم ابتعاد المسلمين عن تعاليم دينهم اثر الغزو الفكري والحضاري الغربي لبلاد المسلمين.

ويعدّ علم الأنساب عند العرب والمسلمين مكملاً لعلوم الأدب والتاريخ والسير، كما يبدو ذلك واضحاً في مصادر التراث الإسلامي الأصيلة، في مؤلفات ابن إسحاق وابن سعد واليعقوبي والطبري وغيرهم، ومن الغريب أن هذا الاهتمام بعلم الأنساب ولاسيما انساب قبائل العرب في عصر الرسالة وصدر الإسلام وأنساب أهل البيت والصحابة مما تفتقر إليه الكتب المعاصرة المهتمة بالتاريخ والتراث الإسلامي، فلم يولي معظم المؤرخين المعاصرين الاهتمام الكافي لهذا الجانب. وخصوصاً عند دراسة الأحداث التاريخية وتحليلها في صدر الإسلام وتراث أهل البيت والصحابة وأبنائهم وأحفادهم في عصر التابعين.

ونتيجة لهذا الاهتمام بعلم الأنساب ولاسيما أنساب القبائل العربية في الجاهلية والإسلام، فقد اشتهر في عصر الرسالة وما بعده العديد من النسابين (علماء الأنساب) سواء من جيل الصحابة أو التابعين وتابعيهم، وأبرز من اشتهر من هؤلاء هم:

1. أبو بكر الصديق : وهو صاحب النبي ووزيره في حياته وخليفته الراشد الأول بعد وفاته، وقد كان النبي يستعين به ويستشيره في معرفة أنساب القبائل سواء في بداية الدعوة في العهد المكي أو بعد الهجرة واشتداد الصراع وتحوله إلى الصدام والقتال الدموي، بعد أن أصبحت معرفة الأنساب وتعداد القبائل ذات أهمية في التعرف على قوة العدو وأخلاقه وفي كشف مثالبه وعيوبه، فقد روى ابن وهب في جامعه، وعبد الرزاق في مصنفه من طريق محمد بن سيرين، قال: هجا رهط من المشركين النبي وأصحابه، فقال المهاجرون: يا رسول الله ألا تأمر عليّاً فيهجو هؤلاء القوم؟ فقال : إن القوم الذين نصروا بأيديهم أحق أن ينصروا بألسنتهم. فقال الأنصار: أرادنا والله، فأرسلوا إلى حسان، فأقبل فقال: يا رسول الله والذي بعثك بالحق ما أحبُّ أن لي بمقولي ما بين صنعاء وبُصرى، فقال : أنت لها، فقال: لا علم لي بقريش، فقال لأبي بكر: أخبره عنهم ونقبّ له عن مثالبهم( ).

2. عقيل بن أبي طالب : وهو من أهل بيت النبوة، وقد كلفه أمير المؤمنين عمر بن الخطاب بكتابة دواوين الأنساب، يساعده جبير بن مطعم ومخرمة بن نوفل، حيث اعتمدت هذه الدواوين في توزيع الفيء والغنائم على أهل بيت النبي ثم آل الصديق ثم آل الخطاب ثم بقية الصحابة من المهاجرين والأنصار حسب أسبقيتهم في الهجرة والنصرة والجهاد.

3. دغفل البكري (ت: 60هـ).

4. محمد بن شهاب الزهري (51-124هـ) الفقيه والمحدث المعروف.

5. محمد بن السائب الكلبي (ت: 146هـ) وقد أدرك العصر العباسي زمن الخليفة المنصور، وهو من كبار النسابة في عصر التابعين وتابعيهم.

وهناك العديد من النسابين الآخرين، لا يتسع المجال لذكرهم.

ومن مآثر الأنساب ومفاخرات النسابة ما نذكر بعضه أدناه للوقوف على أهمية الأنساب في الحياة الأدبية والاجتماعية للعرب والمسلمين:

1- مفاخرة الأوس والخزرج: يروى عن انس، قال: تفاخرت الأوس والخزرج، فقالت الأوس: منّا غسيل الملائكة حنظلة الراهب ومنّا عاصم بن ثابت الذي حملت لحمه الدَّبر (النحل) ومنّا ذو الشهادتين خزيمة بن ثابت، ومنّا الذي اهتز لموته عرش الرحمن سعد بن معاذ.قال الخزرج: منّا أربعة قرؤوا القرآن على عهد رسول الله لم يقرأه غيرهم، زيد بن ثابت وأبو زيد ومعاذ بن جبل وأبي بن كعب سيد القرّاء، ومنّا الذي أيده الله بروح القدس في شعره حسان بن ثابت.

2- مفاخرة يمن بمضر: قال الأبرش الكلبي لخالد بن صفوان: هل أفاخرك؟ –وهما عند الخليفة هشام بن عبد الملك- فقال له خالد: قل، فقال الأبرش: لنا ربع البيت –يريد الركن اليماني- ومنا حاتم طيء، ومنا المهلب بن أبي صُفرة. قال خالد: منا النبي المرسل، وفينا الكتاب المُنزل، ولنا الخليفة المؤمل. قال الأبرش: لا فاخرت مضرياً بعدك.

3- بيوت مضر وفضائلها: قال النبي وقد سئل عن مضر: كنانة جمجمتها وفيها العينان، وأسد لسانها، وتميم كاهلها. أما قريش، فهي أوسط العرب وأشرفها نسباً، وبيوتها في الجاهلية البطون العشرة المشهورة، وفي الإسلام بيت النبي ويضم عموم بني هاشم، ثم البكريين والعمريين والعثمانيين (بني عبد شمس) والزبيريين ونظرائهم.

4- بيوت اليمن وفضائلها: قال النبي : إني لأجد نَفَسَ ربِّكم مِن قبل اليمن( ). أي: إن الله ينفّس عن المسلمين بأهل اليمن، يريد الأنصار. وقال ابن عباس رضي الله عنهما لبعض اليمانية: لكم من السماء نجمها ومن الكعبة ركنها ومن الشرف صميمها. وقال عمر بن الخطاب : من أجود العرب؟ قالوا: حاتم طيء، قال: فمن فارسها؟ قالوا: عمرو بن معد يكرب، قال: فمن شاعرها؟ قالوا: امرئ القيس بن حجر، قال: فأي سيوفها أقطع؟ قالوا: الصَّمصامة، قال: كفى بهذا فخراً لليمن. وروي عن بكر بن سوادة، قال: أتى رجل من مهرة إلى علي بن أبي طالب ، فقال: فمن أنت؟ قال: من مهرة. قال: واذكر أخا عاد إذ انذر قومه بالأحقاف .

5- القبائل والعمائر والشعوب: قال ابن الكلبي: الشِّعْبُ أكبر من القبيلة ثم العمارة ثم البطن ثم الفخذ ثم العشيرة ثم الفصيلة، وقال غيره: الشعوب العجم والقبائل العرب.والعشيرة هي رهط الرجل، أما الفصيلة فهي أهل بيته خاصةً، قال تعالى: وأنذر عشيرتك الأقربين ، وقال تعالى: وفصيلته التي تؤويه .

الفصل الثاني

فضائل الآل والأصحاب

في القرآن والسنة والتراث

فضائل الآل والأصحاب وحملة الرسالة الأولين( )

قال الرسول الله قال: خير أمتي قرني ثم الذين يلونهم، ثم الذين يلونهم.. ثم إن بعدكم قوماً يشهدون ولا يستشهدون، ويخونون ولا يؤتمنون، وينذرون ولا يغنون، ويظهر فيهم السمن .

والحديث يرويه أيضا مسلم وأحمد والترمذي عن ابن مسعود وعن السيدة عائشة وكان الصحابة بذلك خير أمة محمد بشهادته لهم. وان الخير كل الخير فيما كان عليه الآل والأصحاب، وان الدين هو ما اتبعهم عليه صالحو التابعين، ثم مشى على أثارهم فيه التابعون لهم بإحسان.

قال تعالى: كنتم خير أمة أخرجت للناس.. ( ) لقد حفظ الله كتابه بحفظته أميناً عن أمين في صدر هذه الأمة، حتى أدوا أمانة ربهم بعناية لم يسبق لها نظير في أمة من الأمم، فلم يفرطوا في شيء من ألفاظ الكتاب على اختلاف الألسنة العربية في تلاوتها ونبرات حروفها وتنوع مدودها وامالاتها إلى أدق ما يمكن إن يتصوره المتصور. كما قال تعالى: إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون ( ) وتم في صدر هذه الأمة تفرغ فريق من أهل البيت والصحابة فالتابعين وتلاميذهم لحمل أمانة السنة، فكانوا يمحصون أحاديث رسول الله ويذرعون أقطار الأرض ليدركوا الذين سمعوها من فم النبي فيتلقوها كما يتلقون أثمن كنوز الدنيا. بل كانت دار الإمارة في المدينة المنورة منتدى الفقهاء الأولين في صدر الإسلام من الآل والأصحاب وأبنائهم وأشهرهم في عصر التابعين فقهاء المدينة السبعة والمحدثون والرواة وغيرهم من العلماء، وبينما كان حفظة القرآن والسنة يجاهدون في أصول الشريعة الكاملة، كان آخرون من أبناء الآل والأصحاب وأبطال التابعين يحملون أمانة الرسالة والرعاية والجهاد والفتوح العظيمة، ويعملون على نقل الأمم إلى الإسلام، يعربون ألسنتها، ويطهّرون نفوسها، ويسلكونها في سلك الإسلام، لتتعاون معهم على توحيد الإنسانية تحت راية الهدى وتوجيهها إلى أهداف السعادة.

وقد بارك الله لهؤلاء وأولئك في أوقاتهم، وأتم على أيديهم في أقل من نصف قرن من الزمان، ما يستحيل على غيرهم من الأمم والملل أن يعملوه في قرون طويلة. فالإسلام إنما رأى الخير على أيديهم، وانتشر نوره بجهدهم في أرجاء المعمورة آنذاك، فبهم حفظ الله أصوله، وبهم هدى الله الأمم والبلاد التي دخلت في الإسلام على أيديهم، فنبع منها في ظل طريقتهم وعلى أساليبهم كبار الأئمة كالحسن البصري وجعفر الصادق والبخاري وأبى حنيفة والليث بن سعد وعبد الله بن المبارك وغيرهم من الأفذاذ، فكانت الأمم تقبل على هدي القرآن بشغف وتقدير وإخلاص، لما ترى من

إخلاص دعاتها وصدقهم وإيثارهم الآجلة على العاجلة، والأمة التي تولت إقامة دولة العدل والتوحيد ونشر نور الإسلام، كانت تستقبل نوابغ المهتدين بصدر رحب، وتبوئ المؤهلين منهم المكانة التي هم أهل لها.

هكذا كانت الحال في القرون الثلاثة الأولى التي أمتدحها رسول الله ووصفها بأنها خير أمته. أما العصور التي أتت بعدهم فان المسلمين يتميزون فيها بمقدار إتباعهم لجيل النبوة فيما كان عليه من حق وخير، قال رسول الله في حديث رواه احمد والترمذي والطبراني وغيرهم عن علي بن أبي طالب وعبد الله بن عمر وعبد الله بن عمرو، قال: مثل أمتي مثل المطر، لا يدرى أوله خير أم آخره. فأمة محمد إلى خير في كل زمان ومكان ما تحرت الطريق الذي مشى فيه هداة القرون الثلاثة الأولى وتابعوهم فيه، وتاريخها هو دائما تاريخ الأمة الإسلامية ومعياره الدائم، مدى قيام هذه الأمة برسالتها، هل كانت مؤدية لواجبها في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وترسيخ قواعد الإيمان بالله ؟.

أم أنها متقاعسة عنها، ناكلة عن مقتضياتها.. ولقد كانت أمة القرآن في عصر الرسالة وما بعده، قائمة بواجبها مؤدية لرسالتها أحسن قيام.. ولا يزال هذا الخير في أمة محمد في كل زمان ومكان، بل يرجى أن يقيموا الحق في أزماننا، كما أقامه الصحابة والتابعون في أزمنتهم حتى يبلغوا منزلتهم عند الله ويعدوا في طبقتهم، وفي الحديث الشريف، الذي رواه احمد والطبراني والدارمي، قال أبو عبيدة: يا رسول الله أأحد خير منا؟ أسلمنا معك، وجاهدنا معك. فقال النبي قوم يكونون من بعدكم يؤمنون بي ولم يروني.. ويذكر ابن عبد البر الأندلسي، إن من أسباب خيريه القرن الأول وهم جيل الآل والأصحاب، إنهم كانوا غرباء في إيمانهم لكثرة المشركين في الأرض، وصبرهم على الهدى وتمسكهم به، إلى إن عم بهم في أرجائها. فكذلك أواخرهم، إذا أقاموا الدين وتمسكوا به وصبروا على الطاعة حين ظهور المعاصي والفتن، وكانوا أيضا عند ذلك غرباء، وزكت أعمالهم في ذلك الزمان كما زكت أعمال أولئك، ويشهد لهذا القول ما رواه مسلم، إن النبي قال: بدأ الإسلام غريبا: وسيعود غريباً كما بدأ، فطوبى للغرباء.

وفي حديث أخر: يأتي زمان على أمتي الماسك على دينه، كالقابض على الجمر.. وذلك بسبب كثرة الفساد والشرك والفتن وغربة الإسلام وعقيدة القرآن وتعاليمه في حياة الناس.

ومن الغربة التي ظهرت بعد القرون الثلاث الأولى ظهور بعض الكتّاب والإخباريين ممن حاولوا تشويه التاريخ تقرباً للشيطان وحكام السوء وللحقد الشعوبي الدفين والتآمر الرومي اليهودي القديم، فزعموا إن أصحاب رسول الله لم يكونوا إخواناً في الله، ولم يكونوا رحماء بينهم، وإنما كانوا أعداء يلعن بعضهم بعضاً ويمكر بعضهم ببعض، وينافق بعضهم لبعض، ويتآمر بعضهم على بعض، بغياً وعدوانا.

ولقد تعاظم هذا التيار الكاره للآل والأصحاب في العصر العباسي الثاني، ولا سيما في العصر العباسي البويهي وما بعده، بعد انتشار الثقافة الدخيلة الوثنية بين المسلمين والفلسفات اليونانية والهندية والعقائد المجوسية واليهودية بعد عصر الترجمة وتداخل الثقافات في زمن الدولة الإسلامية العظمى.

لقد كذبوا.. فقد كان أبو بكر وعمر وعثمان وعلي أسمى من ذلك وأنبل وكانت قريش عشيرة النبي والمهاجرين من الصحابة، وكانت الأوس والخزرج عشيرتي الأنصار في المدينة، وكانت ثقيف

وهوازن في الطائف، أوفى من ذلك لإسلامهم ورحمهم وقرابتهم، وكانوا أوثق صلة وأعظم تعاونا على الحق والخير.

فهذا الإمام علي بن أبي طالب يتزوج من أسماء بنت عميس زوجة الخليفة أبي بكر الصديق بعد وفاته والتي كانت زوجة جعفر الطيار قبل استشهاده في مؤتة، ويربي ابنها محمد بن أبي بكر في أحضانه، ويسمي أبناءه بأسماء الخلفاء الثلاثة الذين سبقوه، أبي بكر وعمر وعثمان ويتزوج عمر بن الخطاب من أم كلثوم بنت علي بن أبي طالب والتي أنجبت له زيد بن عمر ورقية بنت عمر، وقد تزوج الحسين بن على عاتكة بنت زيد( ) وهي بنت عم عمر بن الخطاب وزوجته قبل استشهاده ويتزوج الحسن بن على بعد الجمل بأم إسحاق بنت طلحة بن عبيد الله وقد سمى الحسن بن علي أحد بنيه (أبا بكر) وأخر باسم (عمر) وثالث باسم (طلحة) وطلحة بن الحسن هو أبن أم إسحاق بنت طلحة، أي كان اسمه على اسم جده طلحة، وكان عيسى بن عبد الله بن محمد بن عمر بن علي بن أبي طالب من نسل عمر بن علي واشتهر بلقب (المبارك العلوي) وكان يكنى (أبا بكر) وهو من أشراف العلويين في العصر العباسي. وقد تزوج الحسين بن علي أم إسحاق بعد وفاة الحسن، وأنجبت منه فاطمة بنت الحسين بن علي وهي أم عبد الله المحض بن الحسن المثنى والد الإمام العلوي المجاهد محمد النفس الزكية، وكان عبد الله بن جعفر الطيار( ) قد سمى ابنه باسم أبي بكر، ومن نسله الثائر عبد الله بن معاوية بن عبد الله بن جعفر الطيار الذي قتله أبو مسلم قائد العباسيين في أواخر العصر الأموي في خراسان.

أما الإمام علي بن الحسين (زين العابدين) فمن أبنائه عمر بن زين العابدين، وتزوجت أخته سكينة بنت الحسين زيد بن عمر بن عثمان بن عفان ثم من بعده مصعب بن الزبير بن العوام الذي قتل في الكوفة على يد الأمويين. وتزوجت أختها فاطمة بنت الحسين عبد الله بن عمرو بن عثمان بن عفان بعد وفاة زوجها الحسن المثنى بن الحسن بن علي.

وتزوج الحسن بن علي خولة بنت منظور الفزارية وكانت زوجة محمد بن طلحة قبل مقتله مع أبيه يوم الجمل، فولدت له الحسن المثنى بن الحسن السبط، وتزوج الإمام علي بعد وفاة السيدة فاطمة(رضي الله عنها) من بنت أختها أمامة بنت زينب بنت رسول الله وهي ابنة أبي العاص بن الربيع.

فهل يعقل أن هؤلاء الأقارب المتلاحمين الذين يتخيرون مثل هذه الأمهات لأنسابهم، ومثل هذه الأسماء لفلذات أكبادهم، وقد وصفهم الله ورسوله بأنهم خير أمة أخرجت للناس، كانوا على غير ما أراده الله لهم من الأخوة في الإسلام، والمحبة في الله، والتعاون على البر والتقوى ؟..

قال تعالى: والسابقون الأولون من المهاجرين والأنصار والذين اتبعوهم بإحسان، رضي الله عنهم ورضوا عنه، واعد لهم جنات تجري تحتها الأنهار، خالدين فيها أبدا، ذلك الفوز العظيم ( ).

الآل والأصحاب في القرآن الكريم

قال تعالى: كنتم خير أمة أخرجت للناس تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر وتؤمنون بالله ( ) تخاطب هذه الآية صحابة رسول الله وآل بيته وأثبتت لهم الخيرية المطلقة على باقي الأمم

والأجيال، لما اتصفوا به من الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر والإيمان بالله، فهي وان شملت أمة القرآن عامة، فان هذه الأمة لم تكن في وقت نزول الآية إلا جماعة الصحابة والآل حصراً.

وقال تعالى: والسابقون الأولون من المهاجرين والأنصار والذين اتبعوهم بإحسان رضي الله عنهم ورضوا عنه، وأعد لهم جنات تجري تحتها النهار خالدين فيها أبدا ذلك الفوز العظيم ( ).
فقد أخبر الله تعالى انه قد رضي عن السابقين الأولين من المهاجرين والأنصار والذين اتبعوهم بإحسان، فلم يبغضوهم ويبخسوا حقهم بل ساروا على منهجهم وهديهم وهو هدى القرآن والسنة، وصفة هؤلاء التابعين محبة الصحب والآل والاقتداء بهم والدعاء لهم لأنهم السابقون في الإيمان والقدوة لهم كما قال تعالى:

والذين جاءوا من بعدهم يقولون ربنا اغفر لنا ولإخواننا الذين سبقونا بالإيمان، ولا تجعل في قلوبنا غلاً للذين أمنوا.. ( ).وقال تعالى في منهج جيل الآل والأصحاب الكرام: وكذلك جعلناكم أمة وسطاً لتكونوا شهداء على الناس ويكون الرسول عليكم شهيدا ( ). ومن لطائف الإعجاز القرآني وموافقاته العددية واللفظية، أن نجد آية الأمة الوسط المنيرة تحمل الرقم (143) من أصل 286 آية هي مجموع آيات سورة البقرة، فتكون بذلك آية الأمة الوسط واقعة في وسط السورة، وهي تدعو الأمة أن تكون وسطاً كما أراد لها الله سبحانه، لتكون الأمة الرائدة والشاهدة شهادة العدل والقسط في الدنيا والآخرة على باقي الأمم، مكانياً وزمانياً، ويكون نبي الأمة النبي العربي هو الشاهد عليها بعرض أعمالها عليه، وعلى الكتاب والسنة، وفق منهج الوسطية الربانية، فسبحان الله على تلك التزكية وذلك التكريم حين نسير في ضوء منهج القرآن ووفق الإرشاد الرباني الحكيم.

ووسطاً في الآية أي عدلاً. قال تعالى: (قال أوسطهم) أي أعدلهم والمخاطب بهذه الآية- أولا- أصحاب النبي وآله، إذ هم الذين شهدوا التنزيل وعليهم قرئت، وفي صلاتهم تليت. فهذه شهادة من الله بعدالتهم التي استحقوا أن يكونوا شهداء على الناس والخيرية على من بعدهم من الأجيال والأمم حتى تقوم الساعة.

وقال: والذين أمنوا وهاجروا في سبيل الله، والذين آووا ونصروا أولئك هم المؤمنون حقاً لهم مغفرة ورزق كريم ( ). وهذه شهادة من الله على حقيقة إيمان المهاجرين والأنصار وأنهم مؤمنون حقاً ظاهراً وباطناً. كما قال في أول السورة نفسها: إنما المؤمنون الذين إذا ذكر الله وجلت قلوبهم، وإذا تليت عليهم آياته زادتهم إيماناً وعلى ربهم يتوكلون، الذين يقيمون الصلاة ومما رزقناهم ينفقون، أولئك هم المؤمنون حقا، لهم درجات عند ربهم ومغفرة ورزق كريم ( )
(فالمؤمنون حقاً) هنا هم (المؤمنون حقاً) هناك، والمغفرة والرزق الكريم لهم في كلتا الآيتين من السورة نفسها فتأمل أخي المسلم!.

ولقد ذكر الله سبحانه المهاجرين والأنصار في مواضع كثيرة من القرآن الكريم، منها قوله:
للفقراء المهاجرين الذين اخرجوا من ديارهم وأموالهم يبتغون فضلاً من الله ورضوانا، وينصرون الله ورسوله أولئك هم الصادقون. والذين تبوؤا الدار والإيمان من قبلهم، يحبون من هاجر إليهم، ولا يجدون في صدورهم حاجة مما أتوا، ويؤثرون على أنفسهم ولو كان بهم خصاصة، ومن يوق شح نفسه فأولئك هم المفلحون ( ).. فخص المهاجرين بوصف (الصادقين) والأنصار بوصف (المفلحين).

وقال تعالى: إن الذين أمنوا والذين هاجروا وجاهدوا في سبيل الله أولئك يرجون رحمة الله والله غفور رحيم ( ) في هذه الآية الكريمة يمدح الله تعالى ويشهد بحسن نواياهم وإنهم إنما خرجوا يرجون رحمة الله، ولا يرجون غيره، ولقد ذكر الله المهاجرين في آيات كثيرة وشهد لهم بحسن الخاتمة والثواب العظيم في الآخرة، فقد جاء في سورة النحل، قوله تعالى: والذين هاجروا في الله من بعد ما ظلموا لنبوِّئنهم في الدنيا حسنة ولأجر الآخرة اكبر لو كانوا يعلمون، الذين صبروا وعلى ربهم يتوكلون ( ).

ويقول في سورة الحج: والذين هاجروا في سبيل الله ثم قتلوا أو ماتوا ليرزقهم الله رزقاً حسنا، وان الله لهو خير الرازقين ( ) وقال تعالى في سورة آل عمران: فاستجاب لهم ربهم إني لا أضيع عمل عامل منكم من ذكر أو أنثى بعضكم من بعض، فالذين هاجروا واخرجوا من ديارهم وأوذوا في سبيلي وقاتلوا وقتلوا لأكفرن عنهم سيئاتهم ولأدخلنهم جنات تجري من تحتها الأنهار. ثواباً من عند الله والله عنده حسن الثواب ( ).

فيا ترى من هؤلاء المهاجرون ومن هم مشاهيرهم وطليعتهم.. إنهم - أبو بكر وعمر وعثمان وعلي وجعفر الطيار وحمزة وطلحة والزبير وسعد وسعيد وعبد الرحمن ومصعب بن عمير وبلال الحبشي وصهيب الرومي وسلمان الفارسي وعمار وأبو ذر وابن مسعود وأبو عبيدة وعثمان بن مظعون وزيد بن حارثة وزيد بن الخطاب وأمثالهم من عظماء الإسلام ورواده ممن هاجر الهجرتين إلى الحبشة ثم المدينة المنورة، أو ممن سبق الرحمة المهداة في هجرته المباركة بعد أن بايعه الأنصار في بيعة العقبة الأولى والثانية على نصره ومؤازرته واحتضان دعوته ورسالته والجهاد معه وبذل الغالي والنفيس في سبيل دعوة الحق والنور، كما بذل المهاجرون من قبل كل ما لديهم في سبيل نصرة دينهم أمام عنت وصلف المشركين في مكة طوال ثلاث عشرة سنة وواجهوا فيها أنواع العذاب والاضطهاد والقتل والتشريد والحصار والمقاطعة، فهؤلاء وأمثالهم من المهاجرين هم الذين ذكرهم الله سبحانه في قرآنه وأشاد بدورهم وجهادهم وثباتهم وتضحيتهم أمام قوى الشرك في تلك الجاهلية العاتية العنيدة.

أما الأنصار وهم الركن الثاني من صحابة رسول الله بعد المهاجرين فقد ذكرهم الله سبحانه في آيات عديدة أخرى أيضاً , فقد جمعهم مع المهاجرين وجعلهم من السابقين الأولين من المهاجرين والأنصار، هم الذين آووا ونصروا كما ذكرهم الله في سورة الأنفال( ) ووصفهم بأنهم هم المؤمنون حقا.. وهم الذين تبوؤا الدار والإيمان من قبلهم ويحبون من هاجر إليهم.. كما ذكرنا أعلاه في سورة الحشر( ). وقد أشار القرآن الكريم إلى فضل الله عليهم، حينما كانت قبيلتا الأوس والخزرج في صراع وحرب دائمة في الجاهلية، حين ألف بين قلوبهم بالإسلام وبهجرة الرسول الكريم إليهم، في قوله تعالى: واعتصموا بحبل الله جميعاً ولا تفرقوا واذكروا نعمة الله عليكم إذ كنتم أعداءً فألف بين قلوبكم فأصبحتم بنعمته إخوانا، وكنتم على شفا حفرة من النار فأنقذكم منها كذلك يبين الله لكم آياته لعلكم تهتدون ( ). فنزلت هذه الآية في الأنصار (الأوس والخزرج) حين حاول بعض اليهود أن يحرش بينهم مستغلاً العداوة الماضية، فأوشكوا أن يتقاتلوا، فانزل الله تلك الآيات في سورة آل عمران أمراً إياهم بالاعتصام بحبله وترك التفرق ومذكراً إياهم بنعمته التي أصبحوا بها إخواناً بعد أن كانوا في الجاهلية أعداء يقتل بعضهم بعضاً، وانه أنقذهم من النار بعد أن كانوا على شفيرها، ومن أنقذه الله من النار، فهو في الجنة قطعاً. وأشهر رجال الأنصار أصحاب بيعة العقبة الأولى والثانية ومن ماثلهم ومنهم: سعد بن معاذ وأبي بن كعب وحسان بن

ثابت وزيد بن ثابت وسعد بن عبادة وانس بن مالك والبراء بن عازب وعاصم بن ثابت ومعاذ بن جبل وعبد الله بن رواحه وغيرهم من الأبطال.

أما أهل بدر من الصحابة، فقد ذكرهم الله في كتابه بقوله ولقد نصركم الله ببدر وانتم أذلة فاتقوا الله لعلكم تشكرون ( )، كما سمى الله سبحانه معركة بدر الكبرى بيوم الفرقان، وأنزل بحقها وحق أهلها (أهل بدر) سورة الأنفال كاملة.. قال تعالى: إن كنتم آمنتم بالله وما أنزلنا على عبدنا يوم الفرقان يوم التقى الجمعان والله على كل شيء قدير ( ). لان معركة بدر قد فرقت بين الحق والباطل وأهل الحق وأهل الباطل تفريقاً واضحاً.

وفي أهل بدر من المهاجرين والأنصار انزل الله تعالى قوله: وينزل عليكم من السماء ماءً ليطهركم به ويذهب عنكم رجز الشيطان ( ). تماما كما قال تعالى في أهل البيت وهم أيضا من الصحابة الكرام لاسيما الإمام على وكذلك زوجات النبي فقال: إنما يريد الله ليذهب عنكم الرجس أهل البيت ويطهركم تطهيرا ( ) في التكافؤ بين هاتين الآيتين الكريمتين يظهر التكافؤ والدرجة الرفيعة عند الله لأهل بدر من المهاجرين والأنصار ولأهل البيت، كما نرى ذلك واضحاً من خلال قراءة الآيتين أعلاه. فإذهاب الرجس والتطهير هو مضمون الآيتين وموضوعها.

أما أهل أحد من المهاجرين والأنصار ومن الآل والأصحاب، فقد ذكرهم الله في آيات عديدة، منها: إذ تقول للمؤمنين ألن يكفيكم أن يمدكم ربكم بثلاثة آلاف من الملائكة منزلين ... وما جعله الله إلا بشرى لكم ولتطمئن قلوبكم به وما النصر إلا من عند الله العزيز الحكيم ( ). وفي غزوة تبوك (العسرة) واختصاص الله إياهم بالتوبة والرحمة، يقول تعالى عن أهل غزوة تبوك لقد تاب الله على النبي والمهاجرين والأنصار الذين اتبعوه في ساعة العسرة من بعد ما كاد يزيغ قلوب فريق منهم، ثم تاب عليهم انه بهم رؤوف رحيم ( ). وفي أهل صلح الحديبية، وكان عددهم ألفاً وأربعمائة من صحابة رسول الله ، وقد قال عنهم النبي :

لا يدخل النار أحد ممن بايع تحت الشجرة( ).

وقال أيضا: انتم خير أهل الأرض اليوم ( ). وكان في مقدمتهم الخلفاء الراشدون، وذكرهم الله ورضي عنهم في آيات عديدة من سورة الفتح قال تعالى: لقد رضي الله عن المؤمنين. إذ يبايعونك تحت الشجرة، فعلم ما في قلوبهم فانزل السكينة عليهم وأثابهم فتحاً قريباً. ومغانم كثيرة يأخذونها، وكان الله عزيزاً حكيما ( ).

أما الخلفاء الراشدون، فقد قال الله تعالى فيهم:

وعد الله الذين أمنوا منكم وعملوا الصالحات ليستخلفنهم في الأرض كما استخلف الذين من قبلهم، وليمكنن لهم دينهم الذي ارتضى لهم، وليبدلنّهم من بعد خوفهم أمناُ، يعبدونني لا يشركون بي شيئا، ومن كفر بعد ذلك فأولئك هم الفاسقون ( ).

كبار الصحابة في القرآن الكريم

لقد استدل الإمام علي على صحة خلافته وشرعيتها. بصحة خلافة الخلفاء الراشدين الثلاثة الذين من قبله فجعل خلافتهم أصلاً يرجع إليه ويقاس عليه، فقال في رسالته إلى معاوية: (انه

بايعني القوم الذين بايعوا أبا بكر وعمر وعثمان على ما بايعوهم، فلم يكن للشاهد أن يختار ولا للغائب أن يرد، وإنما الشورى للمهاجرين والأنصار، فان اجتمعوا على رجل وسموه إماما كان ذلك لله رضا)( )..

وقد سماهم القرآن الكريم، أولئك هم الراشدون، في قوله تعالى:

واعلموا أن فيكم رسول الله لو يطيعكم في كثير من الأمر لعنتم، ولكن الله حبب إليكم الإيمان وزينه في قلوبكم وكره إليكم الكفر والفسوق والعصيان، أولئك هم الراشدون، فضلا من الله ونعمة والله عليم حكيم ( ). وفي أبي بكر الصديق، صاحب الغار وأول الخلفاء الراشدين، قال الله تعالى فيه : إلا تنصروه فقد نصره الله إذ أخرجه الذين كفروا ثاني اثنين، إذ هما في الغار، إذ يقول لصاحبه، لا تحزن إن الله معنا، فانزل الله سكينته عليه وأيده بجنود لم تروها، وجعل كلمة الذين كفروا السفلى، وكلمة الله هي العليا، والله عزيز حكيم ( ). فالمعية هنا- لغة- خاصة، كما في قوله تعالى: قال موسى كلا إن معيَ ربي سيهدين وقوله: إن الله مع الصابرين وقوله تعالى: إن الله مع الذين اتقوا والذين هم محسنون ، فهذه الآيات تشير إلى المعية تماما كما في الآية أعلاه التي نزلت بحق أبي بكر وهو بصحبة نبي الرحمة في هجرتهما الميمونة، وقوله: لا تحزن إن الله معنا وهي معية النصر والحفظ والتأييد، فمعية التأييد الإلهي الخاصة، هي غير معية العلم العامة، فالله سبحانه مع جميع الناس بعلمه، مؤمنهم وكافرهم، وهو مع الصابرين والمحسنين ومع المتقين دون غيرهم ومع موسى وهارون دون فرعون وهامان وجنودهما ومع النبي وصاحبه أبي بكر دون أبي جهل ومن معه ممن كانوا يبحثون عنهما وهما في الغار، وان كان مع الجميع بعلمه، فالمعية الخاصة هي التي يكون لصاحبها المختص بها فضل وشرف بنصر الله وتأييده وهو ما تشير إليه هذه الآية الكريمة.

أما السيدة عائشة زوج النبي فقد اختصها الله سبحانه بست عشرة أية من سورة النور: نزلت خصيصاً في شأن عائشة(رضي الله عنها) وتبرئتها من حديث الإفك، وإنها محصنة غافلة مؤمنة، ويختم الله عز وجل هذه الآيات بوصفه لها بأنها طيبة زوجة الطيب وهو النبي . ثم يشهد لها بالجنة والمغفرة.. وهي أم المؤمنين بنص القرآن، قال تعالى: }النبي أولى بالمؤمنين من أنفسهم وأزواجه أمهاتهم{ ( ) وقال تعالى في حق عائشة(رضي الله عنها) وفي تبرئتها والرد على الذين تقولوا حديث الإفك المفترى: إن الذين جاؤوا بالإفك عصبة منكم لا تحسبوه شراً لكم بل هو خير لكم، لكل امرئ منهم ما اكتسب من الإثم، والذي تولى كبره منهم له عذاب عظيم، لولا إذ سمعتموه ظن المؤمنون والمؤمنات بأنفسهم خيرا، وقالوا هذا إفك مبين، لولا جاءوا عليه بأربعة شهداء، فإذ لم يأتوا بالشهداء فأولئك عند الله هم الكاذبون، ولولا فضل الله عليكم ورحمته في الدنيا والآخرة لمسكم فيما أفضتم فيه عذاب عظيم. إن الذين يحبون أن تشيع الفاحشة في الذين أمنوا لهم عذاب اليم في الدنيا والآخرة والله يعلم وانتم لا تعلمون ... إن الذين يرمون المحصنات الغافلات المؤمنات لعنوا في الدنيا والآخرة ولهم عذاب عظيم، يوم تشهد عليهم ألسنتهم وأيديهم وأرجلهم بما كانوا يعملون، يومئذٍ يوفيهم الله دينهم الحق ويعلمون أن الله هو الحق المبين، الخبيثات للخبيثين والخبيثون للخبيثات والطيبات للطيبين والطيبون للطيبات، أولئك مبرؤون مما يقولون, لهم مغفرة ورزق كريم ( ). أما بقية نساء النبي وأزواجه، فقد سماهم الله عز وجل أمهات المؤمنين ولذلك حرمهن الله سبحانه على المؤمنين من بعده، كما في قوله تعالى: وما كان لكم أن تؤذوا رسول الله ولا أن تنكحوا أزواجه من بعده أبدا، إن ذلكم كان عند الله عظيما ( ). فرسول الله

أولى بنا من أنفسنا وأبنائنا، وأزواجه أقرب إلينا من أمهاتنا بنص القرآن وليس برأي أو اجتهاد، فدفاعنا إذن عن رسول الله يجب أن يكون أشد من دفاعنا عن أنفسنا وأبنائنا، ودفاعنا عن أزواجه أشد من دفاعنا عن أمهاتنا، لأنهن أمهات المؤمنين، لذلك يترتب على هذه النصوص، كمال الإجلال والاحترام لأزواج النبي جميعاً, فالمؤمن الحق لا يسيء ولا يسب أمهات المؤمنين، مهما حاول الأعداء تشويه تراثنا وحثنا على فعل السوء وما يخالف القرآن.

وقد نزلت في أمهات المؤمنين آيات أخر عديدة منها: يا أيها النبي قل لأزواجك أن كنتن تردن الحياة الدنيا وزينتها فتعالين أمتعكن وأسرحكن سراحاً جميلا، وان كنتن تردن الله ورسوله والدار الآخرة, فان الله اعد للمحسنات منكن أجراً عظيماً ( ). وقال تعالى: لا يحل لك النساء من بعد ولا أن تبدل بهن من أزواج ولو أعجبك حسنهن، إلا ما ملكت يمينك، وكان الله على كل شيء رقيبا ( ) أي أن الله تعالى لما رأى صدقهن في اختيار الله ورسوله وترك الدنيا وزينتها، جازاهن بشيء فوق إقرار نبيه على بقائهن في عصمته وعدم طلاقهن وتسريحهن، ذلك انه نهاه عن أن يتزوج عليهن بعد ذلك.

وفي أفضلية نساء النبي على نساء العالمين، قال تعالى: يا نساء النبي لستن كأحد من النساء أن اتقيتن.. ( ) وفي هذه الآية وما بعدها من الآيات الكريمة، فضيلة لنساء النبي بمجموعهن على نساء العالمين، كيف لا؟ والرسول هو المختار، واختار الله له أعلى المنازل وأعظم المقامات وخير الأمم وخير الكتب وخير الآل وخير الأصحاب وخير الأزواج..

وقوله تعالى: إنما يريد الله ليذهب عنكم الرجس أهل البيت ويطهركم تطهيرا ( ). هي خطاب لأزواج النبي خاصة ولأهل بيته من أقاربه عامة، بدليل سياق الآيات، فالآيات التي قبل الآية وبعدها تخاطب نساء النبي ، فان الله تعالى قال قبله: وقرن في بيوتكن ... ثم جاءت نهاية الآية عبارة: إنما يريد الله ليذهب عنكم الرجس... ثم قال بعده: واذكرن ما يتلى في بيوتكن من آيات الله والحكمة أن الله كان لطيفا خبيرا ( ). كما إن أهل بيت الرجل وأهل الرجل في اللغة تطلق على الزوجة ومن يجمعه وإياهم مسكن واحد.. وعبر بأهل الرجل عن امرأته وتأهل إذا تزوج( ). وفي ذلك قال تعالى في قصة موسى وسار بأهله.. ( ) وفي قصة لوط: فأنجيناه وأهله إلا امرأته كانت من الغابرين ( ). وهكذا خاطب الملائكة زوجة إبراهيم حين بشروه بإسحاق فتعجبت زوجة إبراهيم من ذلك لأنها كانت عجوزاً عقيماً، فقالوا لها: قالوا أتعجبين من أمر الله، رحمة الله وبركاته عليكم أهل البيت انه حميد مجيد ( ). والآية الكريمة تشمل أقارب النبي بطريق العموم، فان الله عز وجل يريد إذهاب الرجس عنهم والتطهير لهم لأنهم أقرب الناس إليه رحماً.

ويؤكد القرآن الكريم أيضا على أهمية الأحاديث النبوية التي روتها زوجات النبي ووجوب تلقيها بالقبول والاهتمام والعمل بها وهي الحكمة النبوية بنص القرآن، قال تعالى: واذكرن ما يتلى في بيوتكن من آيات الله والحكمة، إن الله كان لطيفاً خبيرا ( ). وهو أمر من الله اللطيف الخبير لأمهات المؤمنين بوجوب ذكر ما انزل في بيوتهن من آيات الله، وما يحدث فيها من أحوال النبي وأقواله، وهي (الحكمة) لان في ذلك تشريعاً للأمة لا يمكن أن نطلع عليه إلا عن طريقهن، وقد ائتمنهن الله عليه. وذلك لا يتم إلا بعد تلقينا الأحاديث الصحيحة المنقولة عن طريقهن في كتب الحديث بالقبول والتصديق، كما في الأحاديث المنيرة والكثيرة التي روتها السيدة

عائشة(رضي الله عنها) والسيدة أم سلمة(رضي الله عنها) وبقية أزواج النبي وبناته ومن روى عنهم من أبناء وبنات الآل والأصحاب مما يزدهر به تراثنا الإسلامي.

وفي عموم الصحابة، ممن أسلم قبل الفتح أو بعده، يقول تعالى: لا يستوي منكم من أنفق من قبل الفتح وقاتل، أولئك أعظم درجة من الذين أنفقوا من بعد وقاتلوا، وكلاً وعد الله الحسنى والله بما تعملون خبير ( ) وفيه وعد من الله لهم بالجنة وهي الحسنى، كما في قوله تعالى: إن الذين سبقت لهم منا الحسنى أولئك عنها مبعدون ( ).

وقد أكد القرآن الكريم صدق الصحابة وإخلاصهم في إيمانهم وفي دورهم في تحمل أعباء الرسالة مع النبي وبعده، كما في قوله تعالى: يوم لا يخزي الله النبي والذين أمنوا، نورهم يسعى بين أيديهم وبأيمانهم، يقولون ربنا أتمم لنا نورنا واغفر لنا انك على كل شيء قدير ( ).

والقرآن الكريم يفرق تفريقاً واضحاً لا لبس فيه بين الصحابة وبين المنافقين ممن تظاهر بالإسلام وأبطن الكفر، وذلك واضح لكل من قرأ القرآن وتدبره، قال تعالى: أفلا يتدبرون القرآن، أم على قلوبٍ أقفالها ( ) وفي تمييز المنافقين عن المؤمنين يقول الله تعالى: المنافقون والمنافقات بعضهم من بعض يأمرون بالمنكر وينهون عن المعروف ويقبضون أيديهم، نسوا الله فنسيهم، إن المنافقين هم الفاسقون ( ). ثم ذكر المؤمنين فقال: والمؤمنون والمؤمنات بعضهم أولياء بعض يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر ويقيمون الصلاة ويؤتون الزكاة، ويطيعون الله ورسوله، أولئك سيرحمهم الله، إن الله عزيز حكيم ( ). والمؤمنون والمؤمنات هؤلاء الذين هم بعضهم أولياء بعض ذكرهم الله في موضع أخر، فعرّفهم وسماهم، فقال تعالى: إن الذين أمنوا وهاجروا وجاهدوا بأموالهم وأنفسهم في سبيل الله، والذين آووا ونصروا أولئك بعضهم أولياء بعض ( ). فهم - إذن – المهاجرون والأنصار (أي الآل والأصحاب) وقد وعدهم الله بالجنة فقال: وعد الله المؤمنين والمؤمنات جنات تجري من تحتها النهار خالدين فيها ومساكن طيبة في جنات عدن، ورضوان من الله اكبر، ذلك هو الفوز العظيم ( ). في مقابل ذلك وعد المنافقين بالنار فقال: وعد الله المنافقين والكفار نار جهنم خالدين فيها. هي حسبهم ولعنهم الله ولهم عذاب مقيم ( ). وقد توسعت سورة التوبة في وصف غزوة تبوك ودور أهل النفاق فيها وما كادوا به للنبي والمسلمين وكيف أنهم كانوا (يقبضون أيديهم)، كما صورت دور المؤمنين من المهاجرين والأنصار الذين اتبعوا النبي في ساعة العسرة وتحمّلوا المشاق والحر الشديد والسفر الطويل، وكيف إن هذا الجيش الذي جهز نصف فرسانه، عثمان من ماله الخاص، تبين الفرق بين الصحابة والمنافقين.

ولما ذكر الله المهاجرين والأنصار ووعدهم بالجنة، في قوله: والسابقون الأولون من المهاجرين والأنصار والذين اتبعوهم بإحسان رضي الله عنهم ورضوا عنه وأعد لهم جنات تجري تحتها الأنهار ( ). قال بعدها: وممن حولكم من الأعراب منافقون، ومن أهل المدينة، مردوا على النفاق ( ) .وذلك تمييزا عن المؤمنين من الآل والأصحاب الذين كان لهم السبق في الإسلام وبايعوا النبي على الشهادة والبذل والتضحية، وفي مقدمتهم أهل بدر وأحد والأحزاب وبيعة الرضوان..من المهاجرين والأنصار. والصحابة هم قدوة السابقين من الأمم واللاحقين من هذه الأمة، كما قال تعالى: محمد رسول الله والذين معه أشداء على الكفار رحماء بينهم تراهم ركعاً سجداً، يبتغون فضلاً من الله ورضوانا، سيماهم في وجوههم من أثر السجود، ذلك مثلهم في التوراة

ومثلهم في الإنجيل، كزرع أخرج شطأه فآزره فاستغلظ فاستوى على سوقه، يعجب الزراع ليغيظ به بهم الكفار، وعد الله الذين آمنوا منهم وعملوا الصالحات مغفرة وأجراً عظيماً ( ).

وأخيراً فان واجب الأمة أن تستغفر لجيل النبوة وتجلهم وتترك الخوض فيما شجر بينهم وما أحدثه الأعداء من المشركين والمنافقين والغلاة من فتن في عصرهم، قال تعالى، بعد أن ذكر الآل والأصحاب من المهاجرين والأنصار: والذين جاؤوا من بعدهم يقولون ربنا اغفر لنا ولإخواننا الذين سبقونا بالإيمان، ولا تجعل في قلوبنا غلاً للذين آمنوا ربنا إنك رءوف رحيم ( ).

الإمام علي والصحابة في ظلال نهج البلاغة

قال الإمام علي في نهج البلاغة في خطبة له متذمراً من أصحابه وجيشه، ومقارناً بينهم وبين أصحاب محمد : ولقد رأيت أصحاب محمد ، فما أرى أحداً يشبههم منكم، لقد كانوا يصبحون شعثاً غبراً، وقد باتوا سجداً وقياما، يراوحون بين جباههم وخدودهم ويقفون على مثل الجمر من ذكر معادهم، كأن بين أعينهم ركب المعزى من طول سجودهم، إذا ذكر الله هملت أعينهم حتى تبل جيوبهم، ومادوا كما يميد الشجر يوم الريح العاصف، خوفاً من العقاب ورجاء الثواب ( ). وفي خطبة أخرى له عليه السلام يخاطب أصحابه الذين عقّوه: ولوددت إن الله فرّق بيني وبينكم، والحقني بمن هو أحق بي منكم، قوم والله ميامين الرأي مراجيح الحلم، مقاويل للحق، متاريك للبغي، مضوا قدماً على الطريقة، وأوجفوا على المحجة، فظفروا بالعقبى الدائمة والكرامة الباردة ( ). وفي خطبة له عليه السلام، يتشوّق فيها إلى ذكر الآل والأصحاب الذين جاهدوا معه ومع رسول الله ويعدّد مناقبهم فيقول: أين القوم الذين دعوا للإسلام فقبلوه، وقرءوا القرآن فأحكموه، وهيجوا إلى القتال فولهوا وله اللقاح إلى أولادها، سلبوا السيوف أغمادها وأخذوا بأطراف الأرض زحفاً زحفاً وصفاً صفاً، بعض هلك وبعض نجا، لا يبشرون بالأحياء، ولا يعزون عن الموتى، مره العيون من البكاء خمص البطون من الصيام، ذبل الشفاه من الدعاء، صفر الألوان من السهر، على وجوههم غبرة الخاشعين، أولئك إخواني الذاهبون( ). فحق لنا أن نظمأ إليهم ونعض الأيدي على فراقهم( ). ومن كلامه عليه السلام ذاكراً حاله وحال الصحابة مع رسول الله : ولقد كنا مع رسول الله نقتل آباءنا وأبناءنا وإخواننا وأعمامنا، ما يزيدنا ذلك إلا أيماناً وتسليما ومضياً على اللمم وصبراً على مضض الألم، وجداً في جهاد العدو، ولقد كان الرجل منا والآخر من عدونا يتصاولان تصاول الفحلين، يتخالسان أنفسهما أيهما يسقي صاحبه كأس المنون، فمرة لنا من عدونا، ومرة لعدونا منا، فلما رأى الله صدقنا، أنزل بعدونا الكبت وأنزل علينا النصر، حتى استقر الإسلام ملقياً جرّانه ومتبوئاً أوطانه( ) ولعمري لو كنا نأتي ما أتيتم ما قام للدين عمود ولا أخضر للإيمان عود، وأيم الله ولتحتلبنها دماً ولتتبعنها ندماً( ). فلو كان الصحابة كما يصفهم بعض الغلاة اليوم لما: (قام للدين عمود ولا اخضر للإيمان عود) بشهادة الإمام علي في كتاب (نهج البلاغة). وقال في مدح الأنصار: هم والله ربوا الإسلام كما يربى الفلو مع غنائمهم بأيديهم السياط وألسنتهم السلاط( ). ومن كلام له في ذم أتباع معاوية مقارناً بينهم وبين الآل والأصحاب من المهاجرين والأنصار: جفاة طغام، وعبيد أقزام جمعوا من كل أوب وتلقطوا من كل شوب. وليسوا من المهاجرين والأنصار ولا من الذين تبؤوا الدار( ).

ومن رسالة له إلى معاوية، يؤكد فيها على الشورى في اختيار الخليفة وشرعية الخلافة الراشدة لمن سبقوه فيها، وان خلافتهم تمت بإجماع المهاجرين والأنصار، وان خلافته أصبحت شرعية ملزمة لمعاوية وغيره، وان بيعته صحيحة لصحة بيعة الخلفاء الثلاثة الذين سبقوه، إذ إنها تمت على النحو الذي تمت فيه البيعات السابقة، يقول : انه بايعني القوم الذين بايعوا أبا بكر وعمر وعثمان على ما بايعوهم عليه، فلم يكن للشاهد أن يختار ولا للغائب أن يرد، وإنما الشورى للمهاجرين والأنصار، فان اجتمعوا على رجل وسموه أماماً كان ذلك لله رضاً، فان خرج من أمرهم خارج بطعن أو بدعة، ردوه إلى ما خرج منه، فان أبى قاتلوه على أتباعه غير سبيل المؤمنين: وولاه الله ما تولى ( ). وفي خطبة أخرى له حول الإمامة والشورى، يقول : أيها الناس، إن أحق الناس بهذا الأمر أقواهم، عليه، وأعلمهم بأمر الله فيه، فان شغب شاغب استعتب، فان أبى قوتل. ولعمري لئن كانت الإمامة لا تنعقد حتى يحضرها عامة الناس، فما إلى ذلك سبيل، ولكن أهلها يحكمون على من غاب عنها، ثم لم يكن للشاهد أن يرجع ولا للغائب أن يختار( ). فتأمل - أخي المسلم - كيف جعل الإمام علي الإمامة تنعقد بالشورى من أهلها، أي أهل الحل والعقد والأعيان وهم المهاجرون والأنصار وأهل السابقة في ذلك العصر، فينوبون عن عامة الناس لاختيار الخليفة أو الحاكم بالشورى كما جاء في القرآن والسنة. وفي قول له: فنظرت في أمري فإذا طاعتي سبقت بيعتي وإذا الميثاق في عنقي لغيري( ). وهو تسليم منه بوجوب طاعته لمن صار الخليفة بعد النبي وان ذلك ميثاق في عنقه يجب الوفاء به.

ويقول أيضا في نظرته للحكم والخلافة: والله ما كانت لي للخلافة رغبة ولا في الولاية إربة، ولكنكم دعوتموني إليها وحملتموني عليها( ). وفي خطبته بعد قتل عثمان ورغبة الناس في مبايعته للخلافة يقول: دعوني والتمسوا غيري ... وان تركتموني فأنا كأحدكم، ولعلي أسمعكم وأطوعكم لمن وليتموه أمركم. وأنا لكم وزيراً خير لكم مني أميرا( ). فتمنعه من البيعة وزهده في الخلافة وتذكيرهم بدوره السابق كوزير في عهد الخلفاء الراشدين الذين سبقوه، كل ذلك يصور لنا منهج الإمام على ونظرته للخلافة وانتخاب الخليفة وفق مبدأ الشورى القرآني، وزهده الشخصي وعدم طمعه بالحكم فضلاً عن شعوره الصادق بعدم وجود نص محدد لمن يخلف النبي . وكذلك اقتناعه اليقيني بشرعية الخلافة الراشدة ودوره المعروف كوزير مقرب ومستشار وناصح أمين مع الخلفاء الراشدين أبي بكر وعمر وعثمان رضوان الله عليهم أجمعين.

ولقد رثى الخلفاء الثلاثة بأبلغ الخطب وأعمق الكلمات وأصدق المشاعر سواء في كتاب نهج البلاغة أو كتب التراث الإسلامي لدى الفريقين، لكننا نحاول أن نعيش في ظلال نهج البلاغة فحسب، فنجتني القطوف الدانية المزهرة التي تصور نظرة الإمام علي للصحابة ومحبته لهم، ومن ذلك قوله في عمر بن الخطاب : لله بلاء فلان، فقد قوّم الأود وداوى العمد، خلف الفتنة وأقام السنة، ذهب نقي الثوب قليل العيب، أصاب خيرها وسبق شرها، أدى إلى الله طاعته واتقاه بحقه( ). قال ابن أبي الحديد في (شرح نهج البلاغة) : وفلان المكنى عنه هو عمر بن الخطاب، وقد كتب الشريف الرضي في نسخته وهو الذي جمع روايات (نهج البلاغة) ،وقد كتب تحت (فلان) عمر، وروي عنه انه قال سألت عنه النقيب أبا جعفر يحيى العلوي. فقال لي: هو عمر، فقلت له: أثنى عليه أمير المؤمنين ؟ فقال: نعم ( ). وقال أيضا في عمر: ووليهم وال فأقام واستقام حتى ضرب الدين بجرّانه ( ). قال ابن أبي الحديد: وهذا الوالي هو عمر بن الخطاب، وهذا الكلام من خطبة له في عهده يذكر فيها قربه من النبي حتى قال في أبي بكر ثم عمر:

فاختار المسلمون بعده بآرائهم رجلاً منهم، فقارب وسدد حسب استطاعته على ضعف وجد كانا فيه، ثم وليهم وال...( ) وقال الميثم البحراني شارح النهج أيضا: إن الوالي عمر بن الخطاب( ). وقد اشتهر عنه قوله المتواتر المتكرر عن فضل الشيخين:

خير هذه الأمة بعد نبيها أبو بكر ثم عمر، كما رواه الطوسي في تلخيص الشافي( ) ورواه البلخي( ) وغيرهم.

وفي موقعه وزيراً مقرباً ومستشار للخليفة عمر، قال حين استشاره الخليفة في الشخوص لقتال الفرس بنفسه في القادسية: إن هذا الأمر لم يكن نصره ولا خذلانه بكثرة ولا قلة، وهو دين الله الذي أظهره، وجنده الذي أعدّه وأمدّه حتى بلغ ما بلغ، وطلع حيث طلع، ونحن على موعد من الله، والله منجز وعده وناصر جنده. ومكان القيّم بالأمر مكان النظام من الخزر، يجمعه ويضمه، فان انقطع النظام: تفرق وذهب ثم لم تجتمع حذافيره أبدا، والعرب اليوم وان كانوا قليلاً فهم كثيرون بالإسلام وعزيز ون بالاجتماع، فكن قطباً واستدر الرحى بالعرب وأصلهم دونك نار الحرب، فانك إن شخصت من هذه الأرض، انتقضت عليك العرب من أطرافها وأقطارها حتى يكون ما تدع وراءك من العورات أهم إليك مما بين يديك، إن الأعاجم إن ينظروا إليك غداً يقولوا: هذا أصل العرب، فإذا قطعتموه استرحتم، فيكون ذلك أشدٌ لكلبهم عليك وطمعهم فيك. فأما ما ذكرت من مسير القوم إلى قتال المسلمين فان الله سبحانه هو أكره لمسيرهم منك، وهو أقدر على تغيير ما يكره، وأما ما ذكرت من عددهم، فإنا لم نكن نقاتل فيما مضى بالكثرة، وإنما نقاتل بالنصر والمعونة( ).

وهذا كلام ناصح أمين ومستشار محب ووزير حكيم ورجل مؤمن بوعد الله الذي وعده في كتابه وعلى لسان رسوله وواثق من نصره ومطمئن إلى إيمان ذلك الجند الذين كان الآل والأصحاب من بينهم وقادتهم، والذي سيره الخليفة عمر إلى العراق في معركة القادسية. وفي مشورة حربية رائعة أخرى، يشير المرتضى على الخليفة الفاروق وهي مدونة في نهج البلاغة أيضا، حين شاوره عمر في الخروج لغزو الروم وفتح الشام وبيت المقدس وبقية الأمصار التي أخضعها الروم عنوة قبل الإسلام، فاستشار الصحابة في الخروج بنفسه، فكان الإمام علي فيمن رأى أن لا يخرج الخليفة حفاظاً على هيبة الدولة وعلى حياة الخليفة الراشد ودوره المميز في قيادة المسلمين، فقال: لقد توكل الله لأهل هذا الدين بإعزاز الحوزة وستر العورة والذي نصرهم وهم قليل، ومنعهم وهم قليل، حي لا يموت، انك متى تسر إلى هذا العدو بنفسك فتلقهم بشخصك، فتنكب لا تكن للمسلمين كانفة دون أقصى بلادهم، ليس بعدك مرجع يرجعون إليه. فابعث إليهم رجلاً مجرباً، وأضفر معه أهل البلاء والنصيحة، فان أظهر الله فذاك ما تحب، وان تكن الأخرى كنت ردءاً للناس ومثابة للمسلمين ( ).

أما قوله في عثمان ذي النورين، فنلمسه في كلامه الذي قاله لعثمان حينما سأله الناس مخاطبته إياه، فشهد لعثمان – وهو محاصر أثناء الفتنة – بالإيمان والصحبة وعلم مثل علمه، وسبق في الإسلام مثل سبقه، فقال حين دخل عليه: إن الناس ورائي وقد استسفروني بينك وبينهم، والله ما أدري ما أقول لك ! ما أعرف شيئاً تجهله، ولا أدلك على أمر لا تعرفه، انك لتعلم ما نعلم، ما سبقناك إلى شيء فنخبرك عنه، ولا خلونا بشيء فنبلغكه، وقد رأيت كما رأينا، وسمعت كما سمعنا، وصحبت رسول الله كما صحبنا، وما ابن أبي قحافة ولا ابن الخطاب بأولى منك وأنت أقرب إلى رسول الله وشيجة رحم منهما، وقد نلت من صهره ما لم ينالا، فالله الله في نفسك! فانك - والله - ما تبصر من عمىً ولا تعلم من جهل ( ).

وقال لمعاوية: ولعمري يا معاوية لئن نظرت بعقلك دون هواك لتجدني أبرأ الناس من دم عثمان ( ). وقال عن أهل الشام انه لا خلاف بينه وبينهم إلا ما كان من اتهامهم إياه بقتل عثمان: الأمر واحد إلا ما اختلفنا فيه من دم عثمان ونحن منه براء( ).

وقد شهد التاريخ بنصرة الإمام علي لرفيقه وابن عمه عثمان، حين أرسل ابنيه الحسن والحسين للدفاع عنه ومنع الغوغاء من الدخول إلى بيته وقتله رغم رفض عثمان لطلب جميع الصحابة لنصرته، ولقد غضب الإمام علي حين سمع بمقتل الخليفة، فدخل الإمام علي الدار وهو كالواله الحزين، وقال لابنيه: كيف قتل أمير المؤمنين وأنتما على الباب ؟ .. ولطم الحسن وضرب صدر الحسين وشتم محمد بن طلحة ولعن عبد الله بن الزبير، كما روى ذلك المسعودي في مروج الذهب( ) والطبري واليعقوبي وغيرهم.

أما إقرار الإمام علي بوجوب معاقبة أهل الفتنة وهم قتلة عثمان ومن أعانهم، والذين كانوا السبب الرئيسي لنشوب الفتنة والحرب الأهلية في الجمل وصفين وغيرهما، مع اعتذاره عن التنفيذ بعدم القدرة عليه، لكثرة المشاركين الذين جاؤوا من مصر والبصرة والكوفة، وتداخلهم مع جيش الخلافة وأحاطتهم بالمدينة، وقتلهم الخليفة السابق ودورهم في محاولة فرض سياستهم على الخليفة الجديد. فقد جاء في نهج البلاغة حول ذلك ما يلي:

ومن كلام له بعد ما بويع بالخلافة، وقد قال له قوم من الصحابة لو عاقبت قوماً ممن أجلب على عثمان ؟ فقال: يا أخوتاه، إني لست أجهل ما تعلمون، لكن كيف لي بقوة، والقوم المجلبون على حد شوكتهم، يملكوننا ولا نملكهم؟ وها هم قد ثارت معهم عبدانكم (عبيدكم) والتفت إليهم أعرابكم، وهم خلالكم يسومونكم ما شاؤوا. وهل ترون موضعاً لقدرة على شيء تريدون ؟ إن هذا الأمر أمر الجاهلية، وان لهؤلاء القوم مادة. إن الناس من هذا الأمر إذا حرك على أمور: فرقة ترى ما ترون، وفرقة ترى ما لا ترون، وفرقة لا ترى هذا ولا ذاك. فاصبروا حتى يهدأ الناس وتقع القلوب مواقعها، وتؤخذ الحقوق مسمحة، فاهدؤوا عني وانظروا ماذا يأتيكم به أمري، ولا تفعلوا فعلة تضعضع قوة وتسقط منة وتورث وهناً وذلة وسأمسك الأمر ما استمسك، وإذا لم أجد بدا فآخر الدواء الكي( ).

ويقول في الفتنة، وفيمن أخطأ الحق تمييزاً عمن أراد الباطل: فليس من طلب الحق فأخطأه كمن طلب الباطل فأدركه( ). حتى إذا انجلت الفتنة وانكشفت ظلمتها تبينت الأمور على حقائقها، وفي ذلك يقول : إن الفتن إذا أقبلت شبهت وإذا أدبرت نبهت. ينكرن مقبلات ويعرفن مدبرات( ). وفي هذه النصوص البينة أجمل تأصيل لفقه الفتنة وأحوالها واختلاطاتها فتأمل حنكة الإمام علي وعلمه العميق في التأصيل الشرعي في أيام الفتن في حياة المسلمين.

والقرآن الكريم يحدثنا عن إمكانية احتمال الاقتتال بين المسلمين بل المؤمنين، وان هذا الاقتتال لا يخرج إحدى الطائفتين عن الإسلام والإيمان، بل يؤكد أخوتهم وإيمانهم رغم اقتتالهم وخصومتهم بسبب الفتن والتأمر والاختلاف حول الحق وتأويل القرآن، ويدعو إلى الصلح ونبذ الخصومة والاقتتال، قال تعالى:) وان طائفتان من المؤمنين اقتتلوا فأصلحوا بينهما، فان بغت إحداهما على الأخرى فقاتلوا التي تبغي حتى تفيء إلى أمر الله، فان فاءت فأصلحوا بينهما بالعدل وأقسطوا إن الله يحب المقسطين. إنما المؤمنون أخوة فأصلحوا بين أخويكم واتقوا الله لعلكم ترحمون{ ( ). فسماهم الله مؤمنين ولم يخرجهم عن وصف الأخوة رغم تقاتلهم وبغي بعضهم على بعض أحيانا.

وهذا المنهج القرآني في النظر إلى الفتن والصراعات التي حدثت في التاريخ الإسلامي من المفاهيم والضوابط الأساسية لفهم ما حدث في تاريخنا من فتن وقتال وعنف سواء في أواخر عصر الخلافة الراشدة أو من جاء بعدهم، مع ضرورة الحذر والنظر في خلفيات الأمور وكشف التآمر والأيادي الخفية في دس السم والفتن بين المسلمين، وعلى ضوء ذلك يمكن أن نفهم ما حدث وشجر بين الأصحاب ومن معهم من المسلمين في عهد الخليفة الراشد على ، وتفهم موقف الإمام علي من الفتنة نفسها واحترامه للصحابة رغم الأحداث والفتن التي حاول الغلاة والمنافقون أن يمزّقوا بها وحدة المسلمين ويوهنوا قوتهم المتعاظمة التي مهدت لفتح العالم القديم ونشر رسالة الإسلام في ربوع الأرض.

وقد نهى الإمام علي ، كما نقرأ في نهج البلاغة، عن شتم المخالفين لأصحابه والمحاربين له، فقد سمع قوماً من أصحابه يسبون أهل الشام أيام حربهم بصفين، فقال: إني أكره لكم أن تكونوا سبابين، ولكنكم لو وصفتم أعمالهم وذكرتم حالهم كان أصوب في القول وأبلغ في العذر، وقلتم مكان سبكم إياهم: اللهم احقن دماءنا ودماءهم وأصلح ذات بيننا وبينهم وأهدهم من ضلالتهم( ). وهذا قوله في خصومه ورافضي الاعتراف به كخليفة من أهل الشام، فكيف بمن يسب كبار الآل والأصحاب، تلك البدع التي روج لها الغلاة والمتعصبون والجهلة، وكيف بمن يتجاوز السب إلى اللعن والطعن والتكفير؟.

وفي هؤلاء الغلاة والمتطرفين، يقول الإمام علي : هلك فيّ رجلان، محب غال ومبغض قال( ). وقد روى هذا الأثر مرسلاً عنه إلى النبي أيضا. ويقول في موقع آخر من نهج البلاغة: سيهلك فيّ صنفان محب مفرط، ويذهب به الحب إلى غير الحق، ومبغض مفرط يذهب به البغض إلى غير الحق. وخير الناس فيّ حالاً، النمط الأوسط، فألزموه وألزموا السواد الأعظم، فان يد الله على الجماعة، وإياكم والفرقة( ). وهذا النص فيه دعوة مباركة وشريفة إلى التعايش الإسلامي البناء والوسطية والاعتدال والوحدة لاسيما فيما بين المذاهب الإسلامية.

أما المبغض المفرط فهم غلاة الخوارج والنواصب وأمثالهم الذين يكرهون أهل بيت النبي عموماً والعلويين خصوصاً ولا يكرمونهم ويضعونهم في المنزلة التي أنزلهم بها الله ورسوله وسائر المسلمين، ممن كفّروا الإمام علي أو عادوه وشتموه، وهم من الغلاة الذين تبرّأ من غلوهم السنة والشيعة على السواء. وأما المحب المفرط الذي يذهب به الحب إلى غير الحق، فهم الغلاة والمتشددون المؤلهون للإمام علي وبعض الأئمة من ذريته بما يدفعهم إلى تقديسهم ورفعهم فوق مستوى البشر، ووصفهم بصفات الإله أو النبي بدون ضابط من الشرع والنصوص الثابتة الصحيحة، يدفعهم إلى ذلك الغلو والدس لإفساد عقائد المسلمين ونشر الخرافة والشعوذة بعيداً عن الحق والعلم والعقل، مثل نسبة علم الغيب إلى أهل البيت، أو التفويض والوساطة بين الخلق والخالق أو القول بوحدة الوجود والتناسخ وعبادة البشر ولا سيما الصالحين والأئمة من الأموات وغير ذلك من العقائد الدخيلة على الإسلام وتراثه، التي أوجدها الإفراط في الحب والتقديس والغلو فيها. ولا يصلح الحب مبرراً للغلو والخروج عن تعاليم القرآن والسنة قال تعالى: قل إن كنتم تحبون الله فاتبعوني يحببكم الله ويغفر لكم ذنوبكم ( ) فأتباع النبي شرط قبول العمل، فان خرج العمل عن جادة الإتباع لم تشفع له المحبة، بل كان ذلك كله من الغلو( ) الذي وقعت في مثله الأمم قبلنا، كما قال تعالى في أهل الكتاب: يا أهل الكتاب لا تغلوا في دينكم ولا تقولوا على الله إلا الحق ( )

وقال: قل يا أهل الكتاب لا تغلوا في دينكم غير الحق، ولا تتبعوا أهواء قوم قد ضلوا من قبل وأضلوا كثيراً وضلوا عن سواء السبيل ( ).

وقد تبرم الإمام علي بأصحابه وذمهم وشكى إلى الله منهم في مواضع كثيرة جداً في كتاب نهج البلاغة منها: في خطبة له : فيا عجباً والذي يميت القلب ويجلب الهم من اجتماع هؤلاء القوم على باطلهم وتفرقكم عن حقكم ! فقبحاً لكم وترحاً حين صرتم غرضا يرمى يغار عليكم ولا تغيرون، وتغزون ولا تغزون، ويعصى الله وترضون، فإذا أمرتكم بالمسير إليهم في أيام الحر قلتم هذه حمّارة القيظ، أمهلنا ينسلخ عنا الحر... يا أشباه الرجال ولا رجال، حلوم الأطفال وعقول ربات الحجال لوددت أني لم أركم ولم أعرفكم، معرفة والله جرت ندماً أعقبت سدماً. قاتلكم الله لقد ملأتم قلبي قيحاً وشحنتم صدري غيظاً( ). ومن خطبة له أيضا: أيها الشاهدة أبدانهم، الغائبة عقولهم، المختلفة أهواؤهم، المبتلى بهم أمراؤهم.. لوددت -والله- إن معاوية صارفني بكم صرف الدينار بالدرهم فاخذ مني عشرة منكم وأعطاني رجلاً منهم، بكم ذوو كلام وعمي ذوو أبصار، لا أحرار صدق عند اللقاء، ولا إخوان ثقة عند البلاء.. لقد رأيت أصحاب محمد فما أرى أحداً يشبههم منكم ( ). وهكذا كان رأى الإمام الحسن والحسين والباقر والصادق عليهم السلام في أهل الكوفة في ذلك العصر( )، كرأي جدهم وإمامهم الأول علي بن أبي طالب وذلك كله لان أهل الكوفة آنذاك كانوا خليطا من الغلاة والموالي والأعراب مع نفرمن أهل الكتاب من بقية الأثر الحضاري للأديان والملل التي وجدت في الحيرة عاصمة المناذرة فكانت ملتقى المجوسية والهندية والرومية ورجال الدين من اليهود في العصور التي سبقت ظهور الإسلام وانتشاره في المشرق والمغرب. فلقد خذلوا الإمام الحسن في صراعه مع معاوية كما خذلوا أباه، ثم غدروا بالإمام الحسين كما غدروا بأبيه أيضا، وهكذا مع الإمام زيد بن علي بن الحسين الذي غدروا به وخذلوه بعد أن وقف الفقهاء والعلماء معه كالإمام أبي حنيفة والإمام مالك بن انس، فاستشهد في الكوفة أيضا. وهكذا يتكرر دور الغلاة والمنافقين وأهل الأهواء مع أئمة أهل البيت، وفي كل مرة يدّعون المحبة والندم ليبثوا عقائد الغلو والخرافة بين الناس بما ينسجم مع عقائدهم وتراثهم القديم والدخيل على تراث أهل البيت وأئمتهم العظام، فينخدع بهم السذج والبسطاء من الناس والذين ليس لديهم العلم الشرعي ليميزوا عقائد القرآن عن عقائد الغلو والدس الوثني، فيقعوا فريسة بيد هؤلاء تحت ستار محبة أهل البيت وتقديسهم.

لكن الغلو والنفاق سرعان من انكشف أمره، وانقطع حبله لأن حبل الكذب قصير، فتصدى العلماء من أهل السنة والشيعة لهذه المستحدثات والعقائد الدخيلة، وإفرازها عن تراثنا الإسلامي، مستندين في بحوثهم وجهودهم إلى معايير ثلاث، هي المعيار القرآني والمعيار الأخلاقي والمعيار العلمي، فعلى صوت الحق، مطالباً بإزالة تلك البدع والمستحدثات والإسرائيليات وعقائد الغلو والشعوذة والخرافة من الدين الحق وهدي الإسلام، مستنيرين بتعاليم القرآن والهدى النبوي وأقوال الآل والأصحاب، وفي ذلك يقول الإمام على وهو يوصي أتباعه: لا تكفوا عن مقالة بحق أو مشورة بعدل، فاني لست في نفسي بفوق أن أخطئ، ولا آمن ذلك من فعلي( ). وقد رد على ذلك المنافق الذي سأله عن سبب الفتن في عهده وخلوها في عهد الشيخين أبي بكر وعمر فقال له: يا هذا لقد كانوا أمراء على مثلي، وأصبحت أميراً على مثلك. وقال الإمام علي لمن أراد أن يقدسه ويجعله وسيطاً بينه وبين الخالق، فقال له: اعلم أن الذي بيده خزائن السماوات والأرض قد إذن لك في الدعاء، وتكفل لك بالإجابة وأمرك أن تسأله ليعطيك، وتسترحمه فيرحمك، ولم يجعل بينك

وبينه من يحجبه عنك، ولم يلجئك إلى من يشفع لك إليه( ) وقال في موضع أخر: واردد إلى الله ورسوله ما يعضلك من الخطوب ويشتبه عليك من الأمور... فالرد إلى الله الأخذ بمحكم كتابه والرد إلى الرسول الأخذ بسنته الجامعة غير المفرقة( ) ويقول الإمام علي عن الصلاة التي شرعها الإسلام في كتاب له إلى أمراء الأمصار في عهده يحذرهم ممن يحاول أن يبدل أو يغير ما فرضه الله سبحانه فيقول: أما بعد فصلوا الظهر حتى تضيء الشمس من مربض العنز وصلوا العصر والشمس بيضاء حية.. وصلوا بهم المغرب حين يفطر الصائم.. وصلوا بهم العشاء حين يتوارى الشفق إلى ثلث الليل، وصلوا بهم الغداة والرجل يعرف وجه صاحبه( ).

وهكذا نجد في نهج البلاغة من الدر المنثور والأدب المعمور والكلام المسطور من خطب الإمام علي وأقوال التي جمعها الشريف الرضي في العصر العباسي الثاني (في مطلع القرن الخامس الهجري) في الود والمحبة والثناء من أمام أهل البيت إلى أئمة الصحابة وفي مقدمتهم الخلفاء الراشدون والسابقون الأولون من المهاجرين والأنصار، مما يثلج القلوب وينعش الروح ويفرح النفس إلى هذا الحب الغامر الذي كان يسود جيل النبوة من الآل والأصحاب، وهو ما يؤيد ويوافق ما جاء في القرآن والسنة من ذكر ومدح للنبي وأصحابه بما فيهم أهل البيت والمهاجرين والأنصار ومن تبعهم بإحسان، كما وصفهم الله سبحانه بالخيرية حين قال:) كنتم خير أمة أخرجت للناس، تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر وتؤمنون بالله { ( ) وكما وصفهم الرحمة المهداة : خير القرون قرني ثم الذين يلونهم ثم الذين يلونهم( ). أما ما ينسب إلى الإمام علي وأئمة أهل البيت من بعده، مما يخالف ذلك فانه باطل قطعاً، ولا تصح نسبته إليه، لأنه يناقض كلام الله، فضلاً عن المعيار الأخلاقي والعلمي، وحاشا للإمام علي أن يخالف كلام الله أو يعارض حكمه، أو يتناقض مع العلم والأخلاق الفاضلة التي اتصف بها الآل والأصحاب كالصدق والأمانة والشجاعة والصراحة والتجرد وغيرها من صفات الآل والأصحاب الذين تربوا في أحضان النبوة وعلى مائدة القرآن.

والإمام علي هو فقيه كتاب الله وربيب رسوله، منه تعلم العلم وعلى يديه أخذ الحكمة، ومحال أن يقول في إخوانه وأحبابه غير ما قاله الله فيهم، أو يحكم فيهم بغير حكمه.. وقد روى الكليني عن الإمام الصادق قال: قال النبي :

ما وافق كتاب الله فخذوه، وما خالف كتاب الله فدعوه( ).

وسُئل الإمام الصادق عن اختلاف الحديث يرويه الثقة وغير الثقة، فقال: إذا ورد عليكم حديث فوجدتم له شاهداً من كتاب الله أو من قول رسول الله ، وإلا فالذي جاءكم أولى به( ). وعن الإمام الصادق أيضا: كل حديث لا يوافق كتاب الله فهو زخرف( )، وهكذا فقد تواتر عن أهل البيت كما هو عن السلف الصالح من المهاجرين والأنصار ومن جاء بعدهم من أئمة الدين إن كتاب الله وسنة رسوله الصحيحة هما القول الفصل، والحكم على كل ما خالفهما مما في تراثنا العظيم وبحره الزاخر الذي حوى اللؤلؤ والمرجان كما حوى الرمل والصخر والأطيان..

وقد قال الإمام علي عن كتاب الله.. القرآن العظيم: فيه نبأ ما قبلكم وخبر ما بعدكم وحكم ما بينكم.. ومن ابتغى الهدى في غيره أضله الله.. وقال في خطبة له : تعلموا القرآن فانه أحسن الحديث، وتفقهوا فيه فأنه ربيع القلوب، واستشفوا بنوره فانه شفاء الصدور، وأحسنوا تلاوته فانه أحسن القصص( ).

وقال نبي الهدى في القرآن: إن هذا القرآن مأدبة الله فأقبلوا مأدبته ما استطعتم. إن هذا القرآن حبلُ الله والنور المبين والشفاء النافع. عصمة لمن تمسك به ونجاة لمن اتبعه، لا يزيغ فيستعتب، ولا يعوج فيقومّ، ولا تنقضي عجائبه، ولا يخلق من كثرة الرد، اتلوه فان الله يأجركم على تلاوته كلّ حرف عشر حسنات..

وفي الرد والرجوع إلى الكتاب والسنة عند التنازع والاختلاف حول حكم أو عقيدة أو عبادة أو حدث سطر في كتب التاريخ والتراث، قال تعالى في كتابه العزيز: يا أيها الذين أمنوا أطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولي الأمر منكم، فان تنازعتم في شيء فردوه إلى الله والرسول، إن كنتم تؤمنون بالله واليوم الآخر ذلك خير وأحسن تأويلا ( ).

وقال تعالى: فلا وربك لا يؤمنون حتى يحكموك فيما شجر بينهم ثم لا يجدوا في أنفسهم حرجاً مما قضيت ويسلموا تسليما ( ).

الصديق بقلم المرتضى

قال الإمام علي حين قرأ الآية: إن الذين سبقت لهم منا الحسنى، أولئك عنها مبعدون ( ). قال: أنا منهم وأبو بكر وعمر وعثمان إلى تمام العشرة. ذكره أبو الفرج في أسباب النزول.

وعن الإمام علي أيضا قال: قال رسول الله ، إن كل نبي أعطي سبعة نجباء رفقاء، وأعطيت أنا أربعة عشرة، قلنا من هم؟. قال: أنا وأبنائي الحسن والحسين، وجعفر وحمزة، وأبو بكر وعمر ومصعب بن عمير وبلال وسلمان وعمار وابن مسعود. أخرجه الترمذي. وعن الإمام جعفر الصادق عن العترة الطاهرة في تفسير قوله تعالى: محمد رسول الله والذين معه مثل أبى بكر أشداء على الكفار مثل عمر، رحماء بينهم مثل عثمان تراهم ركعاً سجداً مثل علي يبتغون فضلا من الله ورضواناً مثل طلحة والزبير سيماهم في وجوههم مثل سعد بن أبي وقاص وعبد الرحمن بن عوف. أخرجه ابن السمّان في الموافقة.

وعن علي انه خطب خطبة طويلة، قال في آخرها:

واعلموا أن خير الناس بعد نبيهم أبو بكر ثم عمر( ).

وعن علي قال: قال النبي : رحم الله أبا بكر زوجني ابنته وحملني إلى دار الهجرة وصاحبني في الغار، وأعتق بلالا من ماله، رحم الله عمر، يقول الحق وان كان مراً، تركه الحق وما له صديق، رحم الله عثمان تستحي منه الملائكة، رحم الله علياً، اللهم أدر الحق معه حيث دار( ).

وعن الإمام محمد الباقر بن علي زين العابدين أنه كان يقول: (يا أهل العراق أحبونا بحب الإسلام، فو الله مازال حبكم بنا حتى صار سبّة فينا... أي إشارة إلى مزج حب بعضهم بما ينسب إليه من بغض أبي بكر وعمر وسبهما.

وعن أبي حفصة قال سألت الإمام محمد الباقر وابنه جعفر الصادق عن أبى بكر وعمر، فقال: إماما عدل، تولهما وتبرأ من عدوهما، ثم قال الإمام الصادق: يا سالم، السبُ الرجل الذي جدّه أبو بكر الصديق؟ لا نالتني شفاعة جدي محمد، إن لم أكن أتولاهما وأتبرأ من عدوهما. وفي انتساب الصادق إلى الصديق قوله الوحدوي المضيء المشهور : ولدني أبي بكر مرتين .. إشارة إلى أن

نسبه يعود إلى الصديق مرتين، من جهة جده لأمه أم فروة بنت القاسم بن محمد بن أبي بكر وجدته لأمه أسماء بنت عبد الرحمن بن أبي بكر.

وعن الإمام محمد الباقر قال: من جهل فضل أبي بكر وعمر جهل السنة، وقال: إني أتولاهما، وأستغفر لهما وما رأيت أحداً من أهل بيتي إلا وهو يتولاهما. وسُئل عن قوم يسبون أبا بكر وعمر فقال: أولئك المرّاق من الدين.

وعن جابر الجعفي عن الإمام محمد الباقر قال: يا جابر بلغني أن أقواما بالعراق يزعمون أنهم يحبوننا ويتناولون أبا بكر، ويزعمون إني أمرتهم بذلك، فأبلغهم أني إلى الله برئ منهم، والذي نفسي محمد بيده، لو وليت، لتقربت إلى الله بدمائهم، لا نالتني شفاعة محمد إن لم أكن استغفر لهما وأترحم عليهما. وقال له: أخبر أهل الكوفة عني إني برئ ممن تبرأ من أبي بكر وعمر.

وعن الإمام زيد بن علي بن الحسين قال: البراءة من أبي بكر وعمر براءة من علي بن أبي طالب، فمن شاء فليتقدم ومن شاء فليتأخر.

ويروي الميرزا شيبهر في ناسخ التواريخ إن بعض رؤساء الكوفة ممن بايعوا زيداً، قالوا له: ماذا تقول في حق أبي بكر وعمر؟ قال: ما أقول فيهما إلا خيراً.. كما لم أسمع فيهما من أهل بيتي إلا خيراً. ما ظلمونا ولا أحدا غيرنا وعملاً بكتاب الله وسنة رسوله( ). فلما سمع أهل الكوفة منه هذه المقالة رفضوه، ومالوا إلى أخيه الباقر، فقال زيد: رفضونا اليوم، ولذلك سُميت تلك الجماعة بالرافضة، وهم غير الشيعة الجعفرية قطعاً.

وعن الإمام الصادق قال: ولدني أبو بكر مرتين، كما رواه الاربلي في كشف الغمة والنوبختي في فرق الشيعة وابن عنبة والأصفهاني( ). لأن أم الإمام الصادق- كما أشرنا- هي السيدة أم فروة بنت القاسم بن محمد بن أبي بكر الصديق وأمها هي أسماء بنت عبد الرحمن بن أبي بكر الصديق، فيرجع نسب الصادق إلى أبي بكر الصديق عن طريقين وإلى علي المرتضى عن طريق واحد.

وكان الإمام الصادق يقول: ما أدري لأي جدّي أنا أرجي الشفاعة، لأبي بكر أو لعلي، ومن لم يسمه الصديق فلا صدق الله له حديثا..

وعن الإمام الباقر، انه سأله عروة بن عبد الله عن حلية السيف، كما يروي الاربلي في كشف الغمة ( )، فقال: لا بأس به، قد حلى أبو بكر الصديق سيفه. قال: قلت: وتقول الصديق؟ فوثب وثبة واستقبل القبلة، فقال: نعم الصديق، فمن لم يقل الصديق.. فلا صدّق الله له قولاً في الدنيا والآخرة.

وعن أبي إسحاق السبيعي عن أبي يحيى قال: (لا أحصي كم سمعت عليا على المنبر يقول: إن الله عز وجل سمى أبا بكر على لسان نبيه صديقا) أخرجه في فضائله.

وعن علي قال: أول من أسلم من الرجال أبو بكر وأول من صلى إلى القبلة علي بن أبي طالب. أخرجه ابن السمان في الموافقة.

وعن الشعبي، إن أبا بكر نظر إلى علي بن أبي طالب فقال: من سره أن ينظر إلى أقرب الناس قرابة من نبيهم وأعظم عنه غناءً وأحفظهم عنده منزلة، فلينظر إلى علي بن أبي طالب، فقال علي: لئن قال هذا، أنه لأرأف الناس، وأنه لصاحب رسول الله في الغار، وانه لأعظم الناس غناء عن نبيه في ذات يده( ).

وعن علي انه قال يوماً وهو في جماعة من الناس: من أشجع الناس؟ قالوا: أنت يا أمير المؤمنين، قال: أما إني ما بارزت أحداً إلا انتصفت منه، ولكن أشجع الناس أبو بكر.. لما كان يوم بدر جعلنا لرسول الله عريشاً، وقلنا: من يكون مع النبي لئلا يصل إليه أحد من المشركين، فو الله ما دنا أحد إلا أبو بكر، شاهراً السيف على رأس رسول الله ، قال: واجتمع المشركون عليه بمكة، فهذا يجره وهذا يتلتّه، وهم يقولون: أنت جعلت الآلهة إلها واحداً، فو الله ما دنا منا إليه أحد إلا أبو بكر، يضرب هذا ويجأ هذا ويتْلتل هذا، ويقول: ويلكم أتقتلون رجلا أن يقول ربي الله، ثم قال: ناشدتكم بالله، أمؤمن آل فرعون خير أم أبو بكر؟ قال: فسكت القوم، فقال: ألا تجيبون؟ والله لساعة من أبي بكر خير من ملء الأرض من مؤمن آل فرعون.. مؤمن آل فرعون رجل كتم إيمانه، وأبو بكر رجل أعلن إيمانه( ).

وعن علي قال: (رحم الله أبا بكر، كان من أعظم الناس أجراً في جمع المصاحف، وهو أول من جمع المصحف بين اللوحين). أخرجه صاحب الصفوة وابن حرب الطائي.

وعن الإمام الصادق قال: ماتت فاطمة بين المغرب والعشاء، فحضرها أبو بكر وعمر وعثمان والزبير وعبد الرحمن بن عوف، فلما وضعت ليصلى عليها، قال علي تقدم يا أبا بكر قال: وأنت شاهد يا أبا الحسن، قال: نعم، تقدم فو الله لا يصلي عليها غيرك، فصلى عليها أبو بكر ودفنت ليلاً. أخرجه ابن السمان في الموافقة. وقد كانت السيدة أسماء بنت عميس زوجة أبي بكر تطببها في مرضها الذي ماتت فيه وهي التي غسلتها وجهزت جنازتها، وكانت أسماء زوجت جعفر قبل أبي بكر ثم تزوجت علي بن أبي طالب بعد وفاة أبي بكر.

وعن علي قال كنت إذا سمعت حديثاً عن النبي .. فإذا حلف لي صدقته، وحدثني أبو بكر – وصدق أبو بكر – قال سمعت النبي يقول: ليس من عبد يذنب ذنباً فيقوم فيحسن الوضوء ثم يصلي ركعتين ثم يستغفر إلا غفر الله له( ).

وعن علي قال: انه لما مات النبي واختلف الصحابة أين يدفن قال أبو بكر: عهد إلى رسول الله ليس من نبي يموت إلا دفن حيث يقبض، وأبو بكر مؤتمن على ما جاء به.

وعن علي قال: قدّم رسول الله أبا بكر يصلي بالناس، وقد رأى مكاني وما كنت غائباً ولا مريضاً، ولو أراد أن يقدمني لقدمني، فرضينا لدنيانا من رضيه رسول الله لديننا.

وعن الحسن بن علي عن أبيه قال: لما قبض رسول الله نظرنا في أمرنا فوجدنا النبي قد قدّم أبا بكر في الصلاة، فرضينا لدنيانا من رضيه رسول الله لديننا( ).

ويروي قيس بن سعد بن عبادة عن الإمام علي قال: أن النبي مرض ليالي وأياما ينادي بالصلاة، فيقول: مروا أبا بكر فليصل بالناس، فلما قبض رسول الله نظرت فإذا الصلاة علم الإسلام وقوام الدين فرضينا لدنيانا من رضيه رسول الله لديننا، فبايعنا أبا بكر. أخرجه ابن السمان وغيره.

وعن جعفر الصادق عن أبيه الباقر قال: لما استخلف أبو بكر خيّر الناس سبعة أيام، فلما كان في السابع أتاه علي بن أبي طالب، فقال لا نقيلك ولا نستقيلك ولولا أنا رأيناك أهلا لها ما بايعناك. أخرجه ابن السمان في الموافقة.

وقال علي والزبير في تفسير تأخر بيعتهما للصديق: ما غضبنا إلا في المشورة وأنا نرى أبا بكر أحق الناس بها، انه لصاحب الغار، وإنا لنعرف له سنّه ولقد أمره رسول الله بالصلاة بالناس وهو حي( ).

وقال علي على المنبر: سبق رسول الله ، وتلاه أبو بكر وثلّث عمر، ثم خبطتنا فتنة ( ).

وبينما كان الإمام علي يقضي ذات يوم في الكوفة، إذ قال رجل: يا خير الناس، انظر في أمري، فو الله ما رأيت أحداً هو خير منك، قال: قدّموه.. فقدم فقال له: هل رأيت رسول الله ؟ قال: لا، قال: هل رأيت أبا بكر وعمر؟ قال: لا، قال: لو أخبرتني أنك رأيت رسول الله لضربت عنقك، ولو أخبرتني أنك رأيت أبا بكر وعمر لأوجعتك ضرباً( ).

وعن محمد بن الحنفية، وقد سُئل أكان أبو بكر أول القوم إسلاما ؟ قال: لا، فقيل له بأي شيء علا وسبق.. فقال: انه أسلم وكان خيرهم إسلاما ولم يزل على ذلك حتى توفاه الله.

ويروي سلمان الفارسي عن النبي قال: ما سبقكم أبو بكر بصوم ولا صلاة ولكن بشيء وقر في قلبه( ).

وعن الإمام علي قال: المتفرسون في الناس أربعة، أمرأتان ورجلان.. بنت شعيب تفرست في موسى والعزيز تفرس في يوسف وخديجة تفرست في النبي فقالت لعمها: قد شمّت روحي روح محمد، انه نبي هذه الأمة فزوجني منه، وأبو بكر الصديق، لما حضرته الوفاة، قال: أنى قد تفرست إن أجعل الأمر من بعدي في عمر بن الخطاب، فقلت: إن تجعلها في عمر، فاني راض، فقال: سررتني.

وأخرج ابن عساكر أن عليا دخل على أبي بكر وهو مسجىّ فقال:

ما أحد لقي الله بصحيفة أحب إليّ من هذا المسجىّ.

وجاء في كتاب التاريخ الأوحد لأبي الهدى الصيادي( ) قوله: وللإمام جعفر الصادق نسب لسيدنا أبي بكر الصديق فان أم الإمام جعفر هي أم فروة بنت القاسم بن محمد بن أبي بكر الصديق ووالدة أم فروة (زوجة الإمام الباقر) هي أسماء بنت عبد الرحمن بن أبي بكر الصديق. ولهذا كان الصادق يقول مرارا: ولدني أبو بكر مرتين.

وأخرج الإمام احمد بن حنبل وغيره عن الإمام علي قال: خير هذه الأمة بعد نبيها أبو بكر وعمر. وأخرج احمد أيضا عن أبي ليلى قال:قال علي :

لا يفضلني أحد على أبي بكر وعمر إلا جلدته حدِّ المفتري.

وعن علي قال، قال النبي : لا يجتمع حبك وحب أبي بكر وعمر إلا في قلب مؤمن ( ).

وجاء في المناقب للمكي أن الإمام أبا حنيفة النعمان قال: قدمت المدينة فأتيت أبا جعفر محمد بن علي فقال: يا أخا العراق، ألا تجلس إلينا، فجلست فقلت: أصلحك الله، ما تقول في أبي بكر وعمر، فقال: رحم الله أبا بكر وعمر، قلت: إنهم يقولون بالعراق، انك تبرأ منهما، فقال: معاذ الله كذبوا ورب الكعبة، أو لست تعلم أن علياً زوج ابنته أم كلثوم بنت فاطمة من عمر بن الخطاب، وهل تدري من جدها، ومن جدتها، وأخواها وأبوها.. فلو لم يكن لها أهلاً لم يزوجها اياه، قلت: لو كتبت إليهم فكذبت عن نفسك، قال: لا يطيعون الكتب( ).

ويشير الإمام علي إلى أسباب الفتنة التي أدت إلى مقتل عثمان وما بعدها، وإلى تغير المجتمع بسبب التطور الهائل الذي شهدته دولة الخلافة بعد الفتوح العظيمة التي سبقت عهده، حين سأله أحد المنافقين. قائلا: يا أمير المؤمنين، لماذا كان عهد الشيخين عهد فتح وخير واستقرار، وعهدك عهد فتنة وحروب واضطراب وفرقة، فأجابه إجابة حكيمة، فقال:

يا هذا، لقد كانوا أمراء على مثلي، وأصبحت أميراً على مثلك.

أما في تأبين المرتضى للصديق، فيروي ابن عنبه في عمدة الطالب( ) عن أسيد بن صفوان، وكان قد أدرك النبي ، قال: لما قبض أبو بكر خليفة رسول الله ارتجت المدينة، فبكى الناس كيوم قبض رسول الله ، فسّجوه، وجاء علي بن أبي طالب باكياً مسرعا متوجعاً، وهو يقول: اليوم انقطعت خلافة النبوة، حتى وقف على باب البيت الذي فيه أبو بكر الصديق وهو مسجّى، فقال: رحمك الله يا أبا بكر، كنت إلف رسول الله وأنيسه وثقته وموضع سرّه ومشاورته، كنت أول القوم إسلاما، وأخلصهم إيمانا. وأشدهم يقيناً وأخوفهم لله وأعظمهم عناء في دين الله وأحوطهم على رسول الله وأحدبهم على الإسلام وأيمنهم على الصحابة وأحسنهم صحبة وأكثرهم مناقب وأفضلهم سبقاً وأرفعهم درجة وأقربهم وسيلة وأشبههم برسول الله هدياً وسمتاً ورحمة وفضلا وخلقاً، وأشرفهم منزلاً وأكرمهم عليه وأوثقهم عنده، فجزاك الله عن الإسلام وعن رسول الله خيراً، كنت عنده بمنزلة السمع والبصر. صدقت رسول الله حين كذبه الناس، فسماك الله عز وجل في تنزيله صديقاً، فقال تعالى: والذي جاء بالصدق وصدق به أولئك هم المتقون الذي جاء بالصدق محمد ، وصدق به أبو بكر وآسيته حين بخلوا وقمت معه في المكاره حين قعدوا عنه، وصحبته في الشدة أحسن الصحبة ثاني اثنين، وصاحبه في الغار، والمنزل عليه السكينة ورفيقه في الهجرة.. ثاني اثنين إذ هما في الغار إذ يقول لصاحبه لا تحزن إن الله معنا، فأنزل الله سكينته عليه وأيده بجنود لم تروها وجعل كلمة الذين كفروا السفلى وكلمة الله هي العليا ... خلفته في دين الله أحسن الخلافة، وقمت بالأمر ما لم يقم به خليفة نبي، نهضت حين وهن أصحابك، وبرزت حين استكانوا، وقويت حين ضعفوا، ولزمت مناهج رسول الله إذ رغبوا عنها، كنت خليفة حقاً، نازعت برغم المنافقين وكبت الكافرين وكره الحاسدين وضغن الفاسقين وغيظ الباغين، قمت بالأمر حين فشلوا ونطقت الحق حين تعنتوا، وكنت أحفظهم صوتاً وأبلغهم قولاً وأحزمهم رأيا وأشبعهم نفساً، وأعرفهم بالأمور، وأشرفهم عملاً، كنت والله للدين يعسوباً، أولاً، حين نفر الناس عنه، وآخراً، حين أقبلوا عليه، كنت للمؤمنين أباً، رحيماً، إذ صاروا عليك عيالاً. فحملت أثقال ما ضعفوا عنه، ورعيت ما أهملوا، وحفظت ما أضاعوا، لعلمك بما جهلوا، إذا هلعوا، وصبرت إذا جزعوا وراجعوا رشدهم برأيك، فظفروا ونالوا بك ما لم يحتسبوا، كنت للكافرين عذابا ونهباً، وللمؤمنين رحمة وخصباً لم تغلل حجتك ولم تضعف بصيرتك، ولم تجبن نفسك، ولم يرع قلبك في الله، كالجبل لا تحركه العواصف، ولا تزيله القواصف، وكنت كما قال رسول الله : (آمن الناس في صحبتك وذات يدك) وكما قال أيضا: (ضعيفاً في بدنك قوياً في أمر الله) متواضعا في نفسك عظيماً عند الله، جليلاً في أعين المتقين كبيراً في أنفسهم. الضعيف عندك قوي عزيز حتى تأخذ له بحقه، والقوي العزيز عندك ضعيف ذليل حتى تأخذ الحق منه، القريب والبعيد في ذلك سواء عندك، أقرب الناس إليك أطوعهم لله، قولك حكمة، وأمرك حلم وحزم، ورأيك علم وعزم، أطفئت بك النيران، واعتدل بك الحق، وقوي الإيمان وثبت الإسلام،

وظهر أمر الله ولو كره الكافرون، فجللت عن البكاء وعظمت رزيتك في السماء، وهدّت مصيبتك الأنام، فإنا لله وإنا إليه راجعون.

رضينا من الله بقضائه، وسلمنا له أمره، فو الله لن يصاب المسلمون بعد رسول الله بمثلك أبدا، كنت للدين عزا وحرزاً وحزباً وكهفاً، وللمؤمنين غيثاً، وعلى الكافرين غلظة، فلا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم.

قال: وسكت القوم حتى انقضى كلامه عليه السلام.

ولقد بقي المرتضى وفياً للصديق بعد وفاته كما كان في عهده وخلافته وزيراً ومعيناً ومستشاراً أميناً، فأخذ أبنه محمد بن أبي بكر عنده بعد أن تزوج أمه أسماء بنت عميس التي كانت قبل الصديق زوجة شقيقه أيضا جعفر الطيار، فتزوجها الصديق بعد استشهاد جعفر في معركة مؤتة.
وكان الإمام علي يقول عن ربيبه محمد بن أبي بكر الصديق: محمد ابني من صلب أبي بكر( )، ومن محبته للصديق ووفائه لذكراه وصحبته إن سمى أحد أبنائه باسم أبي بكر، كما هو مذكور في كتب الفريقين( ).

والجدير بالذكر أن أبا بكر بن علي بن أبي طالب قد ولد بعد وفاة الصديق وانتهاء عصر خلافته، وان الإمام علياً لم يسم ابنه بهذا الاسم إلا تيمناً باسم الصديق، تماما كما فعل مع عمر وعثمان، مظهراً الولاء له والوفاء، حتى بعد وفاته، ولا يوجد في بني هاشم رجل قبل علي سمى ابنه بهذا الاسم.

قال تعالى: والسابقون الأولون من المهاجرين والأنصار والذين اتبعوهم بإحسان، رضي الله عنهم ورضوا عنه، وأعد لهم جنات تجري تحتها الأنهار، خالدين فيها أبدا، ذلك الفوز العظيم ( )

وقال تعالى: محمد رسول الله والذين معه أشداء على الكفار رحماء بينهم تراهم ركعاً سجداً... ( ).

الفصل الثالث

الخروج السياسي

فـي صـدر الإسـلام

دوافع الخروج السياسي في صدر الإسلام

يمكن فهم وتحليل أسباب ودوافع الخروج السياسي في صدر الإسلام في ضوء نظرة الإسلام إلى نظام الحكم والشورى وطاعة أولي الأمر، وفي ضوء نصوص الكتاب والسنة، وفيما يلي بعضاً منها:

قال تعالى: يا أيها الذين آمنوا أطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولي الأمر منكم فإن تنازعتم في شيء فردوه إلى الله والرسول إن كنتم تؤمنون بالله واليوم الآخر ذلك خير وأحسن تأويلا

فبما رحمة من الله لنت لهم ولو كنت فظا غليظ القلب لانفضوا من حولك فاعف عنهم واستغفر لهم وشاورهم في الأمر فإذا عزمت فتوكل على الله إن الله يحب المتوكلين

وقال رسول الله : (سيد الشهداء حمزة ورجل قام إلى إمام جائر فأمره ونهاه، فقتله).

وقال : (يا أيها الناس اسمعوا وأطيعوا ولو أُمِّر عليكم عبدٌ رأسه كزبيبة). وقال : (الأئمة من قريش).

الخروج السياسي في العصر الإسلامي المشترك

لعل بعض المؤرخين والمحللين المهتمين بالخلافيات قد جانبوا الحقيقة حين وضعوا الخروج السياسي وتراثه ضمن المواضيع الخلافية والصراع الطائفي، وتضاعف الخطأ حين أهملت أخبار الخروج والقيام بالنسبة لغير العلويين، وتم تسليط الضوء والتركيز على الخروج العلوي في هذه الحقبة والتركيز على مقاتل الطالبيين( )، وذلك دون اعتبار للوقائع والأحداث التاريخية التي تجمع على أن ما أصاب الأمويين (مثلاً) لم يكن قليلاً إذا ما قورن بمصاب الطالبيين أو العباسيين أو الزبيريين وغيرهم، والزبيريون رغم قلة عددهم وانشغال أحفادهم بعد نكبة عبد الله بن الزبير بالعلم والرواية، فقد كان البيت الزبيري من أكثر بيوت قريش تعرضاً للقتل والمحاربة، إذ قتل الزبير في وقعة الجمل غيلة، وقد بشر النبي في حديث شريف قاتله بالنار، فقد روى علي عن النبي قوله: قاتل ابن صفية بالنار( ). وهو الزبير وأمه صفية بنت عبد المطلب عمة النبي ، ثم قتل ابنه المنذر ابن الزبير في أعقاب معركة الحرّة بين جيش الشام وأهل المدينة، وذلك في أواخر عصر يزيد. وعند حصار الحجاج بن يوسف لمكة قتل عبد الله بن الزبير بعد مقتل أخيه

مصعب ابن الزبير واليه على العراق على يد الأمويين أيضاً في الكوفة، وكان مصعب قد تزوج من سكينة بنت الحسين بن علي.

إن كل تلك الأحداث والمقاتل التي أصابت بيوت قريش المتنافسة على الحكم سواء منهم من كان على الحق أو قريباً منه أو بعيداً عنه، تدفعنا إلى وضع الخروج على الخليفة أو الحاكم ضمن الإطار السياسي وليس الديني أو الطائفي، وانه شمل معظم القرشيين بل الأنصار كذلك في بعض الأحيان وبقية قبائل العرب لاسيما ما حدث للخوارج في العصر الأموي، وكما حدث في الطّفّ والحرّة وحصار المدينة ومكة، وكذلك حركات الخروج العديدة التي قام بعض القادة من غير القرشيين أيضاً كحركة عبد الرحمن ابن الأشعث الكندي في الكوفة والمختار بن أبي عبيد الثقفي وغيرهما.

وهناك أمر آخر لا يقل أهمية عن تصنيف الخروج واعتباره من إفرازات الظرف السياسي والتنافس على الحكم، هو مدى مبدئية الخارجين على الحكم. لقد حدث الخروج على الخلفاء والحكام لدوافع عديدة، وإننا لا يمكن أن نضع جميع الخارجين في ميزان واحد، فقد يكون الخارج من أهل الحق والمبدئية الإسلامية، والحاكم أقرب للخطأ والبغي كما هو الحال في خروج الحسين وابن الزبير اللذين خرجا على حكم يزيد ورفضا مبايعته، وقد يكون العكس صحيحاً، كخروج معاوية على خلافة علي، وخروج عبد الملك بن مروان على خلافة عبد الله بن الزبير، وخروج المختار وابن الأشعث على عبد الملك، وخروج إسماعيل العلوي بمكة أيام المستعين، وخروج الأخوين محمد وعلي ابني الحسين بن جعفر أيام المعتمد بالمدينة، حيث عاث هؤلاء الفساد في مكة والمدينة، ومنعوا الناس من الصلاة في المسجد النبوي وأرهبوا المسلمين( )، وكذا خروج صاحب الزنج في البصرة أيام المعتمد العباسي أيضاً. وقد يكون الطرفان متساويين في المبدئية والدافع كخروج أبي العباس السفاح على مروان بن محمد الأموي، وقد يكون الطرفان على خطأ يدفعهما التنافس على السلطة وحب الدنيا والطمع والطموح الشخصي الذي يدفع للمغامرة والمجازفة، كخروج مروان بن محمد على إبراهيم بن الوليد بن عبد الملك، وكخروج المأمون على الأمين، وكذلك خروج المعتز على المستعين العباسي وعزله، ثم خروج المستعين –بعد عزله- على المعتز ومصرعه.

وكذلك فليس من السهولة بمكان للمؤرخ أو المحلل أن يجعل من نفسه حكماً على شرعية الخروج السياسي وأسبابه في التاريخ الإسلامي أو في عموم التاريخ البشري المتسم بذلك الصراع والذي الذي كان الخروج والتنافس على الحكم يشكل معظم أحداثه كما هو معلوم في التاريخ العالمي، تأتي بعده سياسة التوسع والغزو والاحتلال والاستعمار بين الشعوب والممالك والدول قديماً وحديثاً.

لذلك فقد كان تقسيم الخروج السياسي في الإسلام وتصنيف الخارجين هو وجهة نظر شخصية قابلة للخطأ والنقد والتصحيح، وإنما ذكرنا ذلك التصنيف من حيث المبدأ والاحتمالات الموضوعية لأسباب الخروج عموماً، وان التحديد الدقيق لدوافع الخارجين بحاجة إلى بحث وتقصي دقيق ودراسة تحليلية موسعة. ويمكن أن تدرس كل حالة من حالات الخروج على حدة لمعرفة الأسباب والدوافع المختلفة، لتكوين رؤية علمية تاريخية رصينة، ومع ذلك ستبقى معرفة النوايا أمرٌ مجهول وفي علم الله في كل الأحوال، قال تعالى: تلك أمة قد خلت لها ما كسبت ولكم ما كسبتم ولا تسألون عما كانوا يعملون .

وإذا ما أردنا متابعة تاريخ الخروج في صدر الإسلام حتى مطلع العصر العباسي الثاني فسنرى أن الكثير من أحداث الخروج التي –رغم شرعية بعضها- قد سببت الكثير من المآسي والآلام عبر التاريخ، ولعل أحد أهم الأسباب التي كانت تحفز على الخروج، هو ترك مبدأ الشورى القرآني وتبني الحكم الوراثي بعد الخلافة الراشدة، لدى الأمويين والعباسيين وكذلك العلويين.

أما الحافز الثاني للخروج، والذي هو نتيجة طبيعية للحافز الأول، هو اعتلاء غير ذوي الكفاءة والقدرة والعدالة العرش والخلافة، ورغم إننا لا يمكن أن نلغي دور الطبيعة البشرية والسنن في وجود الميل الفطري لدى البعض للثورة والمعارضة والطموح الشخصي للاستحواذ على الحكم، وميل البعض الآخر إلى شجب الخطأ والانحراف والظلم وعدم السكوت عنه، فهذا كله يمكن ان يشكل أسباباً قوية للخروج السياسي عموماً، كما إننا لا يمكن أن نهمل دور الأعداء والخصوم للتآمر على الإسلام ديناً ودولة، ومحاولة زج بعض الشخصيات السياسية المعارضة في مواجهة السلطة أو الحاكم لدوافع خفية( )، يحكمها تلاقي السياسة رغم تعارض الأهداف كما حدث في خروج المأمون على أخيه الأمين بدفع من الوزير الفارسي لدى المأمون الحسن بن سهل، وأثر المعتزلة وحلفائهم في إثارة محنة خلق القرآن واضطهاد العلماء على يد الخلفاء في زمن المأمون ثم المعتصم ثم الواثق، وغير ذلك كثير في التاريخ.

وقد كثر الخروج السياسي بعد عصر الخلافة الراشدة للأسباب أعلاه، وهي استبدال مبدأ الوراثة بمبدأ الشورى، واعتلاء العرش خلفاء أقل جدارة من غيرهم، وتداخل الأسباب الأساسية مع المبادئ الإسلامية، إلا أن عصر الخلافة الراشدة لم يسلم من حالات الخروج، فإذا استثنينا عصر الشيخين أبي بكر وعمر رضي الله عنهما الذي لم يشهد خروج أحد من المسلمين عليهما، باستثناء ظاهرة الردّة في عصر الصديق، وهي خروج عن الدين وارتداد إلى الكفر، خارج إطار القاعدة الصلبة في مكة والمدينة والطائف، التي ركز الرسول عليها وعلى استقرار الإسلام فيها في حياته، وقد قاد الردة مسيلمة الكذاب وسجاح والأسود العنسي، وهم قد بدأوا حركتهم المناهضة للإسلام في حياة النبي ، ثم اشتدّ خطرهم بعد وفاته ، فكان خروجهم عن الإسلام محاولة بائسة لملأ الفراغ السياسي الذي أحدثته وفاة النبي ، وقد استطاع الخليفة الصديق وبمؤازرة الصحابة من قبر هذه المحاولة والقضاء على الردة في منابعها، أما ما بعد عصر الشيخين رضي الله عنهما فقد شهد عهد عثمان في آخره نوعاً من الاضطرابات والخروج والفتن، بعد أن كان عهده عهد فتوح واستقرار ورخاء لاسيما النصف الأول من حكمه الذي دام اثنتا عشر سنة، وكان مصدر هذه القلاقل والفتن جموع من مصر والعراق، معترضين على ولاتهم الذي عينهم عثمان ، ثم تفاقم الأمر واتسعت الفتنة، حتى حاصر هؤلاء الغوغاء المدينة أواخر سنة 35هـ، وأدت في النهاية إلى استشهاد الخليفة ومصرعه، ويجمع المؤرخون المسلمون وغيرهم على أن ذلك الخروج كان يضم فيما يضم بعض رؤوس الغلو والنفاق من أعداء الإسلام، وبتخطيط ومتابعة من اليهود والمجوس والروم وخطوطهم الخفية في الأمصار، وكان على رأس هؤلاء رجل يهودي يدعى عبد الله بن سبأ، أصله من صنعاء، تظاهر بالإسلام –كما تظاهر سلفه اليهودي بولص (شاؤل) بالنصرانية بعد وفاة المسيح- وركب موجة المعارضة والخروج على الخليفة وأثار الفتنة، واستفاد من أسبابها وأجوائها لخدمة أغراضه، ورغم أننا لا ندعي أن هذه الفتنة بكل تفاصيلها من صنع هذا اليهودي، فهذا مما لا يقبله العقل الموضوعي، وأن للفتنة أسباباً عديدة لا مجال لذكرها الآن، منها اتساع الدولة الإسلامية، وحداثة الشعوب التي دخلت الإسلام، وبقايا الوثنية عند بعض العجم، وبقايا

القبلية عند بعض العرب، وأخطاء الولاة الذين يمتون بصلة رحم بالخليفة، والتغير الاجتماعي والفكري وانتشار الترف بسبب كثرة واردات الدولة في الفتوح العظيمة، وسياسة عثمان اللينة بعد عصر عمر الحازم، وغيرها من الأسباب الموضوعية الممهدة لتلك الفتنة التي شقّت وحدة المسلمين وهددت كيانهم واستقرارهم ومستقبلهم.

وليس من الموضوعية والعلمية أن نتبنى آراء بعض المستشرقين المنحازين أمثال كايتاني وبرنارد لويس، وأن نقفز إلى الطرف النقيض ونبني موقفاً غريباً متابعة لهؤلاء الخصوم فنقول بنفي وجود شخصية ابن سبأ ودوره في الفتنة ودور الأعداء والخصوم في التآمر على الإسلام ودولته وقتل رموزه وقادته( ).

أما عهد علي فقد شهد خروج طلحة والزبير والسيدة عائشة رضي الله عنها للمطالبة بالقصاص من قتلة عثمان ، ونشوب حرب الجمل التي أدت إلى استشهاد طلحة والزبير وكثير من المسلمين من الطرفين، وكذلك خروج معاوية في الشام على الخليفة الشرعي مما أدّى إلى وقوع معركة صفين بينهما، وأدت المعركة إلى قتل عمار بن ياسر الذي قال فيه النبي : تقتله الفئة الباغية( )، فدل الحديث على أن معاوية وأتباعه هم الباغون، وكاد جيش الخلافة أن يحقق النصر لولا ظهور فكرة التحكيم ورفع المصاحف من قبل جيش الشام، وبعد حادثة التحكيم المعروفة تصدعت جبهة الخليفة علي وخرج عليه الخوارج من جيشه وأتباعه، ثم استمر النزاع بعد مقتل الإمام علي على يد الخوارج، بين معاوية والحسن الذي أصبح خليفة بعد أبيه، والتي انتهت بالصلح بين الفريقين بعد ستة أشهر من خلافة الحسن بن علي رضي الله عنهما، بعد أن رأى الخليفة ضعف أتباعه وجبنهم وخيانتهم له وهربهم إلى معسكر معاوية، وعدم صبرهم على الحرب والمكاره، واتفق الحسن ومعاوية على شروط منها: أن تؤول الخلافة بعد معاوية شورى بين المسلمين، وأن يعطي الأمان للحسن وأنصاره وجنده. إلا أن موت الحسن سنة 50هـ، في عهد معاوية قد شجعه على أن يعهد بالخلافة إلى ابنه يزيد( )، وطلب بيعة الصحابة وأبنائهم له، فأبى معظمهم وعلى رأسهم عبد الرحمن بن أبي بكر وعبد الله بن عمر وعبد الله بن عباس والحسين بن علي وأخوه محمد بن الحنفية. وقد أجاب عبد الرحمن ابن أبي بكر على معاوية رداً على كتابه بطلب البيعة لابنه: تريدونها كسروية قيصرية، كلّما مات قيصر، جاء قيصر بعده. إلا أن ذلك الموقف المعارض لمعاوية لم يثنه عن أخذ البيعة ليزيد، مما فتح الباب للخروج السياسي على مصراعيه بعد وفاته.

وفي زمن يزيد خرج الحسين وعبد الله بن الزبير، فقتل الحسين في وقعة الطّف مع أهل بيته، وخرج أبناء المهاجرين والأنصار لبيعة ابن الزبير وخلع يزيد، فكانت وقعة الحرّة التي حاصر فيها جيش الشام المدينة، وقتل فيها من أبناء المهاجرين والأنصار وقريش وبقية المسلمين العدد الكبير منهم اثنان من أبناء سعد بن أبي وقاص هما (عمير وعمرو)( )، والمنذر بن الزبير هرب من الحرّة في المدينة إلى مكة ولحقه جيش الشام قرب مكة فقتل، ومن قتلى الحرّة أيضاً الفضل بن العباس وعبد الله بن حنظلة الغسيل قائد الأنصار وعبد الله بن مطيع ومعقل بن سنان الأشجعي (قائد المهاجرين) كما قتل في هذه الوقعة عبد الله ابن الضحاك الأنصاري ومحمد بن ثابت بن قيس، وقتل في نهاية وقعة الحرّة -وبعد أن أعطى قائد جيش الشام الأمان لأهل المدينة- وفد قوات المدينة للتفاوض وهم يزيد بن عبد الله بن رافعة الأسدي ومحمد بن أبي الجهم العدوي ومحمد بن عمرو ابن حزم الأنصاري، الذين طلب منهم قائد الشام البيعة ليزيد وخلع بيعة عبد الله بن الزبير

والبراءة منه، فلما رفضوا قتلهم جميعاً، وهكذا نجد أن عهد يزيد واجه رفضاً من أهل البيت والصحابة لحكمه، وكان قتلى الحرّة من الصحابة أضعاف قتلى الطّف، ففي الطّف قتل من أهل البيت وأنصارهم سبعون رجلاً مع الحسين الشهيد، في حين قتل في وقعة الحرّة مع ابن حنظلة الغسيل الأنصاري ومعقل بن سنان الأشجعي والفضل بن العباس أكثر من ثلاثمائة من الصحابة وأبناءهم، كما يؤكده المؤرخون أمثال الطبري واليعقوبي والمسعودي وابن كثير وغيرهم.

وبعد الحرّة وحصار المدينة في أواخر زمن يزيد حوصرت مكة وضربت بالمنجنيق في محاولة للقضاء على حركة عبد الله بن الزبير وخروجه على يزيد، غير أن موت يزيد غير الأمر لصالح ابن الزبير، وانسحب جيش الشام وأصبح عبد الله بن الزبير هو الخليفة الشرعي واجتمع له الأمر في العراق والجزيرة ومصر وحتى الشام، واستمر حكمه لمدة ثمان سنوات. ثم خرج على ابن الزبير مروان بن الحكم في مصر والشام ولم يستطع أن يفعل شيئاً، ثم عهد إلى ابنه (عبد الملك) بعد موته، فخرج عبد الملك على ابن الزبير، واستطاع بعد أقل من عشر سنوات أن يوسع ملكه، فاقتطع بلاد الشام ثم مصر وأخضعهما لملكه، ثم زحف على العراق فقتل مصعب بن الزبير في الكوفة، وولى الحجاج بن يوسف الثقفي على الكوفة والبصرة، وهو الذي بنا مدينة واسط مقراً لحكمه في العراق، وكان الحجاج قوياً شديد البأس سفاكاً للدماء، فأمره عبد الملك أن يغزو مكة والمدينة ويحاصر ابن الزبير في مكة، واستطاع بعد حصار مكة لعدة أشهر أن ينتصر على ابن الزبير ويقتله، بعد أن خذل أتباع ابن الزبير خليفتهم وتسللوا تدريجياً إلى جيش الشام خارج مكة، كما حدث مع الحسين في الطّف تماماً، وهذا هو شأن القوة دائماً، تُرهب الناس وتغري بعضهم فلا يثبت على المبدأ إلا أصحاب النجدة والشجاعة وهم قلة غالباً.

وخرج في زمن عبد الملك بن مروان عبد الرحمن بن الأشعث الكندي وأتباعه في الكوفة، فتصدى الحجاج لحركته وفتك بها ثم قتله في النهاية، وخرج زيد بن علي على هشام بن عبد الملك في الكوفة سنة 122هـ فقتل، وكذلك خرج ابنه يحيى بن زيد بعده في خراسان ولم ينجح أيضاً.

وخرج إبراهيم الإمام العباسي( ) وهو صاحب الدعوة العباسية في زمن مروان بن محمد آخر خلفاء بني أمية، وكان مروان محارباً باسلاً وشجاعاً ولقد لقب بالحمار لجلده وبأسه وعدم رغبته للخلود إلى الراحة، وكان متابعاً لأعدائه، ذائداً عن عرشه المهتز في آخر أيام الأمويين في الشام، فقد ابتدأ مروان حكمه بالخروج على ابن عمه إبراهيم بن الوليد فعزله وأصبح خليفةً مكانه، وسجن داعية بني العباس وأميرهم إبراهيم الإمام بن محمد ابن علي العباسي، بعد أن كشف أمره، ثم قتله في سجنه، ثم خرج عليه أبو العباس السفاح، واستطاع أن ينال منه، وأن يسقط الخلافة الأموية، وقد تعقب العباسيون مروان في الموصل ثم دمشق ثم في فلسطين( )، ثم في مصر حتى ظفر به صالح بن علي العباسي في قرية بوصير فقتله. ويذكر أن السفاح قتل الكثير من مناوئيه الأمويين وقاد حملة إبادة ضدهم، وفي نفس الوقت فقرَّب أبناء عمه العلويين وأجزلهم العطاء، وقد لقب بالسفاح لكرمه وسفحه دم الأضاحي من الإبل والشياه.

أما عهد خليفته المنصور فقد شهد توتر العلاقة مع العلويين بعد خروج محمد النفس الزكية في المدينة وخروج أخيه إبراهيم( ) في البصرة ومقتلهما في زمن المنصور، مما أجج الخلاف والصراع العباسي – العلوي على الحكم، فقام الحسين بن علي الحسني على الخلافة العباسية، في مكان يدعى فخاً قرب مكة زمن الهادي، فأرسل الخليفة له جيشاً فقتل مع أهل بيته وأنصاره. ثم خرج يحيى بن عبد الله المحض أخو محمد النفس الزكية أيضاً في زمن الرشيد، فأمّنه جعفر

البرمكي وجاء به إلى بغداد، فسجنه الرشيد ثم عفا عنه، واستطاع إدريس بن عبد الله المحض ان يفر إلى المغرب ليؤسس ابنه إدريس بن إدريس بن عبد الله المحض من بعده دولة الأدارسة الحسنية بعيداً عن مركز الخلافة في بغداد، وهي أول دولة علوية في التاريخ الإسلامي بعد عصر الخلافة الراشدة، وبالمقابل استطاع أتباع البيت القرشي الثالث وهم الأمويون أن يؤسسوا دولة جديدة لهم في الأندلس، بعد خروج عبد الرحمن الداخل على المنصور العباسي( )، وقد لقبه المنصور بصقر قريش بعد أن نجح في دحر جيش الخلافة العباسية، وتأسيس إمارة أموية في الأندلس، أصبحت فيما بعد الأساس في قيام الدولة الأموية في الأندلس التي شعت على أوربا بحضارة القرآن علماً وثقافةً ونظاماً. وقد أعجب المنصور وهو المتصدي الشديد لخصومه بنجاح عبد الرحمن الداخل في الهروب من الشام إلى مصر فالمغرب، ومن ثم الدخول إلى الأندلس والاستحواذ على الحكم فيها والانتصار على الجيش العباسي هناك. ومن نسله الخليفة الأموي الأندلسي المشهور عبد الرحمن الناصر وغيره من الرجال العظام الذين حكموا الأندلس.

الخروج لم يمنع استمرار التواصل الودي بين المتنافسين على الحكم

وكما شهد التاريخ السياسي حدة الخروج والصراع على الحكم والسلطة، فقد شهد أيضاً حالات كثيرة وحقباً طويلة من الوئام والسلام والوحدة والجهاد المشترك والتعاون، ومن أمثلة ذلك استخدام الخليفة الراشد الرابع علي بن أبي طالب معظم عماله من العباسيين، وشهد أيضاً الأخوة والتآزر والمصالحة والتعاون بين رموز أهل البيت والقوى الإسلامية الأخرى في عهد عمر بن عبد العزيز الخليفة العادل المعروف، حتى استطاع في ظل حكمه أن يستميل العلويين والعباسيين والأنصار وغيرهم من أبناء الصحابة ورموز أهل البيت، والخوارج والموالي وبقية فصائل المجتمع الإسلامي في فترة حكمه القصير، وكذلك في عهد الخليفة العباسي السفاح الذي وصل أبناء عمه العلويين وقرّبهم، وتكرر الأمر نفسه في عصر المأمون العباسي، إذ جعل الإمام علي الرضا ولياً لعرشه وصاهره، وابنه محمد الجواد في ابنتيه أم حبيب زوجة الرضا، وأم الفضل بنت المأمون زوجة الإمام محمد الجواد.

أما تولية الأمصار واختيار الولاة والعمال فقد شهد التاريخ الإسلامي تداخلاً كبيراً بين هذه البيوت الشريفة من قريش فضلاً عن الأنصار من الأوس والخزرج، وقد اشتهرت الكثير من تلك العلاقات الودّية، وفي كتب التاريخ والتراث المزيد لمن يريد.

معظم أسباب الخروج كانت سياسية وليست دينية

ومن خلال هذا الاستعراض السريع لأحداث الخروج السياسي في التاريخ الإسلامي التي ذُكرت، والتي لم يتسع المجال لذكرها، نستنتج أنه لا يمكن تعليل أسباب الخروج بدوافع دينية أو طائفية، كما يحلو للبعض أن يفسرها، ذلك لأنها طالت جميع البيوت والفرق والتيارات، بل لقد لاحظنا الخروج بين أطراف البيت الواحد، كخروج الأمويين على الأمويين والعباسيين على العباسيين والعلويين على العلويين، بل نجد أحياناً مناصرة قادة البيت الفلاني للبيت الآخر أو وقوفهم على الحياد أحياناً أخرى، فهي إذن أحداث سياسية تقليدية متوقعة ضمن حِقب طويلة من الزمن، لدولة

إسلامية عظمى حكمت معظم أرجاء العالم القديم لاسيما في العصور الأموية والعباسية. فكان لابد للتنافس ودوافع النفس والطموح المشروع وغير المشروع أحياناً ممتزجة مع العوامل والظروف والمبررات المبدئية والظرفية التي إذا ما قورنت مع أحداث الأمم والدول الأخرى بدت طبيعية وقليلة بالنسبة لما حدث في دول الروم وفارس والصين سواء قبل الإسلام أو بعده.

قال تعالى: واتل عليهم نبأ ابني آدم بالحق إذ قربا قربانا فتُقُبِّل من أحدهما ولم يتقبل من الآخر قال لأقتلنك قال إنما يتقبل الله من المتقين . لئن بسطت إلي يدك لتقتلني ما أنا بباسط يدي إليك لأقتلك إني أخاف الله رب العالمين . إني أريد أن تبوء بإثمي وإثمك فتكون من أصحاب النار وذلك جزاء الظالمين. فطوعت له نفسه قتل أخيه فقتله فأصبح من الخاسرين . ( )، وقال النبي : سيد الشهداء حمزة ورجل قام لإمام ظالم فأمره ونهاه فقتله( ).

إن من أهم أسباب الخروج على الحكم كما نلمسها في القرآن والسنة موقف حاسدٍ طامع وموقف حقٍ شجاع وجريء، والله أعلم.

الفصل الرابع

شخصيات قرآنية

في ضوء منهج الوحدة والتقريب

مقدمة

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على محمد الأمين، وعلى آله وصحابته الميامين ومن دعا بدعوته إلى يوم الدين وبعد..

فهذه مجموعة من المقالات والتراجم لبعض الشخصيات الإسلامية والقرآنية لجيل التابعين من أبناء أهل البيت والصحابة وأحفادهم، ممن أتوخى أن يكون لهم الدور الواضح والأثر الطيب في تدعيم الوحدة الإسلامية ومنهج التقريب بين المذاهب والفرق الإسلامية وإشاعة جو الإخوة والمحبة بين المسلمين، وقد قمت بنشر معظم هذه المقالات في مجلة الفتوى وجريدة الرأي العراقية منذ عام 1420هـ، وقد شرعت بجمعها في كتاب واحد ومحاولة نشرها توخياً للفائدة منها في إشاعة هذا المنهج القرآني النبوي المبارك منهج التقريب والوحدة، وإشاعة التعايش البناء وجو الأخوة والتعاون على البر والتقوى بين المسلمين مذاهب وأفراداً، ونبذ الخصومة والتعصب والطائفية والمستحدثات التي دست في التراث والتاريخ الإسلامي، والعودة إلى أجواء الوحي الصادق واتخاذ مرجعية الكتاب والسنة والتراث النقي للسلف الصالح، لا سيما تراث أهل البيت والصحابة وأواصر الإخوة والمحبة والنسب والمصاهرة بينهم فضلاً عن الجهاد المشترك والعقيدة القرآنية التي كانت تجمعهم والتوحيد الذي كان شعارهم ومرشدهم.

وقد حاولت ترتيب الشخصيات حسب تواريخ وفاتهم وانتهاء عصرهم، وأهم الأحداث التي عاصروها والتي كانوا أبطالها لإرساء قواعد الوحدة والدفاع عن الإسلام، وقد اخترت خمسة عشر شخصية قرآنية من عصر التابعين كنماذج لذلك الجيل القرآني الفريد في صدر الإسلام، والذي بقي يمثل منارة عالية وأسوة حسنة لباقي الأجيال إلى يوم الدين، وهذه الشخصيات هي:

1- الحسن بن علي بن أبي طالب. 2- عبد الرحمن بن أبي بكر الصديق.

3- الحسين بن علي بن أبي طالب. 4- عبد الله بن العباس.

5- عبد الله بن الزبير بن العوام. 6- عبد الله بن عمر بن الخطاب.

7- أبان بن عثمان بن عفان. 8- عبد الله بن جعفر بن أبي طالب.

9- زيد بن علي بن الحسين. 10- عمر بن عبد العزيز.

11- سعيد بن المسيب. 12- جعفر بن محمد الصادق.

13- إبراهيم الإمام بن علي العباسي. 14- موسى الكاظم بن جعفر الصادق.

15- عبد القادر الجيلاني.

نسأله تعالى أن يجعل هذا العمل خالصاً لوجهه الكريم وان يجنبنا الشيطان وزلته، وان يسدد الخطى في تصويب هذا العمل، فإنه سبحانه لا يقبل من الأعمال إلا ما كان أخلصه وأصوبه، انه نعم المولى ونعم النصير.

علاء الدين المدرس

27 ربيع الثاني 1421 هـ

الحسن بن علي حليم أهل البيت

هو أبو محمد الحسن بن علي بن أبي طالب. وأمه السيدة فاطمة بنت رسول الله وهو سبط النبي وريحانته، والابن البكر لفاطمة الزهراء البتول. سماه النبي وعق له في اليوم السابع من مولده الشريف، ولم يكن اسم الحسن مما يعرف في الجاهلية وإنما اختاره النبي واشتق منه اسم الحسين. وهو الإمام الكامل والخليفة الراشد حليم أهل البيت والوزير المستشار في عهد أبيه وهو جد السادة الحسنية في الشجرة العلوية المباركة ونقابة الأشراف من آل بيت النبوة.

ولد الحسن في منتصف رمضان سنة 2هـ، وكان أشبه أهل البيت بالنبي . وقد أخرج البخاري عن انس قال: لم يكن أحد أشبه بالنبي من الحسن بن علي، وكان أبو بكر الصديق في خلافته يحمل الحسن بن علي –وهو طفل صغير- ويقول: بأبي، شبيه بالنبي، غير شبيه بعلي، وعلي يضحك( ). وكان النبي يحب الحسن، وقال ذات مرة وهو يحمل الحسن على عاتقه: اللهم إني أحبه فأحبه( ). واخرج البخاري عن عبد الله بن عمر قول المصطفى في الحسن والحسين قال: هما ريحانتاي من الدنيا، وقال: الحسن والحسين سيد شباب أهل الجنة( ).

مناقب الإمام الحسن

كان الإمام الحسن سيداً حليماً، ذا سكينة ووقار وحشمة، جواداً ممدوحاً، يكره الفتن والسيف، ومن حكمته انه أشار على أبيه بعد بيعته للخلافة بعدم الإسراع بإقالة أمراء الخليفة السابق عثمان ، تجنباً للفتنة والاختلاف وتفجر الصراع الذي بدأ بمحاصرة عثمان وقتله في داره، لا سيما وان المتمردين من الموالي والأعراب الغلاة يشكلون نسبة كبيرة من جيش الخلافة، غير إن حرص الإمام علي على الحق والعدل والحفاظ على هيبة الخلافة قد منعه من متابعة مشورة ابنه الحسن والأخذ بها. وفي قضية الصلح الكبير الذي تم على يد الإمام الحسن مع أهل الشام وتنازل الإمام الحسن عن الخلافة، هناك إشارة نبوية مباركة إلى ذلك الحدث الذي أطلق المسلمون عليه (عام الجماعة) لاجتماع كلمة المسلمين ووحدتهم بعد مدة من الصراع والاقتتال دامت أكثر من خمس سنوات، الحدث الذي تم في الكوفة في 25 ربيع الأول سنة 41هـ، فقد اخرج البخاري عن أبي بكرة إن النبي قال على المنبر والحسن إلى جنبه: إن ابني هذا سيد، ولعل الله أن يصلح به بين فئتين من المسلمين. ويؤكد هذا الحديث الشريف مقام الحسن ومنزلته بين المسلمين، بأنه سيد،

ولهذا كان أهلاً لهذا الدور الكريم الشجاع، دور المصلح بين فئتين من المسلمين، ليجمعهم على الحق والخير والشورى والوحدة والسلام، وقد كان ذلك دور الحسن فعلاً في عهده القصير والعظيم. فقد اصطلح مع معاوية وزهد في الملك والخلافة، مقابل وحدة الصف، واشترط أن تعود الخلافة بعد معاوية شورى بين المسلمين وأن يحكم في الناس بالكتاب والسنة وسيرة الخلفاء الراشدين( ).

وحين قال له أحد الجهلة في الكوفة بعد تنازله عن الخلافة: السلام عليك يا مذل المؤمنين.. أجابه الحسن بحكمته وحلمه، فقال له: لست بمذل المؤمنين ولكني كرهت أن أقتلكم على الملك. ثم ارتحل الحسن عن الكوفة إلى المدينة المنورة وأقام بها.

الإمام الحسن في عهد الخلافة الراشدة

كان الحسن طفلاً لا يتجاوز العاشرة في خلافة الصديق، وكان الشيخان يحبان الحسن والحسين أكثر من أبنائهما، وقد قال أبو بكر الصديق للسيدة فاطمة، حين سألته حول فدك: قال رسول الله : لا نورث ما تركناه فهو صدقة إنما يأكل آل محمد من هذا المال. ثم قال: والذي نفسي بيده لقرابة رسول الله أحب إلي من أن أصل قرابتي، فرضيت السيدة فاطمة ولم تراجعه في ذلك حتى توفيت، وروى ابن أبي الحديد في شرح نهج البلاغة( ) قول عمر عندما أمر بالدواوين لتوزيع الغنائم بين المسلمين، فقال عمر: لا بل أبدأ برسول الله وبأهله ثم الأقرب فالأقرب، فكان يعطي الحسن والحسين مثل كبار الصحابة من أهل بدر وأمثالهم.

وروى الحسن بن علي عن أبيه عن النبي قال: أن أبا بكر مني بمنزلة السمع وان عمر مني بمنزلة البصر( ).

وقد اشترك الحسن مع باقي أهل البيت والصحابة في عمليات الجهاد والفتح في عهد عمر وعثمان (رضي الله عنهما)، فقد اشترك مع الحسين وعبد الله بن عباس وعبد الله ابن جعفر الطيار في غزوات خراسان وطبرستان وجرجان في المشرق، وفي معارك برقة وطرابلس وأفريقيا في المغرب، وغيرها من الغزوات والمعارك الإسلامية وعمليات الفتوح العظيمة التي حدثت في صدر الإسلام( ).

وقد كان عثمان يحب الحسن والحسين ويكرمهما، ولذلك لما حوصر من قبل البغاة، أرسل الإمام علي ابنيه الحسن والحسين، وقال لهما: اذهبا بسيفكما حتى تقدما على باب عثمان، فلا تدعا أحداً يصل إليه( ). لكن عثمان منع الصحابة وأبناءهم من الدفاع عنه خشية إراقة الدماء وقال: أعزم عليكم لما رجعتم فدفعتم أسلحتكم ولزمتم بيوتكم، وعندما قتل عثمان، دخل علي الدار، وهو كالواله الحزين وقال لابنيه: كيف قتل أمير المؤمنين وأنتما على الباب؟.

وكان الحسن في عهد أبيه الإمام علي قائداً شجاعاً ومحارباً فذاً شارك في حروب والده في سبيل القضاء على الفتنة وإعادة الاستقرار في حياة المسلمين. وكان مستشاراً أمينا ووزيراً قوياً للخليفة، فلما هوت الفتنة بوالده، حين قتله الخوارج في الكوفة، تصدى لها بنفسه واستطاع بعزمه وشجاعته وحلمه القضاء على أسبابها وان يعيد الوحدة والسلام إلى حياة المسلمين مدركاً أهمية وخطورة دوره، أن تنازله عن الحكم سيحول الخلافة الراشدة إلى ملك سيطمع به من يحلم بالسيادة

والحكم في الدنيا، فآثر منهج الوحدة والسلام لتبقى مبادئ الإسلام ومثله بمعزل عن التنافس على الحكم وما يجره من فرقة وتناحر وصراع.

توفي الحسن في 7صفر سنة 50هـ ودفن في البقيع في زمن معاوية. وقد روى ابن عبد البر عن وفاته قوله: انه لما احتضر الحسن بن علي قال لأخيه الحسين: يا أخي ان أباك استشرف لهذا الأمر، فصرفه الله عنه، ووليها أبو بكر وعمر ثم عثمان، فلما قتل عثمان بويع لعلي ثم نوزع حتى جرد السيف، فما صفت له. واني والله ما أرى أن يجمع الله فينا النبوة والخلافة..فلما مات دفن بالبقيع إلى جنب أمه فاطمة رضي الله عنها.

حياة الحسن الاجتماعية

تزوج الإمام الحسن العديد من النساء، منهن: خولة بنت منظور الفزاري وهي أم ابنه الأكبر الحسن المثنى، وتزوج أم بشر بنت أبي مسعود الأنصاري البدري أم زيد بن الحسن، وأم إسحاق بنت طلحة بن عبيد الله، وهي أم طلحة بن الحسن، وجعدة بنت الأشعث الكندي، وقد حاولت بعض الروايات المتأخرة الضعيفة أن تتهم جعدة بسمه بالاتفاق مع يزيد بن معاوية، ولكن البحث العلمي لم يؤكد ذلك. وقد روى تلك الرواية الأصفهاني في مقاتل الطالبيين، وهي ساقطة سنداً ومتناً، ذلك لأن السيدة جعدة هي بنت الأشعث بن قيس الكندي أحد قواد الإمام علي ومناصريه، كما أنها تزوجت بعد وفاة الحسن من ابن عمه العباس بن عبد الله بن عباس ثم بعده يعقوب بن طلحة بن عبيد الله، ومن المعروف بداهة إن الرجل الغريب لا يأمن أن يتزوج من امرأة سمّت زوجها فكيف بابن عم الزوج وهؤلاء الرجال الكرام من أبناء أهل البيت والصحابة، كما إن الحسن نفسه لم يتهم أحدا في قتله أو سمه وهو يتحدث لأخيه الحسين( ) فهي إذن من الروايات المدسوسة التي يحاول الشعوبيون والغلاة أن يدسوها في التراث الإسلامي. ومن زوجات الحسن أيضا أسماء بنت عطارد بن حاجب التميمي، وقد كانت قبله عند عبيد الله بن عمر بن الخطاب، الذي قتل في صفين مع جيش الشام، فتزوج الحسن زوجته أسماء بعد مقتله، تضبيقاً للفتنة وإكراما له ولأبيه عمر . ولقد اتبع الإمام الحسن نفس المنهج في معركة الجمل في استخدام المصاهرة في تأليف القلوب وتدعيم أخوة المسلمين ووحدتهم رغم جراح الفتن، وبيان منزلة كبار الصحابة في قلوب أهل البيت فتزوج بعد معركة الجمل من أم إسحاق بنت طلحة بعد مقتل أبيها وأخيها محمد بن طلحة، فأنجبت له طلحة بن الحسن، ثم تزوجها بعده أخيه الحسين وأنجبت له فاطمة بنت الحسين، زوجة الحسن المثنى وأم عبد الله المحض وإخوته. وفاطمة بنت الحسين هي أخت طلحة بن الحسن من أمها (أم إسحاق بنت طلحة). كما نلمس مدى محبة الحسن لعمه طلحة بن عبيد الله ، في تسمية ابنه من زوجته أم إسحاق بنت طلحة، باسم (طلحة) تبركاً بهذا الاسم الكريم ودوره الجهادي في عصر الخلافة الراشدة، مما يدل على عمق المحبة والود بين أهل البيت والصحابة وأبنائهم التي استطاعت أن تقهر الفتنة والصراع الذي أنشبه الأعداء والغلاة في صفوف المسلمين بتلك الروح القرآنية والهدي النبوي وبتلك المصاهرات المباركة والأسماء الزكية لأهل البيت والصحابة لتبقى مناراً للأجيال في حياة الأمة.

ومن أبناء الحسن وأحفاده الكرام، محمد وأبو بكر وعمر و الحسين وعبد الله وعبد الرحمن وجعفر وحمزة فضلاً عن الحسن المثنى وزيد وان العدد والبيت في ابنه الأكبر الحسن المثنى بن الحسن

السبط، أما عقب الحسن فهو في الحسن المثنى وزيد فحسب، والباقي انقرض نسلهم، ومن نسل عمر بن الحسن، الإمام محمد بن عمر بن الحسن السبط وهو فقيه ومحدث مشهور، لكنه لم يعقب.

ومن أحفاده الحسين بن علي بن الحسن بن الحسن المثنى صاحب وقعة فخ قرب مكة زمن الهادي، والسيدة نفيسة بنت زيد بن الحسن السبط زوجة الوليد بن عبد الملك، وأخيها الحسن بن زيد أمير المدينة زمن المنصور ومن عقبه بنو الحسن بن زيد صاحب طبرستان، ومنهم إدريس بن عبد الله المحض مؤسس دولة الادارسة في المغرب، ومنهم محمد النفس الزكية بن عبد الله المحض القائم في المدينة زمن المنصور. ومنهم يحيى الزاهد بن محمد بن داود الحسني جد الشيخ عبد القادر الجيلاني البغدادي شيخ الحنابلة والمتصوفة في عصره، وهو عبد القادر بن موسى بن عبد الله الجبلي بن يحيى الزاهد. وغيرهم من الأحفاد البررة والأئمة الأعلام من السادة الحسنية الذين ينتسبون إلى الدوحة المحمدية، من خلال تلك الشجرة العلوية المباركة، والذين يشكلون أحد فرعي نقابة الأشراف من نسل النبوة الطاهر.

عبد الرحمن بن أبي بكر الصديق

هو أبو عبد الله عبد الرحمن بن أبي بكر (عبد الله) بن عثمان (أبي قحافة) بن عامر بن عمرو بن كعب بن سعد بن تيم بن مرة القرشي التيمي، اكبر أبناء أبي بكر الصديق ولد قبل البعثة النبوية بسنين، تأخر إسلامه حتى فتح مكة، وحارب في صفوف المشركين يوم بدر وأحد، ولاح له أبوه يوم أحد مرات ولكنه كان يحيد عنه، ولما أسلم أخبر أباه الصديق بذلك فقال أبو بكر: والله لو رأيتك يومها لقتلتك. ودخل الإسلام وأراد أن يعوض ما فاته من الجهاد في سبيل الله، ولما عمت الردة في الجزيرة سعى للجهاد وقاتل جيش مسيلمة قتالاً شديداً، واستطاع عبد الرحمن بن أبي بكر أن يقتل محكم بن طفيل مستشار مسيلمة والعقل المدبر له.

كما شارك عبد الرحمن في معارك الفتح الإسلامي في المشرق والمغرب في عهد عمر وعثمان . ولما حدثت الفتنة في عهد عثمان كان عبد الرحمن ضمن المدافعين عنه، وبعد مقتل عثمان انضم إلى صفوف الموالين لعلي ضد معاوية.

ولما أراد معاوية البيعة لابنه يزيد باقتراح من المغيرة بن شعبة في السنين الخمس الأخيرة من عهد معاوية، قال عبد الرحمن بن أبي بكر لمعاوية: تريدونها كسروية قيصرية كلما مات قيصر قام قيصر مكانه. فقال معاوية: يا عبد الرحمن لقد استخلف أبوك أبو بكر عمر. فقال عبد الرحمن ولكنه لم يستخلف أحداً من آل بيته، وكان عمر خير الناس.. ولما علم عبد الرحمن إن معاوية يشد الرحال للمدينة، غادرها إلى مكة، وفاضت روحه ولقي ربه في مكة وذلك سنة 58هـ.

له من الأولاد عبد الله زوج عائشة بنت طلحة بن عبيد الله ومن البنات حفصة زوج الحسين بن علي وأسماء بنت عبد الرحمن بن أبي بكر تزوجت فقيه المدينة في عصر التابعين القاسم بن محمد بن أبي بكر، وأنجبت منه أم فروة بنت القاسم التي تزوجت محمد الباقر الإمام العلوي المعروف، وأنجبت منه الإمام جعفر الصادق الفقيه المشهور، مجتهد أهل البيت وصاحب المذهب الجعفري، ولذلك كان الإمام الصادق يردد كلمته الذهبية المعروفة: ولدني أبو بكر مرتين( ) وذلك

لان الصادق يلتقي بالنسب بجده أبي بكر الصديق مرتين عن طريق عبد الرحمن بن أبي بكر ومرة عن طريق محمد بن أبي بكر.

وعبد الرحمن هو شقيق السيدة عائشة أم المؤمنين رضي الله عنها فأمهما هي أم رومان بنت عامر بن عويمر بن عبد شمس من مالك بن كنانة، وهي من الصحابيات السابقات للإسلام أسلمت مع زوجها أبي بكر الصديق في بداية العهد المكي، أما إخوته عبد الله وأسماء ذات النطاقين فأمهما قتيلة بنت عبد العزى العامرية، ومحمد بن أبي بكر وهو أخيه الأصغر وأمه هي الصحابية الجليلة أسماء بنت عميس الخثعمية التي كانت قبل الصديق عند جعفر الطيار بن أبي طالب، ثم تزوجت بعد وفاة الخليفة الصديق الخليفة الراشد الرابع علي بن أبي طالب، وأصبح محمد ربيب الإمام علي، إذ تربى في أحضانه وكان من أقرب عماله وقواده وكان علي يقول فيه: (محمد ابني من ظهر أبي بكر). أما أم كلثوم بنت أبي بكر أخت عبد الرحمن الصغيرة، فأمها حبيبة بنت خارجة بن زيد الأنصارية من بني الحارث بن الخزرج.

وهكذا نرى تلك الشخصية العظيمة من أبناء الصحابة، رجلاً صادقاً مخلصاً شجاعا كريماً، ما آمن بالرسالة حتى تحول شعلة منيرة في الدفاع عن الإسلام والجهاد في سبيله لا يخشى في الله لومة لائم حتى لقي الله تعالى ورحل عن الدنيا.

الحسين بن علي بن أبي طالب

ولد الإمام الحسين سنة أربع للهجرة كما روى ابن الأثير في (أسد الغابة) والأصفهاني في (مقاتل الطالبين)، وفي رواية أخرى انه ولد في السنة الثالثة للهجرة كما روى الكليني في (الكافي). واخرج أبو داود والترمذي عن مولى النبي انه قال: رأيت النبي أذن في أذن الحسين حين ولدته فاطمة كما يؤذن للصلاة، وانه حنكه ودعا له وسماه حسيناً يوم السابع وعق عنه.. كما ذكر الشيخ المفيد أن النبي عق عنه كبشاً.

وقد، نشأ الحسين مع أخيه في كنف النبوة وفي بيت السيدة فاطمة عليها السلام وأبيه المرتضى ، وكان النبي يحب الحسين كشأن أخيه الحسن، فيقول حسين مني وأنا من حسين اللهم أحب من أحبه وأبغض من أبغضه( ) ويقول: الحسن والحسين سيد شباب أهل الجنة( ).

وفي خلافة عمر.. وحين فتح الله الدنيا للمسلمين وفتحت لهم خزائن الأرض، أسس الخليفة الديوان لتوزيع الفيء وأعطى الحسن والحسين حصة كحصة أصحاب بدر وقال لابنه حين تعجب من ذلك وهو اكبر منهما ومن شباب الصحابة قال له أبوه: ائتني بجد كجدهما وأم كأمهما وأب كأبيهما أعطيك مثلهما.. وكان يأذن لهما بالدخول عليه بدون حجابة، بخلاف غيرهما من الناس وصغار الصحابة ومنهم أبناؤه.

وقد روى ابن أبي الحديد( ) عن يحيى بن سعيد انه قال: أمر الخليفة عمر الحسين ابن علي أن يأتيه في بعض الحاجة، فلقي الحسين عبد الله بن عمر فسأله من أين جاء، قال: استأذنت على أبي فلم يأذن لي فرجع الحسين ولقيه عمر من الغد، فقال: ما منعك أن تأتيني؟ قال: قد أتيتك ولكن اخبرني ابنك عبد الله انه لم يؤذن له عليك فرجعت، فقال عمر: وأنت عندي مثله؟ وهل انبت الشعر على الرأس غيركم.

ولقد شهد الحسين العديد من معارك افتح الإسلامي في أفريقيا في عهد الخلافة الراشدة وما بعدها، وكان مثالاً للمجاهد الشجاع الذي كان يسعى مع الجيش الإسلامي لنشر نور الإسلام ورفع راية القرآن في ربوع الأرض من مشرقها إلى مغربها. فقد اشترك الحسن والحسين وعبد الله بن جعفر الطيار وعبد الله بن عباس في فتح برقة وطرابلس وإفريقية وذلك سنة 23هـ. كما اشتركوا في غزوات خرا سان وطبرستان وجرجان (في المشرق) (كما يرويه الطبري وابن الأثير وابن خلدون وابن كثير في تواريخهم).

وفي الفتنة التي قتل فيها عثمان أرسل الإمام علي ابنيه الحسن والحسين وابن أخيه عبد الله بن جعفر الطيار للدفاع عن الخليفة وحمايته من حصار المتمردين، وقد جرح الحسين وشج قنبر وجرح كذلك محمد بن طلحة، حين حاول هؤلاء الغلاة اقتحام دار الخليفة وقتله( ).

وهكذا فقد كان الإمام الحسين ذو دور فاعل وشجاع في كافة مراحل حياته سواء في عصر الخلافة الراشدة أو ما تلا ذلك حتى آخر لحظة من حياته المباركة الزكية. وسواء في ميادين الجهاد والثغور أم في ميادين الفتن والتصدي لها، وكذا في ميادين العلم والدعوة إلى الهدى والرشاد. فقد كان علماً شاخصاً في دنيا الإسلام ، هادياً مهدياً شجاعاً صلباً لا يخشى في الله لومة لائم حتى لقي الله سبحانه شهيداً مدافعاً عن مبادئ الدين الحنيف، ثائراً على الظلم والانحراف هادماً للباطل، داعياً لبناء الإسلام على هدي الحق والعدل.

ولعل ملحمة كر بلاء هي أبهى صورة للشهادة من أجل هدم الباطل الذي جاءت به الفتن والوهن الذي أصاب بعض المسلمين فجعلوا الاستئثار بالحكم أهم من المثل والمبادئ التي جاء بها الإسلام الحنيف متمثلة بالشورى التي لابد منها لرعاية الحق والعدل والخير الذي جاء به الإسلام لتنعم به البشرية في ظل حضارة القرآن ودولة الإسلام التي أقامها النبي وخلفاؤه من بعده.

لقد كانت ثورة الحسين وخروجه على يزيد، ورفضه البيعة له لسبب حاسم وخطير، ألا وهو ذلك المنعطف والثلمة التي وجدت في دنيا الإسلام، تلك هي بدعة الحكم الوراثي وإقصاء الشورى عن الحكم.. تلك العروة التي انتقضت في الإسلام بعد الخلافة الراشدة تماماً كما تنبأ النبي بذلك، وهو يقول محذراً: لتنتقضن عرى الإسلام عروة عروة، كلما انتقضت عروة تشبث الناس بالتي تليها، أولهن نقضاً الحكم وآخرهن الصلاة( ).

وهكذا بدأت رحلة الحسين لجمع الأتباع نحو التصدي للانحراف والتصحيح والانتصار للشورى والمبادئ الكريمة، وهكذا كان استشهاده من أجل تلك المبادئ النبيلة وليس لأجل الدنيا وطلب الحكم كما يرى بعض الجهلة بسيرة الحسين ونفسه العالية وروحه الشريفة البعيدة عن كل غرض دنيوي وعرض شهواني( ).

النظرة القرآنية إلى ثورة الحسين

إن نظرة المسلم للتراث والتاريخ يمكن أن تختلف من شخص إلى آخر، ولكن ينبغي أن يكون هذا الاختلاف ضمن مفهوم القرآنية والوسطية والاعتدال والتعايش البناء، فيكون عند ذلك اختلاف تنوع وتكامل لا اختلاف تضاد وتنافر، ولا يمكن لنا أن نعيش حالة الوحدة والتكامل والتنوع في نظرتنا إلى تراثنا الإسلامي، لاسيما النظرة إلى رجال الإسلام الأوائل، إلا إذا استبعدنا المستحدثات التكفيرية والركام الأسود الخرافي الذي وضعه الأعداء في تراثنا منذ العصر العباسي حتى اليوم، فنتبع آلية تصحيح وتنقية وفق المعايير القرآنية والأخلاقية والعلمية وصولاً إلى الوحدة والأخوة

الإسلامية، ولعل في النظرة الهادفة المعتدلة إلى سيرة الحسين وثورته نموذجاً رائعاً لتصحيح النظرة للتراث عموماً والى تراث التصدي للباطل والانحراف بشكل أخص، فلا ينبغي للمسلم أن ينظر إلى ابن بنت رسول الله على انه خارج على السلطان والخليفة( ) لاسيما أن يزيد كان مفروضاً من قبل أهل الحل والعقد من أبناء أهل البيت والصحابة في عهده وعلى رأسهم عبد الرحمن بن أبي بكر وعبد الله بن عمر وعبد الله بن عباس وعبد الله بن الزبير فضلاً عن الحسين ومحمد بن الحنفية، كما اثبت التاريخ والأحداث فيما بعد صدق نظرة هؤلاء في معارضتهم لتوليته بعد وقعة الطف، التي قتل فيها سبعين رجلاً من أهل بيت الحسين وأنصاره فبعد عامين من وقعة الطف التي استهل يزيد حكمه بها وذلك سنة 61هـ، وقعت معركة أخرى قرب المدينة المنورة هي وقعة الحرّة، التي قتل فيها حوالي سبعمائة رجل من أبناء الصحابة من المهاجرين والأنصار، واستبيحت المدينة ثم حوصرت مكة وضربت بالمنجنيق من قبل جيش الشام الذي أرسله يزيد، ولم تتوقف تلك الكوارث والفتن إلا بوفاة يزيد وانتهاء حكمه.. ولذلك فقد اجمع علماء المسلمين على ظلم يزيد وفسقه وذلك بعد ظلمه لأهل البيت والصحابة واستباحته مقدسات المسلمين في مكة والمدينة. لذلك نجد الإمام ابن تيميه يقول في فتاويه( ) عن دور يزيد ما يأتي: وهذا من العدوان والظلم الذي فعل بأمره ولهذا كان الذي عليه معتقد أهل السنة وأئمة الأمة، انه لا يحب ولا يسب، قال صالح بن احمد بن حنبل قلت لأبي: أن قوماً يقولون: إنهم يحبون يزيد قال: يا بني: وهل يحب يزيد أحد يؤمن بالله واليوم الآخر؟ فقلت: يا أبت! فلماذا لا تلعنه؟ قال: يا بني ومتى رأيت أباك يلعن أحداً؟ وروي عنه قيل له: أتكتب الحديث عن يزيد بن معاوية؟ فقال: لا ولا كرامة، أوليس هو الذي فعل بأهل المدينة ما فعل؟

ومع ذلك فهناك قلة ممن يجيز لعنه لأنهم يعتقدون انه فعل الظلم ما يجوز لعن فاعله.. والصواب هو ما عليه أكثر الأئمة: من انه لا يخص بمحبة ولا بلعن. (أ. هـ كلام ابن تيميه).

إن تلك النظرة المتوازنة إلى عهد يزيد والى خروج الحسين، والى تراث أهل البيت والصحابة هي النظرة التي تنسجم مع روح القرآن والهدي النبوي، ولا ينبغي لنا أن نقلل من شأن ثورة الحسين واستشهاده على أرض كربلاء ونعده قد خرج على الحكم فلقي حتفه، كما لا ينبغي أن ينظر إلى الدافع الرئيسي لتلك الثورة التي دافعت عن مبادئ الإسلام وعن مبدأ الشورى في الإسلام، وشجبت الظلم والعدوان الذي كان يخشاه الحسين من تهور يزيد كما حصل فعلاً فيما بعد في الطف والحرّة وغيرهما، فينظر إلى ثورة الحسين، انه خرج طمعاً في الحكم والسلطة لأنها ينبغي ان تكون فيه وفي ذريته، تلك النظرة أيضا فيها بخس للحسين ومنهجه ولأهل البيت ومنهج القرآن وهدي النبوة الذي تربى الحسين في كنفهما شجاعاً كريماً مخلصاً للدين وتعاليمه، ليس له من أمر الحكم والدنيا شيء، تلك هي النظرة القرآنية المتوازنة التي تليق بالحسين وبقية أهل البيت والصحابة، وفي حدود تلك النظرة لا بأس أن يختلف الناس في التفضيل والأتباع والفهم والتأويل بعيداً عن دس الأعداء والشعوبيين.

عمر والحسين وجهان لمنهج إسلامي أصيل

إن مقارنة سريعة بين استشهاد الحسين واستشهاد عمر، تعطينا تصوراً رائعاً عن جيل النبوة ومدى التكامل والتقارب بين منهج الحسين ومنهج عمر الفاروق وإنهما قد مثلا في صدر الإسلام

وجهان ناصعان للمنهج الإسلامي الأصيل، واتضح في استشهادهما دور الأعداء والغلاة والتآمر على الإسلام ورموزه، فان الأصابع الخفية التي أغرت ذلك العبد المجوسي (أبو لؤلؤة الفيروز) بقتل عمر والتخطيط لذلك الاغتيال مع الهرمزان (أحد قواد كسرى) وجفينة (من نصارى الحيرة) مع بقايا اليهود والروم، هي نفسها التي كونت تيار الغلاة فيما بعد. والذي أسهم في قتل عثمان وعلي. والذي قام بدور بارز في مراسلة الحسين واستمالته للمجيء إلى الكوفة ومن ثم التخلي عنه والانقلاب عليه، وقتله مع أهل بيته.

ولقد كان استشهاد الحسين بعد محاصرته ومنع الماء عنه في صحراء كر بلاء في عاشوراء وهو اليوم العاشر من محرم سنة 61هـ، وكذلك كان استشهاد عمر في الأول من محرم سنة 24هـ، وبعد أن طعنة الفيروز في 27هـ ذي الحجة في صلاة الفجر في المسجد النبوي في المدينة.

وإذا كان استشهاد الحسين في سبيل المبادئ وعلى رأسها الشورى وتصحيح الانحراف في مسار الحكم وشجب الحكم الوراثي ولهدم الباطل الذي أطل على المسلمين، فقد كان استشهاد عمر والتآمر على قتله ، لاغتيال رمز دولة الإسلام المتعاظمة ورمز العدل والحق الذي لم تشهد البشرية له مثيلاً، فلقد استشهد على أيدي أعداء غاضهم هذا البناء الشامخ الذي تأسس في عهد عمر.. إذ لابد لبناء الحق أن يتكامل مع هدم الباطل، ولهذا اغتال الأعداء رمز البناء لجوهر الحق ورمز الهدم لجوهر الباطل، فبقي عمر والحسين رمزين شامخين في دنيا الإسلام لابد من توافرهما وتكاملهما لإعادة بناء مجد الإسلام من جديد.. ولعل التاريخ يقدم لنا ذلك الفهم القرآني لدور عظماء الإسلام وتآمر الأعداء على الإسلام، من خلال الصلات العميقة التي كانت تربط بين أهل البيت والصحابة في مجال الجهاد والبناء والإخوة والمحبة والنسب والمصاهرة والتشابك الأصيل في حياتهم الاجتماعية والسياسية والروحية، حتى لكأن التاريخ يقدم لنا ذلك التصور القرآني في طبق من ذهب، لا يمت بصلة إلى تلك الصورة الشوهاء التي يريد أن يدسها الأعداء لفصل الرباط الروحي بيننا وبين ذلك الجيل القرآني الفريد.. ومن تلك الصور الرائعة التي تخص عمر والحسين -فضلاً عما ذكر أعلاه- صور المصاهرة التي كانت تربط الحسين بزوج أخته عمر وهي أم كلثوم بنت علي، فقد تزوجت الصحابية الجليلة عاتكة بنت زيد بن سعيد بنت عم عمر وزوجته قبل استشهاده، تزوجت من الحسين، وقد شهدت مصرعه في الطف كما شهدت مصرع زوجها السابق عمر في المسجد النبوي الشريف، وهي تذكرنا بالصحابية أسماء بنت عميس زوجة الخليفة أبي بكر الصديق التي تزوجت بعد وفاة الصديق من الإمام علي بن أبي طالب والتي كان ابنها محمد بن أبي بكر قد تربى في حضن علي بعد وفاة والده وكانت قبلها زوجة جعفر الطيار شقيق علي وقد أنجبت لهؤلاء الأفذاذ الثلاثة تلك الذرية الصالحة التي عرفها التاريخ.

وغير ذلك من الصلات والمصاهرات بين أهل البيت والصحابة( ). لقد سجل التاريخ أروع ملحمة في استشهاد الحسين وأهل بيته فقد أعلن الحسين باستشهاده انه لابد من الدماء الزكية للوقوف في وجه الباطل وهدمه لكي يتسنى إقامة دولة الحق والعدل، ومن هذه الزاوية يمكن فهم التشيع والتسنن في مفهومهما الإسلامي الأصيل فهما في الأصل وجهان لحقيقة واحدة وفرعا الشجرة المباركة مهما حاول الأعداء تزييف تلك الحقيقة وتلك الصورة الجميلة الوارفة الظلال في دنيا الإسلام والى يوم الدين.

عبد الله بن عباس

هو أبو العباس عبد الله بن عباس بن عبد المطلب بن هاشم بن عبد مناف بن قصي القرشي الهاشمي، أسلم وهو غلام وأدبه النبي ودعا له بقوله: اللهم فقهه في الدين وعلمه التأويل( )، وقال له النبي يوماً يا غلام أني أعلمك كلمات: احفظ الله يحفظك احفظ الله تجده تجاهك، وإذا سألت فاسأل الله، وإذا استعنت فاستعن بالله. واعلم أن الأمة لو اجتمعت أن ينفعوك بشيء لم ينفعوك إلا بشيء قد كتبه الله لك، وان اجتمعوا على ان يضروك بشيء لم يضروك إلا بشيء قد كتبه الله عليك، رفعت الأقلام وجفت الصحف( ).

وقد سئل ابن عباس: أنى أصبت العلم فقال: بلسان سؤول وقلب عقول. وكان عمر يدعوه للمعضلات وحوله أهل بدر من المهاجرين والأنصار فيتحدث ابن عباس بحضرتهم.

ولد ابن عباس قبل الهجرة بثلاث سنين في شعب أبي طالب وهو من أوسط أبناء العباس عم النبي ، إذ كان الفضل اكبر إخوته ثم عبيد الله والحارث وقثم، ثم عبد الله أما الذين هم اصغر منه فهم عبد الرحمن وكثير ومعبد وتمام.

كان ابن عباس حبراً عالماً فقيهاً مجتهداً من أعلام الصحابة رغم صغر سنه وكان يجلس في المسجد النبوي يوماً للفقه ويوماً للتأويل ويوماً للمغازي ويوماً للشعر ويوماً لأيام العرب وأخبارهم. وصفه ابن عمه والقائم على تربيته بعد النبي ، الإمام علي فقال: ان ابن عباس آخذ لثلاث تارك لثلاث، آخذ لقلوب الرجال إذا حدث ويحسن الاستماع إذا حدث وبأيسر الأمرين إذا خولف، وتارك المراء ومصادقة اللئام وما يعتذر منه.

كان ابن عباس ذا حافظة قوية وعقلية متوقدة واستطاع أن يقنع كثيراً من الخوارج بالرجوع عن منهجهم التكفيري المتشدد وأعادهم إلى موالاة الخليفة، حين كان أحد أبرز قواد الإمام علي وأحد عماله على الأمصار، وقد كان مستشارا أميناً له ووزيراً ناصحاً وقد كان ابرز رجال الدولة في عهد الإمام علي بعد عمار والحسن ، وكان ابن عباس كريماً واسع الجود، وكان طاهر القلب لا يحمل لأحد حقداً ولا ضغينة، فضلاً عن علمه الواسع في التفسير والفقه والحديث.

وكان حصيفاً أميناً ولاه الإمام علي البصرة ثم أصبح من المستشارين المقربين إلى الخليفة. وقد وقف من الخلاف بين علي ومعاوية موقف المؤمن الصادق، يحاول أن يقنع أهل الشام بالعدول عن معارضة الخليفة الشرعي، وإنهاء الفتنة والاقتتال بين المسلمين، وقد كان في موقفه يؤثر السلام على الحرب والرفق على الضعف.. وقد كان من خيرة علماء أهل البيت النبوي في عصر الأبناء.

ولقد أشار على الحسين بن علي بعدم الخروج إلى الكوفة، ونصحه بالتوجه إلى اليمن لان فيها شيعة أبيه المخلصين، وقال للحسين: إنما أخشى عليك غدر هؤلاء كما غدروا بأبيك وأخيك الحسن، فكان كمن يؤمن بخروج الحسين وتصديه للظلم والانحراف من أجل هدم الباطل والدفاع عن مبادئ الحق والعدل والشورى التي انتهكت في عهد يزيد، ولكنه كان يخشى غدر الأتباع قياساً لما حصل مع إمامه وابن عمه الخليفة علي ، ولما علم باستشهاد الحسين وأهله وأتباعه في الطف، بكى وحزن عليه، وتألم لغدر الذين أرسلوا بطلبه ثم تركوه فريسة أمام خصومه..

ذريته وأحفاده

أنجب عبد الله بن عباس من زوجته زرعة بنت مسرح بن معدي كرب العباس ومحمد وعبد ارحمن وعلي (وفيه العقب والخلافة العباسية) والفضل وسليط والحسين وابنته أسماء. ومن ابرز

أحفاده محمد بن علي بن عبد الله وكان فيه البيت والعدد والخلافة، وهو الذي كان ربيب أبي هاشم عبد الله بن محمد بن الحنفية، والذي أوصى إليه برئاسة الدعوة لآل البيت حين حضرته الوفاة في الحميمة، وقد تتلمذ على يديه في المدينة أيضا( ). ومع ذلك فقد استمرت الدعوة العلوية بموازاة الدعوة العباسية حتى نهاية العصر الأموي، واستمر الخطان متعاونان أبان الحكم الأموي ومطلع الحكم العباسي، ثم فرقت السياسة والتنافس على الحكم بينهما. وبعد وفاة محمد بن علي العباسي مؤسس الدعوة العباسية، ورث إبراهيم الإمام رئاسة الدعوة من أبيه، ثم عهد بها إلى أخيه أبي العباس السفاح، قبيل موته في سجن مروان بن محمد الأموي في الشام. واستطاع السفاح أن يقضي على الدولة الأموية مؤسساً الخلافة العباسية، التي أصبحت عاصمتها بغداد في عهد المنصور .

مات عبد الله بن عباس في الطائف في عهد معاوية وصلى عليه محمد بن الحنفية في جمع من الصحابة وأهل البيت وأبنائهم.

عبد الله بن الزبير

هو أبو بكر عبد الله بن الزبير بن العوام بن خويلد بن أسد بن عبد العزى بن قصي بن كلاب الاسدي القرشي وأمه أسماء بنت أبي بكر الصديق.

وهو أول مولود من المسلمين بعد الهجرة النبوية المباركة لذا فإنه يعد من صغار الصحابة وأبوه الزبير بن العوام من كبار الصحابة ومن العشرة المبشرين بالجنة، وجدته لأبيه صفية بنت عبد المطلب عمة النبي وهي من الصحابيات، إذ أدركت الإسلام وأسلمت، شارك عبد الله بن الزبير في الحياة الجهادية في عصر الخلافة الراشدة وفي الفتوح العظيمة في خراسان وطبرستان وجرجان (في المشرق) كما اشترك في فتح برقة وطرابلس وأفريقية وذلك سنة 230هـ مع الحسن والحسين وعبد الله بن عباس وعبد الله بن جعفر وغيرهم من أهل البيت والصحابة( ). كما اشترك عبد الله بن الزبير مع الحسن والحسين ومحمد بن طلحة في الدفاع عن الخليفة عثمان حينما حاصره المتمردون في الفتنة المعروفة التي أدت إلى مقتله في داره ( ). ويروي ابن سعد عن شجاعة ابن الزبير عندما كان صبياً فيقول: مرّ الخليفة عمر بن الخطاب في طريق، وكان فيه صبيان يلعبون ففر الصبيان جميعهم إلا عبد الله بن الزبير، فسأله الخليفة: لِمَ لم تفر مع الصبيان؟، فقال عبد الله: يا أمير المؤمنين لم تكن الطريق ضيقة فأوسعها لك، ولم أكن مذنباً فأخاف منك، فضحك الخليفة من قوله وتعجب لشجاعته.

خرج مع الحسين على يزيد، رافضاً البيعة له، باعتباره غير جدير بالخلافة لضعف كفاءته ووجود من هو أفضل منه من أبناء أهل البيت والصحابة، وهكذا نجد أن أهل البيت والصحابة وأبناءهم قد وقفوا بوجه الانحراف في الحكم الذي تحول من الشورى إلى الوراثة في بيعة يزيد، وقد أيد بقية أبناء الصحابة خروج الحسين وعبد الله بن الزبير، اللذان خرجا من المدينة إلى مكة لتعبئة الأنصار والمؤيدين لخروجهما، ثم خرج الحسين إلى الكوفة وبقى عبد الله بن الزبير في مكة، ليكشف يزيد عن ظلمه لأهل البيت والصحابة من خلال ما جرى في وقعتي الطف والحرة والتي راح ضحيتهما المئات من أبناء أهل البيت والصحابة، ثم أنهى يزيد حكمه المضطرب بحصار مكة المكرمة بعد وقعة الحرّة قرب المدينة وذلك سنة 64هـ، حين جاء نعي يزيد إلى جيش الشام أثناء حصاره لمكة بقيادة مسلم بن عقبة المازني.

أعلن عبد الله بن الزبير بعد وفاة يزيد ترشيح نفسه لخلافة المسلمين، وأصبح الخليفة الشرعي بعد مبايعة أهل الحجاز ثم أهل البصرة والكوفة (في العراق) ثم مصر واليمن وخراسان، كما بويع بحمص وفلسطين (بلاد الشام) أيضا وقد بايعه عبد الله بن جعفر الطيار وعبيد الله علي بن أبي طالب والضحاك بن قيس وغيرهم من أهل الحل واعقد من أهل البيت والصحابة. وهكذا كان عبد الله الخليفة الزبيري الوحيد بعد يزيد وقبل عبد الملك. واجتمع الأمر وأصبح خليفة المسلمين من سنة 65هـ إلى سنة 73هـ، حين خرج عليه عبد الملك بن مروان واستطاع أن يتغلب عليه ويقتل أخيه مصعب بن الزبير والي العراق له، في الكوفة، وان يرسل إليه الحجاج بن يوسف ليحاصره في عاصمته مكة لمدة خمسة أشهر ثم قتله وصلبه على أستار الكعبة، ولم ينزل جثته حتى سمع قولة أمه أسماء تزدريه وتحقر فعلته، وهي تقول: أما آن لهذا الفارس أن يترجل.

وبمقتل عبد الله بن الزبير انتهى الحكم الزبيري القصير، وضعف نفوذهم السياسي، وتفرغ أحفادهم للعلم والفقه وبرز منهم المحدثون والرواة أمثال عروة بن الزبير وعبد الله بن نافع وهارون بن بكار وغيرهم من الزبيريين واعتزلوا التنافس على الحكم شأن بعض أحفاد الحسين كزين العابدين والباقر والصادق، فكانوا أئمة في الفقه والعلوم الشرعية، وفي نفس الوقت نجد أن في خروج عبد الله بن الزبير مع الحسين ثم خروج عثمان بن محمد بن خالد بن الزبير مع محمد النفس الزكية الحسني، بعد ذلك وقد قتلا معاً في المدينة في عهد المنصور، ثم تكرار ذلك التحالف الزبيري العلوي في خروج الزبير بن عاصم بن المنذر بن الزبير مع حليفه العلوي عمر بن إبراهيم بن عبد الله المحض الحسين في البصرة، ما يذكرنا بما كان عليه أهل البيت والصحابة في عهد النبوة الزاهر ثم عهد الشيخين حيث كان ذلك التعاون والتطابق في المواقف والمشاركة في الغزوات الكبرى والفتوح الإسلامية كما يذكرنا بحزن الإمام علي حين جاء ابن جرموز قاتل الزبير ، يبشره بقتله لابن عمته وصاحبه ورفيقه في الجهاد، بعد انسحابه من معركة الجمل في البصرة التي أشعل نارها الغلاة والمتمردون، فتذكر الإمام علي حديث النبي في الزبير حيث قال : (قاتل ابن صفية في النار). وطرده من حضرته، وبكى على مقتل الزبير وصاحبه طلحة وحزن عليهما، وأكرم أبناءهما( ).

إن هذا التحالف الزبيري العلوي، واتفاق عبد الله بن الزبير والحسين على الوقوف في وجه يزيد، فضلاً عن التقارب والتداخل بين البيتين نسباً وطهراً وجهاداً وعلماً ورواية، ليدلل على رفعة الجيل القرآني الذي حمل رسالة الإسلام إلى شعوب الأرض ودافع عنها وبذل الغالي والنفيس في سبيل نشرها وإعلاء رايتها والمحافظة عليها نقية صافية من دنس الأعداء المتربصين، فكان جيل النبوة وأبناؤهم في صدر الإسلام أفضل أمة ظهرت في تاريخ البشرية لأنها تشرفت بنزول القرآن عليها وبصحبة نبي الهدى والرحمة المهداة . وقد رأينا إن من بين هؤلاء الأصفياء في عصر التابعين عبد الله بن الزبير وأقرانه وأصحابه من أبناء أهل البيت والصحابة، رضوان الله عليهم أجمعين..

قال تعالى: رجال صدقوا ما عاهدوا الله عليه فمنهم من قضى نحبه ومنهم من ينتظر وما بدلوا تبديلا .

عبد الله بن عمر بن الخطاب

هو أبو سالم عبد الله بن عمر بن الخطاب بن نفيل بن عبد العزى بن رياح بن عبد الله بن قرط بن رزاح بن عدي بن كعب القرشي العدوي، الفقيه المحدث الأواب، ولد بعد البعثة بثلاث سنين. وأسلم وهو صغير وهاجر مع أبيه إلى المدينة وكان عمره حين هجرته عشر سنين، ولم يجزه النبي بالاشتراك في غزوة بدر وأحد لصغره، ثم أجازه في وقعة الخندق، وشهد فتح مكة وغزوة حنين وبقية المشاهد..وشهد فتح مصر وفتح نهاوند (العراق) مع طائفة من المهاجرين والأنصار بقيادة النعمان بن مقرن المزني أمير الجيش في عهد عمر . وذهب مع جيش سفيان بن عوف الذي ذهب لغزو القسطنطينية في زمن معاوية. وبعد مقتل عثمان ووقوع الفتنة والقتال بين المسلمين آثر عبد الله بن عمر اعتزال الفتنة الوقوف على الحياد والاشتغال بالمحافظة على العلم النبوي والحديث الشريف والاعتكاف في المسجد النبوي في المدينة كسعد بن أبي وقاص وأبي هريرة وفئة كبيرة من الصحابة الكرام. وقد لزم ابن عمر البيت والمسجد وحاول جهده أن يبتعد عن الناس في تلك الفترة العصيبة. روى ابن سعد عن الحسن بن علي قال: لما كان من أمر الناس ما كان (أي طول أمد الفتنة) أتوا عبد الله بن عمر فقالوا: أنت سيد الناس وابن سيدهم، والناس بك راضون اخرج نبايعك فقال: لا والله لا يهراق بن الحكم يبايعه بالخلافة بعد موت معاوية بن يزيد فأبى ورفض الاشتراك في الفتنة وقبول الخلافة، وكان ابن عمر شجاعاً جريئاً ثابت الموقف والمبدأ.

وفي زهده وعبادته، قال طاووس: ما رأيت مصلياً كهيئة ابن عمر أشد استقبالاً للكعبة بوجهه وكفيه وقدميه. وكان إذا فاتته صلاة الجماعة صام يوماً وأحيى ليلة وأعتق رقبة، وكان لا يبالي أن يصلي في المكان الجدد والبطحاء والتراب، وكان يتبع اليوم الشديد الحر فيصومه. وكان من آثار اعتزال ابن عمر السياسة والفتن، وانقطاعه للعلم والرواية عن رسول الله والعبادة وإتباع السنن، أن انطبعت نفسه على الزهد والتقشف والجلد على العبادة والصبر على الزهد، رغم تبدل الزمان وانتشار الترف والنعيم بعد الفتوح في العصر الأموي.

ولما حضرته الوفاة في عهد عبد الملك بن مروان أمرهم أن يدفنوه ليلاً ولا يعلم الحجاج بن يوسف عامل الخليفة على العراق والحجاز، لئلا يصلي عليه، لكنه علم بموته وصلى عليه عند الردم في ضواحي مكة، ودفن بفخ (من أعمال مكة) وهو ابن ثلاث وثمانين سنة.

أبناء عبد الله بن عمر وأحفاده

كان لعبد الله بن عمر من الولد عشرة: عبد الله وسالم وعبيد الله وزيد وعاصم وحمزة وبلال وواقد وعبد العزيز، وبنته سودة، وعبد الله اكبر ولده، أمه صفية بنت أبي عبيد أخت المختار بن أبي عبيد الثقفي، الذي ثار في الكوفة وقاد التوابين واقتص من قتلة الحسين وأهل بيته. وكان عبد الله بن عبد الله من وجوه قريش وأشرافها روى الحديث عن عدد من الصحابة، أما سالم بن عبد الله فأمه أم ولد، وهو أحد فقهاء المدينة السبعة ومن سادات التابعين وعلمائهم وثقاتهم، كان زاهداً عابداً قدوة، وكان خشن العيش ويخدم نفسه، قال احمد وإسحاق: أصح الأسانيد عن الزهري عن سالم عن أبيه، روى الحديث عن أبيه وعن نافع وعن أبي هريرة، وروى عنه عبيد الله بن عبد الله بن عمر وغيره، كان شديد الشبه بجده عمر بن الخطاب، وقال مالك: لم يكن أحد في زمان سالم أشبه من مضى من الصالحين في الزهد والفضل والعيش منه. وقد شارك عبيد الله وزيد وحمزة أخويهما سالم وعبد الله في رواية الحديث وان كانوا اقل منهما شأناً ورواية. أما بنته سودة فقد كانت من

التابعيات الصالحات، تزوجها عروة بن الزبير وهو محدث معروف أيضا، وبعد وفاته تزوجها الخليفة الأموي الراشد عمر بن عبد العزيز.

وهكذا كان ابن عمر مناراً عالياً في العلم والفقه والحديث والجهاد في سبيل الله، نقلت عن طريقه وطريق أبنائه مساحة واسعة من الحكمة والهدى النبوي الشريف فضلاً عن علوم القرآن والسيرة العطرة فجزاه الله عن المسلمين خير الجزاء وجمعنا معه في جنات النعيم آمين.

قال تعالى: والسابقون الأولون من المهاجرين والأنصار والذين اتبعوهم بإحسان رضي الله عنهم ورضوا عنه وأعد لهم جنات تجري تحتها الأنهار خالدين فيها أبداً ذلك الفوز العظيم

أبان بن عثمان بن عفان

هو أبو سعيد أبان بن عثمان بن عفان بن أبي العاص بن أمية بن عبد شمس بن عبد مناف بن قصي القرشي الأموي، أمه أم عمرو بنت جندب بن عمرو الدوسية، ولد في عهد عمر ، ولي المدينة المنورة في عهد عبد الملك بن مروان سبع سنين، وتوفي في ولايته جابر بن عبد الله ومحمد بن الحنفية فصلى عليهما بالمدينة وهو وال، ثم عزله عبد الملك وولى مكانه هشام بن سعيد المخزومي، وروى أبان عن أبيه عثمان، وكان ثقة ثبت وله أحاديث، وكان عالماً بالحديث والفقه والسيرة، وهو أول من قام بتدوين السيرة النبوية في عصر التابعين( )، توفي في خلافة يزيد بن عبد الملك سنة 103هـ. تزوج أبان بن عثمان أم كلثوم بنت جعفر الطيار بن أبي طالب، ولعمق الصلة بين عثمان وبين علي رضي الله عنهما، تزوج ابن أخيه عبد الله بن عمرو بن عثمان من فاطمة بنت الحسين بن علي، وتزوج ابن أخيه الآخر زيد بن عمر بن عثمان من سكينة بنت الحسين بن علي، وهكذا تشير تلك الأواصر الطيبة في النسب والمصاهرة بين هذين البيتين الكريمين وبقية بيوت أهل البيت والصحابة –فضلاً عن أواصر الأخوة والمحبة والجهاد المشترك في صدر الإسلام- على خيرية هذا الجيل الذي قال عنه تعالى:

كنتم خير أمة أخرجت للناس تؤمنون بالمعروف وتنهون عن المنكر وتؤمنون بالله.. .

وكان أبان بن عثمان بن عفان بعلمه وجهاده ودوره في تدوين السيرة النبوية ورواية الحديث الشريف من تلك الأمة التي كانت خير أمة أخرجت للناس، لأنها تربت على مائدة القرآن والهدي النبوي الشريف، باقية على العهد، قدوة لباقي الأمم على مدار التاريخ حتى تقوم الساعة، ولا يشك في هذه الحقيقة القرآنية إلا منافق أو مرتاب أو عدو لدين الله وجيل النبوة وما كيد الأعداء إلا في ضلال.

عبد الله بن جعفر الطيار

هو عبد الله بن جعفر بن أبي طالب، ولد بأرض الحبشة حين هاجر إليها أبوه وأمه أسماء بنت عميس، وأبواه من السابقين إلى الإسلام إذ اسلما قبل أن يدخل رسول الله دار الأرقم ويدعو فيها، وكان أبوه جعفر الطيار أمير المهاجرين في الحبشة. وحين عاد من الحبشة إلى المدينة بعد

خيبر فرح به رسول الله وقال: بأيهما أفرح بفتح خيبر أم بقدوم جعفر، وأرسله رسول الله في جيش إلى الروم شمال الجزيرة فقتل في معركة مؤته.

وعن عبد الله بن جعفر قال: بعث رسول الله جيشاً واستعمل عليهم زيد بن حارثة وقال: إن قتل زيد فأميركم جعفر بن أبي طالب، فان قتل جعفر فأميركم عبد الله بن رواحة، فقتل الثلاثة تباعاً، ثم أخذ الراية خالد بن الوليد ففتح الله عليه..يقول : ثم جاءت أمنا فذكرت تيمنا وجعلت تشتكي لرسول الله فقال: آلعيلة تخافين عليهم وأنا وليهم في الدنيا والآخرة؟( ).

كان عبد الله بن جعفر الطيار أخاً لمحمد بن أبي بكر ويحيى بن علي بن أبي طالب من جهة الأم، حيث كانت أمهم أسماء بنت عميس قد تزوجت بعد جعفر من أبي بكر ثم بعد الصديق من علي بن أبي طالب جميعاً.

تزوج عبد الله بن جعفر الطيار زينب بنت علي بن أبي طالب، وأنجب منها أولاده: عوف ومحمد وعلي وقد قتلوا مع الحسين في الطف، كما تزوج بعد وفاة زينب أختها أم كلثوم بنت علي التي كانت عند عمر بن الخطاب قبل استشهاده، وتزوج ليلى بنت مسعود التميمي وأنجب منها أبو بكر وعون الأصغر وعبيد الله ومعاوية، وكان عبد الله بن معاوية قد خرج في أواخر العهد الأموي، واستطاع أن يخضع جزء من خراسان لنفوذه ويستقل عن الدولة الأموية، لولا أن اصطدم بقائد الدعوة العباسية في خراسان (أبي مسلم الخراساني) فهزم جيشه وقتله.

أما ابنته أم كلثوم بنت عبد الله بن جعفر وأمها زينب بنت علي، فقد تزوجها عبد الملك بن مروان وبعد وفاته تزوجها علي بن عبد الله بن عباس بن عبد المطلب، وأنجبت له أم حبيب وعبد الله عم الخليفة السفاح والخليفة المنصور، وإبراهيم الإمام الذي مهد لظهور الدولة العباسية.

كان عبد الله بن جعفر الطيار أحد أبناء أهل البيت والصحابة الذين اتصفوا بالحلم والحكمة وحب السلام وتوحيد الصفوف والابتعاد عن الفتن والصراعات والحروب، فاعتزل الفتن التي حدثت في مطلع العصر الأموي، كما انه شارك في المعارك الجهادية والفتوح في عهد عثمان ثم معاوية بعده، وكان عبد الله بن جعفر من الناصحين للخلفاء والولاة والعلماء.. فقد كان يفد معاوية في الشام مع الحسن والحسين، وكان لعبد الله بن جعفر على معاوية في كل سنة مائة ألف درهماً، ووفد مرة على معاوية الحسن والحسين، فأجازهما على الفور بمائتي ألف درهم وقال لهما: ما أجاز بهما أحد قبلي فقال له الحسين: ولم تعط أحداً أفضل منا. وفي مرة قال معاوية لابنه يزيد: إن لي خليلاً من أهل الكوفة فأكرمه، قال: ومن هو. قال: عبد الله بن جعفر بن أبي طالب، فلما وفد بعد موت معاوية على يزيد اضعف جائزته التي كان معاوية يعطيه إياها( ).

وهكذا كانت صلة عبد الله بن جعفر بالأمويين صلة ود ونصيحة، ثم كانت نفس الصلة مع الزبيريين في خلافة عبد الله بن الزبير، أما صلته بالعلويين فكانت تجمع بين الود والرحم فكلاهما من الطالبيين، وقد شارك عبد الله بن جعفر الحسين خروجه وأيده وأرسل معه أولاده الذين استشهدوا مع الحسين في كربلاء. ومنهم عون وعباس وعلي أبناء أخته زينب بنت علي التي كان لها دور مهم في خروج الحسين ونقل خبر استشهاده، ولشدة محبة عبد الله بن جعفر لبني عمه العلويين، تزوج أم كلثوم بنت علي بعد وفاة أختها زينب، ويروي ابن سعد عن أم كلثوم بنت علي إنها تزوجت بعد استشهاد زوجها عمر من أبناء جعفر الثلاثة تباعاً، فتزوجت عون بن جعفر ثم توفي، فخلف عليها محمد بن جعفر فتوفي عنها، فخلف عليها أخوة عبد الله بن جعفر بعد أختها

زينب فقالت أم كلثوم: إني لأستحي من أسماء بنت عميس، إن ابنيها ماتا عندي واني لأتخوف على هذا الثالث فهلكت عنده ولم تلد لأحد منهم شيئاً..

توفي عبد الله بن جعفر في عهد الملك بن مروان سنة 78هـ، عن عمر جاوز الثمانين.. وكانت حياته حافلة بالأمجاد والأعمال الكريمة والجهاد في سبيل الله، شأن أقرانه من أبناء أهل البيت والصحابة، الذين أكملوا دور الصحابة في بناء مجد الإسلام وحضارة القرآن.. وكان جيلهم هو الجيل القدوة لباقي الأجيال إلى يوم الدين.

قال تعالى: لا يستوي منكم من أنفق من قبل الفتح وقاتل أولئك أعظم درجة من الذين أنفقوا من بعد وقاتلوا وكلاً وعد الله الحسنى والله بما تعملون خبير

الإمام زيد بن علي

هو أبو الحسين زيد بن علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب أمه ام ولد اسمها حيدان من السند، كان زيد فقيهاً محدثاً ومجاهداً صابراً وهو أشجع أهل بيته بعد جده سيد الشهداء الحسين ، سمع زيد من أبيه زين العابدين، وروى عن ابن عياش وابن الحارث وغيرهم، وروى عنه بسام الصيرفي وابن أبي الزناد وأبو حنيفة وغيرهم. وقد تربى في أحضان آبائه في بيت النبوة في المدينة المنورة، وبعد وفاة أبيه زين العابدين بن الحسين رباه أخوه الأكبر محمد الباقر، وقد لزمه زيد يأخذ عنه كافة علوم الدين، حتى توفي سنة 118هـ. ومن شيوخه أيضا أبان بن عثمان بن عفان. فقد روى عنه الحديث. وكان عمر زيد يقارب عمر ابن أخيه جعفر الصادق( ) فتصاحبا منذ الطفولة حتى آخر عمره، إذ أنهما كانا في بيت واحد وبلد واحد هو المدينة المنورة. ولم يتتلمذ أحدهما على الآخر، وكان بينهما من الإخوة والود ما بين الإخوة الأشقاء أو ما بين الرجل وعمه وقرينه. وقد التقى الإمام زيد بواصل بن عطاء رأس المعتزلة في البصرة قبيل خروجه على هشام بن عبد الملك، وأثناء أعداده للخروج، وقد تذاكر معه حول بعض المسائل الفقهية والفلسفية إلا انه لم يتأثر بواصل أو بالمعتزلة كما يظن، لأنه كان آنذاك قد جاوز الأربعين وجاء ثائراً إلى العراق، فلم يكن بوسع المعتزلة أن يؤثروا فيه، إلا ما كان اتفاقاً على الحق، ولم يصح انه تتلمذ على يد واصل بن عطاء أو عمرو بي عبيد وهما من قادة المعتزلة عند ظهورهم في البصرة، وإنما ذكر ذلك بعض المعتزلة( ) وتبعهم من جاء بعدهم جهلاً بترجمة هذا العالم المجاهد العظيم( ).

ثورة زيد بن علي وخروجه في الكوفة

قرر الإمام زيد بن علي الثورة على الأمويين والخروج على خلافة هشام بن عبد الملك لما كان في سيرة هشام في الحكم البعيدة عن الحق والعدل والشورى وتماديه في اضطهاد خصومه ومنافسيه ومنهم العلويين، وثأراً لجده وأهل بيته الذين قتلوا ظلماً وعدواناً، فخرج من المدينة إلى البصرة، وأخذ يعد العدة لخروجه بعد أن استماله أهل الكوفة والبصرة وحرضوه للثورة على هشام وحكمه.

وقال زيد لأتباعه عن سبب خروجه: أن هؤلاء ظالمون لي ولكم ولأنفسهم. ويروي ابن سعد عن عبد الله بن جعفر الطيار قال: دخل زيد بن علي على هشام بن عد الملك فتجهمه واسمعه كلاماً شديداً، فخرج زيد من عند هشام وهو يأخذ شاربه بيده ويقول: ما أحب الحياة أحد قط ألا ذل. ثم مضى فكان وجهه إلى الكوفة (بعد مروره بالبصرة) فخرج بها، وكان يوسف بن عمر الثقفي عامل

الكوفة لهشام. فاقتتلوا وتفرق عن زيد من خرج معه، ثم قتل وصلب في الكوفة، وذلك سنة 122هـ، وكان له يوم استشهد 44 سنة، ثم خرج بعده ابنه يحيى بن زيد في خراسان فقتل أيضا، قتله مسلم بن أحوز، وأم يحيى هي ريطة بنت أبي هاشم عبد الله بن محمد بن الحنفية. ولزيد من الأولاد عدا يحيى، عيسى وحسين ومحمد وهم لام ولد. ولقد كان من أتباعه في خروجه العديد من الأئمة والعلماء، منهم الإمام مالك والإمام أبو حنيفة، وفي زيد قال أبو حنيفة: لولا السنتان لهلك النعمان، حيث التقاه في البصرة والكوفة أثناء قيامه وكان من أنصاره ومؤيديه، مما اضطره إلى الهرب إلى الحجاز بعد استشهاد زيد. لقد كانت ثورة زيد على الأمويين( ) قد مهدت للدعوة لآل البيت التي استثمرها العباسيون، فنجحوا في القضاء على الحكم الأموي بعد عشر سنوات من استشهاد الإمام زيد بن علي وابنه يحيى.

الإمام زيد ومنهجه الوسط

الإمام زيد هو صاحب المذهب الزيدي الأمامي الذي انتشر بين أتباع الإمام زيد في اليمن والبصرة والكوفة، ويتصف فكره ومنهجه بالوسطية والاعتدال وعدم التطرف، وهو أول مذاهب أهل البيت نشوءً وأقربهم زمناً إلى عصر النبوة ثم تلاه المذهب الإسماعيلي ثم الاثنا عشري في العصر العباسي الثاني وما تلاه، ونظراً لخصاله تلك، فقد عده بعض العلماء من مذاهب الجمهور لاسيما ذلك التقارب الكبير بين المذهب الزيدي والمذهب الحنفي والصلة الحميمة التي تجمع بين الإمام زيد وابن أخيه الإمام الصادق صاحب المذهب الجعفري والإمام مالك صاحب المذهب المالكي، فلم يصب المذهب الزيدي ما أصاب بقية مذاهب الأمامية من العزلة والافتراق عن بقية مذاهب الجمهور بفعل الغلاة والباطنيين ودورهم المغالي في الكوفة وخراسان، مما مهد للفراق والخصومة التي ابتدأت منذ العصر البويهي وحتى العصر الصفوي وما بعده.

لقد امتاز المنهج الزيدي بملامح عديدة أضفت عليه صفات الاعتدال والوحدة والثورة والانفتاح على بقية المذاهب، وأهم تلك الملامح والخصال هو اهتمامه بتراث أهل البيت والصحابة معاً، وإنكار سب الشيخين وبقية الخلفاء الراشدين وحسن الظن بجيل الصحابة عموما ومبدأ جواز إمامة المفضول بوجود الفاضل. وبذلك تكون خلافة أبي بكر وعمر وعثمان صحيحة عندهم مع وجود الأفضل بينهم وهو علي -حسب رأيهم- وفي ذلك يروي الميرزا شيبهر صاحب كتاب ناسخ التواريخ( ): أن أناساً من رؤساء الكوفة وأشرافها الذين بايعوا زيدا حضروا يوماً عنده وقالوا له: رحمك الله ماذا تقول في حق أبي بكر وعمر؟ قال: ما أقول فيهما إلا خيرا.. كما لم أسمع فيهما من أهل بيتي إلا خيرا. ما ظلمانا ولا أحداً غيرنا، وعملا بكتاب الله وسنة رسوله. ويقول: لما سمع أهل الكوفة منه هذه المقالة رفضوه، ومالوا إلى أخيه الباقر، فقال زيد: رفضونا اليوم، ولذلك سميت هذه الجماعة بالرافضة في مقابل من بايعه وجاهدوا معه وهم الزيدية، ويقول زيد بن علي في قضية فدك: وأيم الله لو رجع الأمر إلي لقضيت فيه بقضاء أبي بكر( ). وقد روى الأمامية في مصادرهم فضل أبي بكر وعمر، فقد روى البلخي عن شريك قوله: والله لقد رقى هذه الأعواد (المنبر) علي فقال: ألا أن خير هذه الأمة بعد نبيها أبو بكر وعمر. فكيف نرد قوله وكيف نكذبه( ). وغير ذلك من الروايات والأخبار التي تؤيد ما ذهب إليه الزيدية من الإقرار بشرعية خلافه وإمامة الشيخين. كما إن الزيدية –عدا فرقة الجارودية الغلاة- لا يقرون مبدأ النص في الإمامة، وما تبعه من عقائد العصمة وعلم الغيب والمعاجز التي تسند إلى بعض الأئمة( )، ولا يعتقد الزيدية أن هناك نصاً يوجب إمامة علي ، بل هي القناعة والاعتقاد بأفضلية علي على بعض الصحابة، ويرى الإمام

زيد الذي ضحى بنفسه من أجل مبدأ الشورى: أن الأمر شورى، وان البيعة الشرعية انعقدت بإجماع الصحابة على خلافة أبي بكر ثم عمر ثم عثمان ثم علي، ويعتقدون بتواتر تدوين القرآن الكريم وصحته المطلقة ويعتقدون بصحة كتب الحديث لدى الجمهور وأصول علم الجرح والتعديل التي اتبعت في جمع وتدوين الأحاديث النبوية. وكان الإمام زيد يقول: الإمام من أهل البيت من حمل السيف وجاهد الظلم واختاره المسلمون شورى بينهم.

بسبب تلك الأصول والقناعات والخصال تداخل تراث الزيدية مع تراث الجمهور وأصبح علماء الزيدية علماء الجمهور والعكس صحيح أيضاً، وبقي الفرق محدوداً وفي أمور فرعية، كالفرق بين مذاهب الجمهور نفسها، يضاف له مسألة التفاضل بين الخلفاء الراشدين وأتباع الإمام زيد والأئمة من ذريته وأحفاده، وبينما كان بقية مذاهب الأمامية منشغلون بالنص وأي الأئمة ينطبق عليه النص من ذرية الحسين . حسم الزيدية ذلك الأمر بأن جعلوا الإمام، هو القائم المجاهد من أهل البيت الذي يرفع السيف ويخرج على السلطان الجائر، وجعلوا الخروج بالسيف والنسب الفاطمي هما صفتي الإمام الواجب أتباعه، ولذلك أيدوا الإمام محمد النفس الزكية الحسني وجعلوه أمامهم عند خروجه على الخليفة المنصور، بالرغم من كونه حسنياً وليس حسينياً من ذرية زيد بن علي، وهذا فقه شرعي وثوري لمعنى الإمام والإمامة في الإسلام يرتقي إليه أتباع الإمام زيد لم يسبقهم إليه أحد من الفرق والمذاهب الإسلامية في صدر الإسلام.

وكان ذلك التقارب والتداخل بين الجمهور والزيدية بفضل منهج الاعتدال والوسطية ومنهج الثورة والوحدة عند هذا الإمام العلوي الفاطمي المجاهد وأتباعه.. وانه من الحق أن نقول ان المذهب الزيدي قد سار معتنقوه في ذلك إلى مدى بعيد. ذلك بأنهم اقتبسوا من مذاهب الأمصار والتقوا منذ القدم بمذاهب الجمهور، واعتبروا صحاح السنة صحاحاً معتبرة عندهم، وبذلك زالت الوحشة بينهم وبين الجمهور والتقوا على مائدة كريمة هي تعاليم القرآن الكريم وسنة رسوله والكرام السالفين من آل البيت والصحابة وأبنائهم( ). ولعل من أهم أسباب هذا التقارب هو منهج الإمام زيد الوسطي وقرب عهده بعهد النبوة.

أحفاد الإمام زيد بن علي

من أحفاد الإمام زيد بن علي أئمة اليمن الزيدية، الذين أقاموا الدولة الزيدية في اليمن والتي استمرت قرون ومن أحفاده علي بن احمد بن عيسى بن زيد أمير البصرة قبل احتلالها من قبل صاحب ثورة الزنج، فخرج عليه، ومنهم صاحب السرايا محمد بن جعفر بن محمد بن زيد، والشاعر الكوفي المعروف بالحماني وهو علي بن محمد بن جعفر ابن محمد بن زيد، ومنهم ميمونة بنت الحسين بن زيد تزوجها الخليفة المهدي العباسي ومنهم نقيب الأشراف في الكوفة أحمد بن عمر بن يحيى بن زيد، وكانت رياستهم من قبل السلطان ببغداد، ومنهم محمد الفران وأخوه يحيى بن عمر القائم بالكوفة أيام المستعين العباسي. وقتل فيها وكان فاضلاً مالكي المذهب حسن القول في جميع الصحابة وغيرهم من الأحفاد البررة من نسل زيد بن علي العلوي نسباً الكوفي استشهاداً وثورةً القرآني فكراً ومنهجاً.

رحم الله الإمام زيد الذي كان رمزاً للوحدة والوسطية والاعتدال، ومشروعاً للتضحية والجهاد والثورة على الباطل والانحراف لإرساء قواعد العدل والشورى في أمة الإسلام.

عمر بن عبد العزيز الخليفة الراشد

هو أبو حفص عمر بن عبد العزيز بن مروان الخليفة الأموي الراشد، قال سفيان الثوري: الخلفاء خمسة: أبو بكر وعمر وعثمان وعلي وعمر بن عبد العزيز( ). وأمه أم عاصم فاطمة بنت عمر بن الخطاب. ولد بحلوان قرية بمصر، وكان أبوه أميراً عليها سنة 61هـ. ويروى أن الناقص والأشج أعدلا بني مروان. والناقص يزيد بن الوليد والاشج عمر ابن عبد العزيز كان بوجهه شجة ضربته دابة وهو غلام.

وكان عمر من المحدثين روى عن أبيه وانس بن مالك وعبد الله بن جعفر الطيار وسعيد بن المسيب وعروة بن الزبير وطائفة، وروى عنه الزهري وابن المنكدر وعبيد الله ابن عبد الله بن عمر، فلما توفي أبوه طلبه عمه عبد الملك إلى دمشق وزوجه بنته فاطمة، ولما ولي الوليد الخلافة، أمر عمر على المدينة. وسئل الإمام محمد الباقر عن عمر بن عبد العزيز فقال: هو نجيب بني أمية وانه يبعث يوم القيامة أمة وحده. وقال ميمون بن مهران: كان العلماء مع عمر بن عبد العزيز تلامذة. قال عمر بن عبد العزيز: عندما كنت غضاً وفي نعمة وعافية وترف، تمنيت تمام النعمة بالإمارة، فأصبحت أمير المدينة، ثم أحببت لو تزوجت بنت الخليفة فزوجني عبد الملك من بنته وأسكنني معه في القصر ثم تمنيت أن أكون خليفة المسلمين، والآن قد تاقت نفسي إلى الجنة، فأرجو من الله أن لا يحرمني منها.. فمات بعد أمنيته تلك بأيام.

خلافة عمر بن عبد العزيز

بويع لعمر بن عبد العزيز بالخلافة بعهد من سليمان بن عبد الملك سنة 99هـ فمكث نفس مدة أبي بكر الصديق سنتان ونصف، فملأ الأرض فيها عدلاً، ورد المظالم. وسن السنن الحسنة، وكان أهل العلم يعدونه مهدي الأمويين والمجدد للقرن الثاني الهجري. قال الحسن البصري: إن كان مهدي فعمر بن عبد العزيز وإلا فلا مهدي إلا عيسى بن مريم. وقال مالك بن دينار : الناس يقولون مالك زاهد، إنما الزاهد عمر بن عبد العزيز الذي أتته الدنيا فتركها، وقال: ولده عبد العزيز بن عمر: سألني أبو جعفر المنصور: كم كانت غلة أبيك حين أفضت الخلافة إليه؟ قلت: أربعين ألف دينار، قال: فكم كانت حين توفي؟ قلت: أربعمائة دينار، ولو بقيت لنقصت. وعن الزهري قال: كتب عمر بن عبد العزيز إلى سالم بن عبد الله بن عمر، يكتب إليه بسيرة جده عمر في الصدقات فكتب إليه بالذي سأل، وكتب إليه: انك إن عملت بمثل عمل عمر في زمانه ورجاله في مثل زمانك ورجالك، كنت عند الله خيراً من عمر. وعن الليث قال: لما ولي عمر بدأ بلحمته وأهل بيته فأخذ ما بأيديهم وسمى أموالهم مظالم، ويروى من طرائف عدالة عمر في رد المظالم، أن رجلاً جاء بعد وفاة عمر إلى الخليفة، فقال: يا أمير المؤمنين أقطعني أخوك سليمان أرضاً فلما جاء عمر بن عبد العزيز (رحمه الله) أخذها مني، وأني أشتكي إليك بردها فلما طلب الخليفة منه أن يكرر كلامه قال نفس العبارة وترحم على عمر ولم يترحم على سليمان فقال له: انك تترحم على من أخذ منك الأرض ولا تترحم على من أعطاك إياها، وهذا دليل على خطأ أخي وصواب عمر، اذهب فليس لك عندي ما تريد إنما الأرض تعود إلى بيت المال. وقال سعيد بن سويد: صلى عمر بالناس الجمعة وعليه قميص مرقوع الجيب من بين يديه ومن خلفه فقال له رجل: يا أمير المؤمنين، إن الله قد أعطاك فلو لبست، فنكس عمر ملياً، ثم رفع رأسه فقال: إن أفضل القصد عند الجدة، وأفضل العفو عند المقدرة. وقال عمر: لو أقمت فيكم خمسين عاماً ما استكملت فيكم العدل، أني لأريد الأمر

وأخاف أن لا تحمله قلوبكم، فأخرج طمعا من الدنيا فأن أنكرت قلوبكم هذا سكنت إلى هذا. وقالت جويرية: دخلنا على فاطمة بنت علي بن أبي طالب فأثنت على عمر بن عبد العزيز وقالت: لو كان بقي لنا ما احتجنا بعد إلى أحد! وقال الاوزاعي: كان عمر إذا أراد أن يعاقب رجلاً حبسه ثلاثة أيام ثم عاقبه، كراهة أن يعجل في أول غضبه. وقال عمرو بن مهاجر: كان عمر يسرج عليه الشمعة ما كان في حوائج المسلمين، فإذا فرغ من حوائجهم أطفأها، ثم أسرج عليه سراجه. وقال ابن أبي عروبة: كان عمر إذا ذكر الموت اضطربت أوصاله، وقال جمع من بني مروان لابن عمر: قل لأبيك ان من كان قبله من الخلفاء كان يعطينا ويعرف لنا موضعنا، وان أباك قد حرمنا ما في يديه فاخبر أباه، فقال لهم: إن أبي يقول لكم: إني أخاف إن عصيت ربي عذاب يوم عظيم .. وكتب عمر بن عبد العزيز إلى أحد قضاته يحثه على العدل في القضاء، فقال له: إذا جاءك أحد الخصمين مفقوء العين فلا تحكم له، فقد يكون الثاني مفقوء العينين. أي يجب على القاضي أو الحكم أن يسمع الخصمين أو طرفي النزاع لكي يحكم بالحق والعدل.

وقال ابن قرة: ما شبهت عمر إلا برجل صناع حسن الصنعة ليس له أداة يعمل بها، يعني لا يجد من يعينه. وقال الغساني: كان عمر ينهى الخليفة سليمان عن قتل الخوارج، ويقول: ضمنهم الحبس حتى يحدثوا توبة، فأتى سليمان بخارجي فقال له سليمان: هيه، فقال الخارجي (أي المتشدد): وماذا أقول؟ يا فاسق ابن الفاسق، فقال سليمان لعمر: عزمت عليك لتخبرني ماذا ترى عليه، قال: أرى عليه أن تشتمه كما شتمك، قال: ليس الأمر كذلك، فأمر سليمان به فضربت عنقه، وأوصى عمر أحد أصحابه بابنه فقال له: علمه الفقه الأكبر، قال: وما الفقه الأكبر؟ قال: القناعة وكف الأذى وقال عمر: من عد كلامه من عمله قل كلامه( ).

وقد نهى عمر بن عبد العزيز عن سب علي . وان يعرف فضله بين الخلفاء الراشدين كما نهى عن سب الصهرين. ودعا إلى محبة جيل النبوة واحترام أهل البيت والصحابة ومن تبعهم بإحسان من العلماء والفقهاء.

ملامح الانقلاب الإسلامي في خلافة عمر بن عبد العزيز

لقد شهد عصر عمر بن عبد العزيز القصير نسبياً انقلاباً حقيقياً في كافة الموازين السياسية والعلمية والاجتماعية، فقد حاول هذا الخليفة الراشد العودة بالمسلمين إلى عصر الخلافة الراشدة وإلى تعاليم القرآن والسنة، بعيداً عن الفرقة والتحزب والاختلاف والاستبداد بالحكم، ففي أيام خلافته الأولى، أعلن أن المسلمين في حل من بيعته، وانه يدعو إلى بيعة جديدة حرة ليس فيها إجبار أو وراثة للملك كما كان سابقاً، فاختار المسلمون عمر بن عبد العزيز، لأنه خير من يمثل دولة الحق والعدل التي اتصفت بها الخلافة الراشدة، ثم أعلن سياسة رد المظالم وإعادة الحقوق إلى أهلها ومنع اغتصاب الحقوق والأراضي والأموال التي ربما حصلت في العهود التي سبقته، ثم دعا إلى المصالحة السياسية والإسلامية مع الفئات التي تنافست على الحكم قبله، وعلى رأسها الخوارج والعلويين والعباسيين والموالي وغيرهم. وأوقف الشحناء والفرقة والصراع ودعا إلى وحدة المسلمين والتفاهم حول الخلافة والعمل على نشر الإسلام في بقاع الأرض وإحياء الجهاد ومعارك الفتح الإسلامي التي توقفت بسبب الفتن والصراعات الجانبية، ودعا إلى التحاور والمجادلة بالتي هي أحسن مع بعض الفئات المتشددة من الخوارج، وقرّب أبناء عمه من العلويين والعباسيين وفي مقدمتهم محمد الباقر وابنه جعفر الصادق وإبراهيم الإمام العباسي وعبد الله المحض الحسني وابنه محمد النفس الزكية، فضلاً عن باقي الفقهاء والعلماء والمجتهدين من أبناء

أهل البيت والصحابة، لاسيما فقهاء المدينة السبعة وبقية فقهاء الأمصار. وقد شهد عهد عمر ابن عبد العزيز ازدهار العلوم والتدوين والرواية في ميادين علوم القرآن والسنة والتراجم والسير والتاريخ، فيعد عصره عصر التدوين الإسلامي وبداية تبلور المؤسسات العلمية والمدارس الفقهية مما مهد لظهور المذاهب الإسلامية وكتب الحديث والسير المعروفة في العصر العباسي. ولعل عصر الانقلاب الإسلامي الذي حدث في عصر الخليفة الراشد عمر بن العزيز يرتبط جدلياً بعصر الحسين، فقد كان هدم الباطل متلازماً مع بناء الحق في التاريخ الإسلامي، ففي عصر الخلافة الراشدة كان بناء دولة الحق والعدل في عهد عمر مرتبط بهدم باطل الردة الذي تم في عهد الصديق.

أن هذه الجدلية القرآنية التي تقوم على أساس مفهوم الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر المتكرر في القرآن الكريم، كما في قوله تعالى: ولتكن منكم أمة يدعون إلى الخير ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر وأولئك هم المفلحون . إن هذه الفكرة هي معادلة قرآنية لابد من توافرها لإعادة الدور الفاعل لحضارة القرآن في الحياة من جديد، فلابد من وقفة جهادية شجاعة في وجه الباطل كوقفة الصديق والحسين وزيد وصلاح الدين لكي تعلو راية الحق والعدل في دنيا الإسلام كما حصل في عهد العمرين وعهود أخرى كثيرة، ولابد لجوهر التشيع أن يتعانق مع جوهر التسنن، لتعود تعاليم القرآن وهدي النبوة إلى الحياة في كل زمان ومكان، كما حصل في عهد الخليفة الراشد عمر بن عبد العزيز الذي زهد بالدنيا والملك والخلافة من أجل العودة بالمسلمين إلى عهد الخلافة الراشدة وأنوارها الزكية فكانت حياته القصيرة مثلاً يحتذى لكافة من جاء بعده من الخلفاء والحكام الذين يطمحون بإعادة حكم القرآن على الأرض، وسيبقى ذلك الأثر الرباني العجيب نبراساً لنا إلى يوم الدين.

توفي عمر بن عبد العزيز سنة 101هـ، عن عمر قدره 39 سنة فحسب، قيل انه توفي بالسم، وقيل من شدة إرهاف حسه من ثقل المسؤولية، مسؤولية الخلافة وحكم بلاد المسلمين، وقد قال جده عمر قبله قولته المشهورة: والله، لو عثرت بغلة في العراق، لخشيت أن يسألني الله عنها، لِمَ لم تسوي لها الطريق يا عمر..

الهم اجعلنا من أتباع عمر والحسين، ومن محبيهما ومن أحباب أهل البيت والصحابة، وجنبنا التشدد والتفرق والعصبية، واحشرنا تحت لواء خير البرية، انك لما تشاء قدير.

سعيد بن المسيب

هو أبو محمد سعيد بن المسيب بن حزن بن وهب بن عمرو بن عائذ بن عمران بن مخزوم بن يقظة بن مرة بن كعب القرشي المخزومي، وأمه أم سعيد بنت حكيم بن أمية السلمية، ولد سعيد بن المسيب في خلافة عمر بن الخطاب سنة 16هـ.

قال الإمام مالك، بلغني أن سعيد بن المسيب قال: إن كنت لأسير الليالي وأيام في طلب الحديث الواحد، وعنه قال: ما بقي أحد أعلم بكل قضاء قضاه رسول الله ولا أبو بكر وعمر مني. وقال الزهري: أخذ سعيد بن المسيب علمه عن زيد بن ثابت وجالس سعد وابن عباس وابن عمر، وأخذ عن أزواج النبي عائشة وأم سلمة، وكان قد سمع من عثمان وعلي وصهيب ومحمد بن سلمة،

وجل روايته المسندة عن أبي هريرة وكان زوج بنته، وسمع من أصحاب عمر وعثمان، وكان يقال ابن المسيب راوية عمر، وانه اعلم الناس بقضاء عمر وعثمان، لأنه كان أحفظ الناس لأحكام القرآن وأقضية الخلفاء الراشدين. وعن قدامة الجمحي قال: كان سعيد بن المسيب يفتي وأصحاب رسول الله أحياء. وكان يقال عن سعيد، فقيه الفقهاء وعالم العلماء. وعن محمد الباقر قال: سمعت أبي زين العابدين يقول: سعيد بن المسيب أعلم الناس بما تقدمه من الآثار وأفقههم في رأيه، وعن مالك بن انس، قال: كان عمر بن عبد العزيز لا يقضي بقضاء حتى يسأل ابن المسيب: وعن عبد الله بن جعفر قال: استعمل عبد الله بن الزبير جابر بن الأسود الزهري على المدينة، فدعا الناس إلى البيعة لابن الزبير. فقال سعيد: لا حتى يجتمع الناس، فضربه بالسوط فبلغ ذلك ابن الزبير فكتب إلى جابر يلومه ويقول: ما لنا ولسعيد، دعه، وعن محمد بن عمر، قال: وكان سعيد بن المسيب من أعبر الناس للرؤيا وكان أخذ ذلك عن أسماء بنت أبي بكر، وأخذته أسماء عن أبيها الصديق وعن عبد الله بن جعفر قال: عقد عبد الملك لابنيه الوليد وسليمان بالعهد وكتب لهما بالبيعة إلى البلدان، فدعا عامل المدينة (هشام بن سعيد المخزومي) سعيد بن المسيب أن يبايع لهما فأبى وقال: حتى أنظر: فضربه هشام ستين سوطاً ثم سجنه، وكتب إلى عبد الملك يخبره بموقف ابن المسيب فكتب إليه عبد الملك يلومه فيما صنع به ويقول: سعيد كان والله أحوج إلى أن نصل رحمه من أن تضربه، وإنا لنعلم ما عند سعيد شقاق ولا خلاف. وعن عمران قال: حج عبد الملك فوقف على باب المسجد النبوي في المدينة وأرسل إلى سعيد يدعوه فأبى أن يأتيه وكرر الطلب، فقال سعيد لرسوله: إن كان يريد أن يصنع بي خيراً فهو لك، وان كان يريد غير ذلك فلا أتحرك حتى يقضي ما هو قاض، فقال عبد املك: رحم الله أبا محمد أبى إلا الصلابة.

وعن طلحة بن محمد بن سعيد عن أبيه قال: كان سعيد أيام الحرّة في المسجد لم يبايع ومن يبرح، وكان يصلي معهم الجمعة.. وكان الناس يقتتلون وينتهبون وهو في المسجد لا يبرح إلا ليلاً إلى البيت.

وعن عمران قال: كان سعيد بن المسيب لا يخاصم أحداً ولو أراد إنسان رداءه رمى به إليه. وعن علي بن زيد قال: رأيت رجلاً وجهه اسود وجلده أبيض فسألت سعيد عنه، فقال: إن هذا سب طلحة والزبير وعلياً فنهيته فأبى، فدعوت عليه وقلت: إن كنت كاذباً فسود الله وجهك، فخرجت بوجهه قرحة فاسود وجهه. وفي ذات يوم أرسل عبد الملك إلى سعيد إلى المسيب يخطب ابنته إلى ولي عهده الوليد، ولكن سعيد رفض الطلب، رفض أن يكون الوليد بن عبد الملك زوجاً لابنته، ولكنه في الغداة زوجها لتلميذ من تلاميذه ماتت زوجته من أيام، وكان فقير الحال والمال ولكنه غني النفس والعلم، انه التابعي أبو وداعة وقد تزوج الرباب بنت سعيد، فكانت رباب قد أغنته بعلمها عن علم أبيها، فتتلمذ زوجها عليها وعلى أبيها.

وقد مات سعيد بالمدينة سنة 94هـ في عهد الوليد بن عبد الملك وهو ابن ثمان وسبعين سنة. وقال أهل العلم: كان سعيد جامعاً ثقة كثير الحديث ثبتاً فقيهاً مأموناً ورعاً عالياً رفيعاً شجاعاً، وكان عالما بتعبير الرؤيا وبالأنساب من كبار التابعين امتاز موقفه السياسي بالثبات والصلابة، أيام المحن والفتن والاختلاف، فكان لا يبايع لأحد حتى يجتمع الناس عليه، كما كان يرى ابن عمر وابن الحنفية، بل ذهب أبعد من ذلك، فكان لا يبايع ظالماً ليس فيه شروط العدالة والأمارة الشرعية، ويؤمن بالشورى سبيلاً عادلاً للحكم والخلافة.

كان سعيد بن المسيب فقيه المدينة، وكان من تلاميذه عطاء بن رباح ومحمد الباقر وعمر بن دينار وابن شهاب الزهري، لم يكن ابن المسيب عالماً شأن غيره من العلماء، بل كان عالماً عاملاً. وفي خلافه مع عبد الملك، كان سعيد يمثل خلاف العالم المجاهد مع صاحب الملك والسلطان، سعيد يريد أئمة المسلمين أن يكونوا كالخلفاء الراشدين وعبد الملك يريد أن يكتفي الناس منه بالاستقامة على الشرع في كل شيء بشرط أن يتسامحوا معه فيما يتخذه من وسائل لاستبقاء الملك في أسرته، كما فعل في ولاية العهد لابنيه الوليد وسليمان فقال كلمته في وجه عبد الملك: نهى رسول الله عن بيعتين( )، وقال: لا، لهذه البيعة، وثبت سعيد على موقفه رغم الضرب والسجن والتهديد ورغم الترغيب والترهيب.. فترك ابن المسيب للأجيال تراثاً مجيداً وفلسفة في رفض الباطل والثبات على المبدأ مهما كان الثمن.. وابن المسيب هو حفيد الصحابي الجليل حزن بن أبي وهب المخزومي أما أولاده، فهم محمد وسعيد وإلياس وأم عثمان وفاختة وأم عمرو وأمهم أم حبيب بنت أبي كريم بن عامر الدوسية، ومريم بنت سعيد بن المسيب أمها أم ولد. ويرتبط نسبه بالنسب الشريف في جد النبي مرة بن كعب، كما إن جدة النبي فاطمة بنت عمرو المخزومية (زوجة عبد المطلب وأم عبد الله والد النبي) هي عمة جده الصحابي حزن بن أبي وهب بن عمرو المخزومي، وهكذا يرتبط ابن المسيب بالشجرة الطاهرة والدوحة النبوية نسباً وطهراً وعلماً وجهاداً..

إن سعيد بن المسيب هو أحد رجال الإسلام في عصر النور والربانية، عصر الصحابة والتابعين فهم جيل النبوة وبناة الإسلام.

قال تعالى: رجال لا تلهيهم تجارة ولا بيع عن ذكر الله وإقام الصلاة وإيتاء الزكاة يخافون يوماً تتقلب فيه القلوب والأبصار .

جعفر بن محمد الصادق.. مرآة عصره

هو أبو عبد الله جعفر بن محمد الباقر بن علي (زين العابدين) بن الحسين بن علي بن أبي طالب أجمعين ولد بالمدينة سنة 80هـ وفي رواية أخرى سنة 82هـ، كان عالماً فاضلاً، حكيماً فقيهاً زاهداً صادقاً عادلاً نبيلاً كريماً، وفيه سائر الفضائل والأخلاق الفاضلة ما لا تعد ولا تحصى، وكان يسمى مجتهد أهل البيت لسعة علمه وفقهه، توفي سنة 148هـ في زمن الخليفة المنصور العباسي، وكان جعفر الصادق في سن عمه زيد بن علي وفي سن أبي حنيفة النعمان بن ثابت، وكان بين هؤلاء الأقطاب الثلاثة مذاكرات ومناقشات حول المسائل العلمية، ولقد روى الإمام الصادق عن جده الإمام زين العابدين وروى عن الأئمة القاسم بن محمد بن أبي بكر، وسالم بن عبد الله بن عمر وعكرمة وعطاء بن رباح وغيرهم. كما روى عنه الإمام مالك بن انس والإمام أبو حنيفة والإمام أيوب السختاني والإمام سفيان الثوري وشعبة وغيرهم من فقهاء التابعين وتابعيهم.

وقال عنه الإمام ابن حبان: كان من سادات أهل البيت فقهاً وعلماً وفضلاً، وقال الشافعي عنه: ثقة من أشراف أهل البيت، وهو بجانب هذه المكانة من العلم والجلال بين علماء أهل السنة، هو أيضا إمام الشيعة الجعفرية ومن ابرز علماء أهل البيت عند سائر الفرق الأمامية.وهو الإمام السادس من السلسلة الذهبية لأئمة أهل البيت الكرام.

أهم الأحداث السياسية في عصر الصادق

عاش الإمام الصادق مخضرماً بين العصر الأموي والعصر العباسي وقد شهد الصراع السياسي على الحكم بين العلويين والأمويين ثم بين العباسيين والعلويين غير أنه آثر اعتزال السياسة والتفرغ للعلم وبناء مدرسته الفقهية التي سبقت ظهور المذاهب الإسلامية المعروفة ونضوج عصر التدوين (للسيرة والحديث والفقه والتاريخ).

وحين خرج الإمام زيد بن علي على الخليفة الأموي هشام بن عبد الملك سنة 125هـ، أيد الإمام الصادق عمه زيد في خروجه. ولكنه خشي عليه في الوقت ذاته يد السلطان، ومع ذلك استأذنه في الخروج معه وقال له: أنا معك يا عم، فقال زيد: إذا خرجت أنا وأنت فمن يخلفنا في أهلنا، فتخلف جعفر بأمر عمه زيد( ). فلا أصل أذن للخلاف بين الصادق وعمه زيد كما يدعيه الغلاة من أعداء الإمام زيد بن علي.

ولقد أيد حركة زيد بن علي من أئمة المذاهب، كل من الإمام أبي حنيفة، والإمام مالك بن أنس، حباً وكرامة لأهل البيت ودفاعاً عنهم وعن حقهم. وحينما جاء الإمام زيد من المدينة إلى البصرة ثم اتى الكوفة، صاحب الإمام أبو حنيفة الإمام زيد طول هذه المدة التي بلغت سنتان 120-122هـ، وفي تلك المناسبة قال الإمام أبي حنيفة: لولا السنتان لهلك النعمان، والتي فسرها البعض -خطأ- بأنها قيلت في حق الإمام الصادق، وقد أدى تأييد الإمام أبي حنيفة للأمام زيد، إلى هربه إلى الحجاز .. بعد مقتل زيد في الكوفة. حتى سقوط الدولة الأموية سنة 132هـ. عندها عاد إلى الكوفة ثم استقر في بغداد بعد إنشائها في زمن المنصور سنة 145هـ.

ولقد تكرر نفس الموقف في حركة محمد النفس الزكية الحسني سنة 145هـ، حيثما ثار على المنصور في المدينة، اذ وقف الإمامان مالك وأبو حنيفة مع الإمام محمد النفس الزكية، مما أدى إلى سجن الإمامان لمدة في بغداد، وبعدها حاول المنصور استرضاءهما فأطلق سراحهما، وطلب من الإمام أبي حنيفة أن يتولى منصب قاضي القضاة في بغداد، ولكنه رفض طلب الخليفة وآثر التفرغ للعلم والتدريس في مدرسته المعروفة في الاعظمية حتى مات، أما الإمام الصادق الذي عاش في المدينة مع بقية الفقهاء والمجتهدين وعلى رأسهم إمام دار الهجرة مالك بن أنس، كما جاء الإمام أبي حنيفة إليها بضع سنين عندما هاجر إلى المدينة في أواخر الحكم الأموي، نقول أما موقف الإمام الصادق مع الخليفة المنصور فقد كان أكثر تحفظاً وحذراً من أقرانه مالك وأبي حنيفة، فلم يشارك في حركة محمد النفس الزكية، واعتزل تلك الفتنة، فأرسل المنصور في طلبه بعد مقتل ابن عمه الإمام محمد النفس الزكية، وأخذ عليه عهداً بعدم الخروج على حكمه، وأكرمه ووصل رحمه، ولقّبه بالصادق لأنه صدق وعده وعهده بعدم الخروج على حكم أبناء عمه العباسيين ثم أذن له بالعودة إلى المدينة المنورة( )، ويروي ابن عساكر والذهبي والأصفهاني، عن عمرو بن القاسم قال: دخلت على جعفر الصادق وعنده ناس من الغلاة. فقلت: إنهم يبرؤن من عمك زيد، فقال: برأ الله ممن تبرأ منه، كان والله اقرأنا لكتاب الله وأفقهنا في دين الله وأوصلنا للرحم ما تركنا وفينا مثله.

وقال أيضا: كان والله سيدنا ما ترك فينا لدين ولا دنيا مثله.

أما حين قامت الحركة العباسية، وثار إبراهيم الإمام العباسي على مروان بن محمد (آخر الخلفاء الأمويين) فقد وقف الإمام الصادق على الحياد أيضا، ورفض المشاركة في الثورة على الأمويين

وتأييد الخراسانيين وحلفائهم العباسيين ضد الحكم الأموي، فعندما كشف الخليفة الأموي مروان خطة العباسيين في الثورة ضدهم، وقتل قائد الدعوة العباسية إبراهيم الإمام بعد سجنه، بعد أن انتدب لقيادة الحركة العباسية أخاه أبو العباس السفاح حاول أبو سلمة الخلال (أمين سر الحركة العباسية) أن يكسب ود العلويين ويحول الدعوة لآل البيت من البيت العباسي إلى البيت العلوي)، خاطب الخلال الإمام الصادق وابن عمه عبد الله المحض الحسني سراً ودعاهما لتسلم قيادة الدعوة للرضى من آل محمد ( )، لكن الإمام الصادق رفض تلك الدعوة عازفاً عن ذلك الطموح الدنيوي، مؤثراً التفرغ للعلم والعبادة والتربية والتوجيه الإسلامي، مستذكراً تلك المآسي العديدة والنكبات التي حلت بالمسلمين عموماً وبأهل البيت والعلويين بشكل خاص ودور السبأية والموالي والغلاة وأهل النفاق في تلك النكبات الأليمة، فاضطر أبو سلمة الخلال أن يتوجه إلى العباسيين ثانية ويبايع أبا العباس السفاح ليستمر أمر الثورة حتى وصول العباسيين إلى سدة احكم والقضاء على الدولة الأموية في الشام( ).

أجداد وأحفاد الإمام الصادق

يروي النوبختي والأصفهاني والاردبيلي عن الإمام الصادق انه كان يقول: ولدني أبو بكر مرتين. ذلك لأن أمه أم فروة بنت القاسم بن محمد بن أبي بكر الصديق (أي زوجة الإمام محمد الباقر)، وأمها (أي والدة أم الصادق (أم فروة)) هي أسماء بنت عبد الرحمن بن أبي بكر الصديق فلذلك نجد أن نسب الإمام الصادق يرجع إلى الصديق عن طريقين والى المرتضى علي عن طريق واحد.

وهكذا نرى إن هذا الإمام العلوي البكري، يجمع في أجداده الأقمار المنيرة ما يثلج القلوب، ويؤدي إلى جمع القلوب والأرواح والنفوس على دين واحد واله واحد ونبي واحد وكتاب واحد وتراث واحد، هو الإسلام الخالد.

فمن أجداده العظام (فضلاً عن النبي العربي الهاشمي عليه أفضل الصلاة والسلام) أبو بكر الصديق وعلي المرتضى، والحسين الشهيد، وزين العابدين وعبد الرحمن بن أبي بكر ومحمد بن أبي بكر والقاسم بن محمد بن أبي بكر (أحد فقهاء المدينة السبعة في عصر التابعين) وأخيراً أبيه الإمام محمد الباقر المجتهد الفقيه الزاهد المعروف.

أما أبناءه وأحفاده فهم كثير لا حصر لهم، نختار منهم، أبناءه السبعة: إسماعيل وعبد الله (الأفطح) وموسى الكاظم وعلي ومحمد وإسحاق وأخيراً عائشة بنت جعفر الصادق ومن أحفاده: الإمام علي بن موسى (الرضا) والإمام محمد بن علي (الجواد) والإمام علي بن محمد (الهادي) وابنه الحسن (العسكري) ومنهم العلامة الشريف المرتضى وأخيه الشريف الرضي (الشاعر) وقد كان الشريف المرتضى نقيب الأشراف العلويين ببغداد في العصر البويهي العباسي.

ومنهم السيد أحمد الرفاعي بن السيد سلطان علي صاحب الطريقة الرفاعية في الزهد والتصوف.

والى الإمام الصادق والى أبنائه تنسب الكثير من العوائل والبيوت الكريمة والشخصيات المهمة في العالم العربي والإسلامي من السلالة الحسينية الشريفة، ممن كان لهم الدور المشهود والمثل المحمود في بناء صرح حضارة القرآن، ووضع بصماتهم المنيرة على أحداث التاريخ عبر الزمن.

قبسات مضيئة من حياة الإمام الصادق

ولد الإمام الصادق ، وحفيد علي المرتضى وأبي بكر الصديق في شهر المولد النبوي الشريف إذ ولد في 17 ربيع الأول سنة 80 للهجرة في المدينة المنورة. وهي نفس السنة التي ولد فيها الإمام أبو حنيفة النعمان بن ثابت الكوفي في العراق.

وهو أبو عبد الله جعفر الصادق بن محمد الباقر بن علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب، وهذا هو نسبه من جهة أبيه، أما نسبه من جهة أمه.. فهو جعفر الصادق بن ام فروة بنت القاسم بن محمد بن أبي بكر الصديق وأمه أم فروة هي بنت أسماء بنت عبد الرحمن بن ابي بكر الصديق، لهذا كان الإمام الصادق يقول دائماً: ولدني أبو بكر مرتين، لان نسبه الشريف يرتبط بالصديق عن طريقين، ويرتبط بالمرتضى عن طريق واحد. وقد روى تلك المقولة المأثورة عنه من علماء الأمامية فضلاً عن الجمهور، كل من الكليني والنوبختي والاربلي والأصفهاني وابن عنبة، فضلاً عن المسعودي والطبري والبلاذري وغيرهم من علماء الأنساب والتاريخ والسير( ).

وهكذا نجد إن هذا الإمام العلوي البكري يضم في قائمة أجداد العظام، ما يثلج الصدور، ويدعو إلى جمع الكلمة ولم الشمل لدى المسلمين جميعاً، على مبادئ وحدة الدين والرسالة والتراث الصادق، وما يشير إلى ذلك الجيل القرآني الفريد، جيل النبوة الزاهر من الذين كان لهم السبق في بناء صرح الإسلام الخالد وحضارة القرآن العظيمة.

وفي مقدمة أجداد الصادق العظام، نبي الهدى والرحمة المهداة سيدنا محمد ، سيد الثقلين وفخر الكائنات.. وخاتم الأنبياء والمرسلين ثم جديه السابقين إلى دعوة الهادي البشير عند مطلع نورها في مكة، أبو بكر الصديق وعلي المرتضى، ثم جده الحسين سبط الرسول وابن فاطمة الزهراء البتول، وزين العابدين السجاد وعبد الرحمن بن أبي بكر وأخيه محمد بن أبي بكر، ربيب الإمام علي وواليه على مصر، وقد كان يقول لفرط حبه له: محمد ابني من ظهر أبي بكر، وكانت أمه أسماء بنت عميس قد تزوجت من الإمام علي بعد وفاة الصديق، وكانت قبل الصديق زوجة جعفر الطيار بن أبي طالب، وقد أنجبت منهم جميعاً خمسة أبناء، منهم: عبد الله بن جعفر ومحمد بن أبي بكر ويحيى بن علي ..

ومن أجداد الصادق أيضاً، القاسم بن محمد بن أبي بكر وهو احد فقهاء المدينة السبعة في عصر التابعين، وأخيراً أبيه الإمام محمد الباقر الفقيه الزاهد المعروف .

وهكذا يشاء الله أن يتوافر لهذا الإمام الجليل من النسب الشريف، وروافد العلم والحكمة، مطرزة بأنوار النبوة وهدي القرآن الكريم في ذلك المكان الطاهر المقدس في مدينة الرسول، ما جعله إماما عارفاً وشيخاً كاملاً، يمتلك ناصية العلم والحكمة، ويعتلي عرش الفقه والاجتهاد، جامعاً علم وتراث أجداده، من أهل البيت والصحابة وأبنائهم، وقد كان الإمام الصادق أعلم الناس باختلاف الآراء لدى العلماء كما وصفه قرين عصره الإمام أبو حنيفة فعده العلماء فقيه أهل البيت في عصره، ذلك العصر المنير الذي شهد تبور المدارس الفقهية والفكرية عند المسلمين حتى صار الإمام الصادق رمزاً كبيراً وسراجاً منيراً في العلم والحكمة والفلسفة وبقية علوم عصره سابقاً بعلمه الغزير وعقله الراجح أقرانه وأهل بيته..وهو صاحب المدرسة الفقهية المعروفة التي ينتمي إليها المذهب الجعفري الأمامي اليوم.

أما موالاة الإمام الصادق وأبيه الباقر للشيخين، فهي مشهورة في كتب التراث، فقد ذكر ابن أبي الحديد في شرح نهج البلاغة( ) والمجلسي في حق اليقين عن الصادق عن أبيه الباقر ، أن بعض الناس سأله عن الشيخين هل ظلماكم في حقكم شيئاً؟ فقال: لا والذي أنزل القرآن على عبده ليكون للعالمين نذيراً، ما ظلمانا من حقنا مثقال حبة من خردل، قلت: جعلت فداك، أما أتولاهما؟ قال: نعم ويحك، تولهما في الدنيا والآخرة وما يصيبك ففي عنقي.

وعن الإمام الصادق ، انه كان يأتي إلى قبرهما ويسلم عليهما وكان يتولاهما، وكان يأمر أتباعه بولايتهما أيضاً( ). ويروي الكليني أيضاً في روضة الكافي( ) عن أبي بصير، قال كنت جالساً عند أبي عبد الله . إذ دخلت علينا امرأة تدعى أم خالد، فتكلمت، فإذا هي امرأة بليغة، فسألته عنهما (أي أبي بكر وعمر رضي الله عنهما) فقال لها: توليهما، قالت: فأقول لربي إذا لقيته، انك أمرتني بولايتهما؟ قال: نعم.

يتضح من هذه الروايات وأمثالها في التراث الأمامي، مدى تمسك الإمام الصادق بولاية الشيخين وحبهما، وتوجيه أتباعه إلى توليهما ومحبتهما، كما يتضح دور الغلاة الذين كانوا يحاولون إشاعة الأفكار الفاسدة على لسان أئمة أهل البيت، وأشهرها سب الشيخين وعدم توليهما، وتأليه أئمة أهل البيت وتكفير الأمة التي تزدري غلوهم وانحرافهم، خدمة للتيار الباطني الشعوبي الخفي الذي كان مركز نشاطه منطقة الكوفة وخراسان ويتزعمه الغلاة وأهل النفاق من الموالي الذين جاءوا إلى الكوفة والبصرة بعد الفتوح الإسلامية. كما يتضح دور الإمام الصادق في التصدي الحازم لهذا التيار.. فقد روى الكشي والنجاشي والنوبختي وغيرهم من علماء الإمامية روايات كثيرة في لعن الغلاة والزنادقة الباطنيين والتحذير من دورهم الخبيث في بث عقائد الغلو والتكفير باسم الدعوة لأهل البيت، فقد روى الكشي في رجاله (ص246) قول الإمام الصادق : (اللهم العن أبا الخطاب فانه خوفني قائماً وقاعداً اللهم أذقه حر الجحيم) وأبو الخطاب هذا، أحد قادة الغلاة وكانت جماعته (الخطابية) لها دور مشبوه في الكوفة في مطلع العصر العباسي.

ويروي النوبختي براءة الإمام الباقر من الغلاة أمثال بيان بن سمعان وهشام بن الحكم، فيقول: اللهم إني أبرأ إليك من بيان بن سمعان وهشام بن الحكم( ). كما يروي الكشي عن الإمام الصادق قوله: لعن الله المغيرة بن سعيد انه كان يكذب على أبي فأذاقه الله حر الحديد. لعن الله من قال فينا مالا نقوله في أنفسنا، ولعن الله من أزالنا عن العبودية لله الذي خلقنا واليه مآبنا ومعادنا، وبيده نواصينا( ). وكان المغيرة من الموالي ومن غلاة الكوفة يدعى تأليه الإمام علي ويلعن الشيخين ثم ادعى النبوة لنفسه وقتل على ادعائها( ).

وقال الإمام الصادق : لا تقبلوا علينا حديثاً إلا ما وافق القرآن والسنة، أو تجدون معه شاهداً من أحاديثنا المتقدمة، فان المغيرة بن سعيد لعنه الله دس في كتب أصحاب أبي أحاديث لم يحدث بها أبي( ). وقال: إن كل ما كان في كتب أصحاب أبي من الغلو فذاك دسه المغيرة في كتبهم (ص 196).

ونقل المامقاني عن المغيرة بن سعيد أنه قال: قد دسست في أخباركم أخباراً كثيرة تقرب من مائة ألف حديث( )، وغيرها من الروايات التي تثبت براءة الأئمة من الغلو والعقائد الفاسدة التي دسها الغلاة، من الموالي وغيرهم، وتثبت محاربة الأئمة للغلو والشعوبية المستترة خلف أتباعهم او محبيهم.

ومسك الختام في ترجمة حياة الإمام الصادق ، نستذكر وصية الإمام الصادق المأثورة للمسلمين بقوله: إياكم والخصومة في الدين فإنها تحدث الشك وتورث النفاق.

محذراً من الخصومة والاختلاف والجدل العقيم والتقليد الأعمى وكل ما يؤدي إلى التعصب والفرقة وإلغاء دور العقل والعلم في حياة المسلمين، ذلك الذي يحاول الأعداء أن يصبغوا حياتنا به من خلال إشاعة الجهل والخرافة والنفعية وما يبثه الإعلام المعادي الفاسد في كل وقت وحين.

اللهم اجعلنا من أتباع الإمام الصادق وأجداده العظام، وممن يستمعون القول فيتبعون أحسنه، انك أنت الهادي إلى سواء السبيل.

إبراهيم الإمام العباسي

هو إبراهيم بن محمد بن علي بن عبد الله بن عباس بن عبد المطلب، تولى الإمامة ورئاسة الدعوة العباسية بعد وفاة أبيه محمد بن علي العباسي، الذي توفي في الحميمة سنة 125هـ، وقد تولى وقتئذ في الكوفة أبو سلمة الخلال منصب كبير الدعاة للدعوة بعد وفاة بكر بن ماهان سنة 127هـ، وقد حاول إبراهيم الإمام أحكام السيطرة على خراسان، فاختار لهذه المهمة أبا مسلم الخراساني، لما يتمتع به هذا الرجل من مواصفات تضمن للأمام أن يحكم قبضته على زمام الدعوة، إذ كان شديد الولاء للإمام العباسي وحده، وذو أصل غامض، وذو بطش ومكر وخديعة ليس لها مثيل، مع ذكاء حاد قل نظيره، فرأى إبراهيم الإمام أن يعده لقيادة الدعوة العباسية، فسماه عبد الرحمن وكناه بأبي مسلم، وثقفه وفقهه وأرسله إلى خراسان في عدة سفارات يحمل كتبه إلى شيعته هناك، فلما تم تعرفه على خراسان، وأصبح خبيراً بأحوالها ولى الأمر فيها.

كتب إبراهيم الإمام إلى أبي مسلم وسلمان بن كثير في خراسان، أن يظهروا الدعوة لبني العباس ويظهروا التسويد( ).

فتواعد أبو مسلم مع أتباعه من الموالين للعباسيين، وأعلنوا أمرهم يوم 25 رمضان سنة 129هـ، وابتدأت بعدها المواجهة المسلحة مع الدولة الأموية، وبدأت المعارك والحروب بين الفريقين في خراسان والعراق واستولى أبو مسلم على مرو (قصبة خراسان)، وانهزم ابن هبيرة والي العراق عند فم نهر الزاب الأكبر، وفر إلى واسط وتحصن بها إلى أن أسقطه –فيما بعد- أبو جعفر المنصور اخو الخليفة السفاح. ودخل بعدها العباسيون الكوفة واستولوا عليها، واظهر الخلال السواد وخلع الخليفة الأموي مروان، ودعا الناس إلى البيعة للرضا من آل محمد دون ان يسميه. وفي تلك الأثناء استطاع الخليفة الأموي أن يكشف أمر إبراهيم الإمام، وان يقبض عليه، ثم يقتله في سجنه، بعد استفحال أمر الدعوة العباسية، وقد ذكر المسعودي والطبري وابن قتيبة وابن الطقطقي أن نصراً بن سيار (والي الكوفة للأمويين) كتب إلى الخليفة مروان بن محمد يعلمه حال أبو مسلم الخراساني، وإظهاره الدعوة العباسية وكثرة جنده وأتباعه وانه يدعو إلى إبراهيم بن محمد العباسي.

كما قبضت الشرطة الأموية على رسول يحمل كتاب مختوم من إبراهيم الإمام إلى أبي مسلم، فأمر مروان بالقبض عليه وسجنه في حرّان، وظل إبراهيم في سجنه حتى قوي أمر أبي مسلم، فقتل حينها، وكان إبراهيم الإمام قد عهد إلى أبي العباس السفاح بالإمامة بعده، وأمره بالمسير وأهله إلى

الكوفة حتى لا يقعوا في قبضة الأمويين( ) فأخفاهم الخلال في الكوفة، حيث أراد أن يعرض الخلافة والإمامة على العلويين بدل العباسيين، فراسل ثلاث من كبار العلويين هم: عبد الله المحض بن الحسن المثنى وجعفر الصادق بن محمد الباقر وعمر الأشرف بن علي بن الحسن السبط( ) لكنهم تشككوا في الأمر ولم يقبلوا ما عرضه عليهم أبو سلمة الخلال، وربما اجتهدوا أن لا يدخلوا في صراع سياسي يصعب المحافظة فيه على المبادئ والأهداف النبيلة التي آمنوا بها، لاسيما وأن البيت العلوي قد واجه نكبات عديدة فيما سبق. فاضطر الخلال إلى كشف مخبأ السفاح وأهله وإظهاره لأتباعه ومبايعته( ).

تولى أبو العباس السفاح الخلافة بعد أن خلف أخاه إبراهيم الإمام، وندب عمه عبد الله بن علي لقتال الأمويين فهزم مروان هزيمة منكرة عند نهر الزاب الأصغر رغم بسالة مروان وشجاعته( )، ثم طورد في الموصل ثم حلب ثم دمشق ثم فلسطين قرب نهر أبي فطرس، حتى أدركه صالح بن علي العباسي في مصر عند قرية بوصير فقتله، وذلك سنة 132هـ، فكان ذلك بمثابة الإعلان الأخير عن سقوط الدولة الأموية، وبداية الدولة العباسية.

أعقب إبراهيم الإمام ولدين، هما عبد الوهاب ومحمد، ومن أحفاده إبراهيم بن محمد بن عبد الوهاب بن إبراهيم الإمام، كان قد سعى في الخلافة، فقتله المأمون. ومنهم احمد بن العباس بن محمد بن سليمان بن محمد بن إبراهيم الإمام وكان نقيب الإشراف من بني العباس، ومنهم عبد الصمد بن العباس بن محمد بن سليمان كان والي المدينة للمتوكل، وابنه إبراهيم بن عبد الصمد كان يروي الموطأ عند أبي مصعب عن الإمام مالك، وكان من الفقهاء والمحدثين على المذاهب لمالكي، وغيرهم من الذرية الصالحة من بني العباس، الذين استمر حكم دولتهم في بغداد أكثر من خمسة قرون إلى أن أسقطها المغول على يد هولاكو وذلك سنة 656هـ.

موسى بن جعفر الكاظم

هو أبو إبراهيم موسى الكاظم بن جعفر بن محمد بن علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب، أمه حميدة البربرية (أم ولد)، ولد بالأبواء بين مكة والمدينة سنة 127هـ، كان عالماً سخياً كريماً جواداً حسن الأخلاق لطيف الشمائل، طاهر الفضل والعلم، كبير القدر والشأن كثيرة العبادة، طويل السجدة، كاظماً للغيظ، من أبرز أئمة أهل البيت في عصره والعصور التي تلته، تتلمذ على يد أبيه الإمام الصادق وبقية فقهاء المدينة المنورة، استدعاه الخليفة المهدي العباسي إلى بغداد وقربه إليه، ثم حبسه فترة قصيرة، فلما كان في بعض الليالي، رأى المهدي علي بن أبي طاب وهو يقول له في الرؤيا: يا محمد (المهدي)، فهل عسيتم إن توليتم أن تفسدوا في الأرض وتقطعوا أرحامكم، فاستيقظ مذعوراً وأمر به فأخرج من السجن ليلاً فأجلسه وعانقه وأقبل عليه، وطلب منه أن يعاهده بعدم الخروج عليه ولا على أحد من أولاده، فقال: والله ما هذا شأني ولا حدثت فيه نفسي، فقال صدقت. وأمر له بهدية ثمينة، وكان يتردد على المهدي في بغداد حتى وفاته، وفي خلافة هارون الرشيد قربه إليه وكان يحج معه عشر سنوات، وكان الرشيد قد قرب البرامكة واستوزرهم، إذ إنهم أقارب أمه الفارسية الخيزران، وكان الرشيد أخا جعفر والفضل ابني يحيى بن خالد البرمكي من الرضاعة، حيث أرضعته أمهما أم الفضل معهما. وكان البرامكة فرس اعتنقوا الإسلام وتبنوا المذهب الإسماعيلي سراً، وهو المذهب الذي يدعو لإمامة إسماعيل بن جعفر الصادق أخو موسى

الكاظم، وكان الصراع بين الإسماعيلية وبقية فرق الأمامية لاسيما أتباع الإمام الكاظم شديداً ودموياً أحياناً لذلك حاول البرامكة الوشاية بالإمام الكاظم لدى الخليفة الرشيد، وإرجافه بحجة أن موسى الكاظم يريد الخروج عليه، ويطمح بالخلافة والحكم، فما زالوا به حتى استدعاه في سنة 179هـ وسجنه، وبعد مدة أرسل موسى الكاظم رسالة إلى الرشيد يقول فيها: أما بعد، يا أمير المؤمنين انه لم ينقضي عني يوم من البلاء إلا انقضى عنكم يوم من الرخاء حتى يفضي بنا ذلك إلى يوم تقضي هذه الدنيا. ويروى إن الرشيد هم مرات بإخراجه من السجن، ولكن البرامكة كانوا ينصحون بعدم إخراجه، حتى توفي في السجن في 25 رجب سنة 183هـ، وقد اختلف المؤرخون في شأن موته، هل هي موتة طبيعية أم إن البرامكة قد دسوا له في سجنه من يسمه ليتخلصوا من اكبر منافس من أئمة أهل البيت لمذهبهم الإسماعيلي، فضلاً عن الصراع القومي والدور المعادي -لبعض حديثي العهد بالإسلام من الوثنيين والمجوس- للعرب والمسلمين ولدولة الخلافة الإسلامية، وقد كشف الرشيد ذلك الخطر والدور الخفي للبرامكة فيما بعد، مما دفعه إلى إقصائهم من الوزارة وتصفيتهم وذلك سنة 187هـ. وذلك بطبيعة الحال لا يقلل من أثر الصراع السياسي العربي على السلطة بين شطري آل البيت من العلويين والعباسيين، وذلك ذلك الصراع في مقاتل العلويين والعباسيين والأمويين. وهو الأمر الذي مهد لإقصاء العرب عن السلطة ونشأت دول الطوائف والسلطنات الأعجمية على حساب دولة الخلافة، سواء في المشرق أو المغرب على حد سواء.

ويعد الإمام موسى الكاظم سابع أئمة الشيعة الأمامية وجد السادة الموسوية، فضلاً عن انه من أئمة الفقه والعلم عند الجمهور.

أولاد الإمام الكاظم وأحفاده

كان للإمام الكاظم أربعة عشر ولداً، كلهم أمهاتهم أمهات أولاد شتى، وهم: علي الرضا وزيد النار وحمزة وهارون وعبد الله والحسن والحسين وإسماعيل وإسحاق وجعفر ومحمد والعباس وعبيد الله وإبراهيم، وإبراهيم ولد في اليمن وقام بها. ومن عقب هذا الإمام الجليل، جعفر بن محمد بن إبراهيم بن محمد بن عبيد الله بن موسى الكاظم، محدث كبير مات بمكة سنة 339هـ، روى عن الترمذي والرازي وغيرهما، ومن عقبه الأمير كان وأخوه شراهيك ابنا علي بن حمزة بن موسى الكاظم، سكنوا خراسان، وبني زيد النار سكنوا البصرة، التي مات فيها زيد النار أيام المستعين العباسي. وأشهر أبنائه الإمام علي الرضا بن موسى الكاظم، وهو أحد أئمة الهدى ومصابيح الدجى، ولد في المدينة سنة 148هـ في نفس السنة التي توفي فيها جده الإمام الصادق، وقد ولاه الخليفة المأمون العهد دون أبنائه وأهله من بني العباس، وزوجه ابنته أم حبيب بنت المأمون، كما زوج ابنته الأخرى أما الفضل إلى محمد الجواد بن علي الرضا، مات سنة 203هـ ودفن بطوس في خراسان، دفنه المأمون مع أبيه الرشيد في قبر واحد، كما توفي محمد الجواد بن علي الرضا سنة 220هـ، ودفن في بغداد في ناحية الكاظمية قرب جده الإمام موسى الكاظم، وأمه أم ولد أيضاً، اسمها سكن، وله ولدان هما موسى وعلي الهادي، وقد استدعى الخليفة المتوكل الإمام علي الهادي مع بنيه إلى سامراء عاصمة الخلافة، فوفد على الخليفة المتوكل من المدينة، وقد أكرمهم وأسكنهم بالقرب منه. وللهادي والعسكري قبر يزار في سامراء. وللإمام موسى الكاظم وذريته مكانة خاصة في قلوب المسلمين إلى اليوم وقد شكلوا عبر الزمن بيوت وقبائل كثيرة، وانتشروا في العديد من الأمصار والمدن في العالم العربي والإسلامي.

الشيخ عبد القادر الجيلاني

هو شيخ الإسلام محي الدين أبو صالح السيد الشيخ عبد القادر الجيلاني بن أبي صالح موسى (الجنكي دوست أي صاحبه الحرب) بن عبد الله الجيلي بن يحيى الزاهد بن محمد بن داود بن عبد الله الصالح (أبو الكرام) بن موسى الجون بن عبد الله المحض العلوي الحسني، ويعرف بالجيلاني نسبة إلى مكان ولادته في منطقة جيلان في أفغانستان، وأمه فاطمة بنت أبي عبد الله الصومعي الحسيني العلوي، فيلتقي نسبه العلوي في فرعي الشجرة الحسنية والحسينية..

وكان الشيخ عبد القادر الجيلاني إمام الفقهاء والعلماء في بغداد، وهو شيخ الحنابلة والمتصوفة في عصره. وكان ممن جمع العلم والعمل، أفتى ودرس ووعظ سنين وكان محققاً صاحب بيان وكان شاعراً في مقدمة شعراء الصوفية، اشتهر ذكره في الشرق والغرب، ذكره ابن الجوزي في المنتظم، وقال درس بمدرسة المخرمي القاضي أبي سعيد المبارك بن علي المخرمي ففوضت مدرسته إلى الشيخ عبد القادر، فتكلم على الناس بلسان الوعظ وظهر له صيت بالزهد، وضاقت المدرسة بالناس ، وكان يجلس عند سور بغداد مستنداً إلى الرباط، وتاب عنده في المجلس خلق كثير، فعمرت المدرسة ووسعت وتعصب له العوام وأقام في مدرسته في بغداد، إلى أن توفي سنة 561هـ ودفن بها. عن عمر جاوز التسعين، حيث كانت ولادته سنة 470هـ. وذكره الذهبي ، فقال: قدم عبد القادر الجيلي بغداد سنة 488هـ وعمره 18 سنة، وكان الخليفة ببغداد آنذاك المستظهر بالله العباسي، وقد أكمل مدرسته سنة 258هـ، وهو أمام الحنابلة والمدرسة السلفية، وإمام أهل التصوف والطريقة رغم التناقض الظاهر بين المنهجين اليوم، مما يوحي أن هذا التناقض بين المنهج السلفي والمنهج الصوفي يختفي حين يتبناه رجل رباني ومجدد إسلامي يستطيع أن يجمع المشارب والأذواق ويذيب الفرق والمناهج المختلفة في بوتقة الإسلام العظيم، وتعاليم الوحي الخالد ممثلاً في القرآن والسنة كما فعل الشيخ عبد القادر في زمنه، فتبعت منهجه جميع الفرق والمذاهب بدون استثناء. بل لقد كان هذا العالم الرباني داعية جهاد وتصدي ضد الانحراف والفساد في عاصمة الخلافة بغداد في الداخل، وعلى الثغور ومناطق جهاد الغزو الصليبي في بلاد الشام ومصر، وكان على صلة مع المجاهدين لتحرير بيت المقدس وعلى رأسهم الناصر صلاح الدين الأيوبي، حيث كان يرسل الجند إلى جبهة القتال في فلسطين بعد تعليمهم أصول الفقه والتصوف والجهاد، وإرسالهم إلى السيد احمد الرفاعي في جنوب العراق ليتعلموا الصبر والمصابرة والتدريب على القتال، ثم يرسلون من هناك للالتحاق بجند صلاح الدين الأيوبي، وتم لصلاح الدين فيما بعد أن يهزم الصليبيين بعد أن اسقط الدولة العبيدية في مصر التي كانت بؤرة الباطنية والتآمر على الإسلام والتحالف مع الصليبيين ضد الجيش الإسلامي في بلاد الشام، وثم فتح القدس في سنة 583هـ، أي بعد وفاة الشيخ عبد القادر بعشرين عاماً تقريباً، وقد أقنع الشيخ عبد القادر الخليفة العباسي بإرسال العون إلى الناصر صلاح الدين الأيوبي الذي كاتبه وطلب منه المؤن والمعونة للتصدي للغزو الصليبي( ).

وذكر الشيخ عبد القادر الكيلاني، الشعراني في طبقاته الكبرى، فقال: ومنهم او صالح الشيخ عبد القادر الجيلي، وهو ابن موسى بن عبد الله وساق نسبه إلى الإمام علي بن أبي طالب.

أولاد الشيخ عبد القادر الجيلاني وأحفاده

من أولاد الشيخ عبد القادر أبو بكر عبد العزيز، ومن ذريته نقباء بغداد اليوم من بني النقيب، ومنهم إبراهيم ومحمد القزاز وعبد الجبار وعبد الوهاب وعبد الله، وعيسى المدفون بمصر ويحيى والشيخ موسى (مات في الشام) والشيخ صالح، والشيخ عبد الرزاق الذي أخذ موقع والده في تدريس العلم بعد وفاته حتى لقب شيخ الإسلام أيضاً، ذكره صاحب قلائد الجواهر وابن النجار في تاريخه. ومن عقبه الشيخ نصر بن عبد الرزاق وابنه محمد بن نصر وحفيده ظهير الدين أحمد بن محمد كان إماماً فاضلاً في بغداد.

ومن ذرية الشيخ عبد القادر وأحفاده، محمد شرشيق بن عبد العزيز المدفون مع أبيه في قرية حيال قرب الموصل، وهو الملقب بالهتاك، ومنهم عبد الفتاح المدرس بن عبد الحميد بن إبراهيم بن وريد بن عبد الرزاق الحموي الجيلي من علماء الحضرة الجيلانية في بغداد في أواخر العهد العثماني. ومنهم عبد الرحمن النقيب بن علي بن سلمان بن مصطفى ، تولى نقابة الإشراف وتولية الأوقاف القادرية ورئاسة الوزارة في أوائل العهد الملكي في العراق.

والى بني عبد القادر الجيلاني ينتسب الجيلانية والحيالات وآل النقيب وآل المدرس وغيرهم من السادة الحسنية: وهم أحد فرعي الشجرة العلوية المباركة، التي تشكل نقابة الإشراف العلوية والذرية النبوية، الذين كان لهم الفضل مع بقية العلماء المسلمين في نشر تعاليم القرآن والهدي النبوي في أرجاء المعمورة. ربنا اجعلنا ممن يستمعون القول فيتبعون أحسنه واجعلنا من أتباع سيد البشر والرحمة المهداة محمد   وممن يحبون أهل البيت والصحابة وأبنائهم الذين ذكرت ترجمتهم وسيرتهم في هذا البحث وممن لم يسع المجال لذكرهم، فإن المرء يحشر مع من أحب كما بشرنا النبي الأكرم   ( ).

الفصل الخامس

الدولة العثمانية في الميزان

تمهيد

نشأت الدولة العثمانية في مطلع القرن الثامن الهجري، بعد نصف قرن من سقوط الخلافة العباسية في بغداد، كأمارة صغيرة في الجزء الشمالي الغربي من بلاد الأناضول مما كان يسمى يومها (بلاد الروم) واتجهت بعد تأسيسها وتوسعها في الشرق وضم عدد من الأمصار العربية في الشرق الأدنى، اتجهت غرباً باتجاه أوربا، واستولت على بلاد البلقان كلها، وفتحت القسطنطينية عام 857هـ/ 1453م، في عهد السلطان محمد الفاتح، ووصلت في عهد السلطان سليم الأول وابنه السلطان سليمان القانوني إلى قلب أوربا، وحاصرت عاصمة الإمبراطورية النمساوية (فيينا)، وإلى (البندقية) في جنوب إيطاليا، وكان سلاطينها الأوائل يقودون الجيوش بأنفسهم، وقد أسسوا جيشاً قوياً منظماً، وكانت رسائل السلاطين إلى المسلمين تبشر بالفتح المبين والانتصار على الكفر، ثم ضعفت الدولة بعد عهود سلاطينها العظام محمد الفاتح وسليم الأول ومراد الرابع، لكنها بقيت تحارب روسيا والبلقان وأوربا عموماً والصفويين في إيران، حتى أنهكتها الحروب واستنفذت كل طاقاتها الاقتصادية والسكانية والعسكرية، مما مهد لسقوطها في الحرب العالمية الأولى في مطلع القرن العشرين.

ملامح الدولة العثمانية ومميزاتها

أما أهم ملامح هذه الدولة العظمى وميزان حسناتها وسيئاتها في المنظور الإسلامي، فيمكن تلخيصها بالآتي:

1. إن أول ما نلمح من هذه الدولة هو غلبة الجانب العسكري على الجانب الحضاري العلمي الدعوي، مع إن قوة هذا الجانب أدت إلى تلك الفتوحات المهمة في أوربا وغيرها. لكن تلك الصفة جعلتها أقرب إلى الإمبراطوريات القديمة منها إلى الدول القابلة للتطور العلمي والفكري ومجارات التطور العالمي في العصور الوسطى وعصر النهضة التي شهدنها دول أوربا عموماً.

2. استطاعت هذه الدولة في إبان نشأتها الأولى، وبعد عصر المغول الذي أسقط الخلافة العباسية وفتت العالم الإسلامي الموحد، أن تجمع شمل المسلمين لاسيما العالم العربي ممثلاً ببلاد الشام ومصر والعراق والحجاز واليمن وشمالي أفريقيا وتضمه إلى أراضيها الواسعة التي شملت أيضاً تركيا وأواسط آسيا وشرق أوربا، بعد أن كان العالم العربي مقسماً بين إيران والمغول والمماليك، إذ أن وحدة الشعوب الإسلامية كانت قد تفككت بعد زوال الخلافة العباسية. فأصبحت هذه الدولة

الإسلامية الجديدة أقوى دولة في العالم دون منازع سواء في الشرق أو الغرب ولمدة جاوزت القرنين (حتى نهاية القرن السابع عشر ميلادي).

3. أوقفت الدولة العثمانية الخطر البرتغالي الإسباني الذي بدأ بالالتفاف حول العالم الإسلامي عن طريق البحار، بعد الاستيلاء على رأس الرجاء الصالح في جنوب أفريقيا والتوغل في مياه الخليج العربي وسيطرة الإنكليز على الهند. واستطاعت هذه الدولة أن تحمي المناطق الإسلامية من الغزو الأوربي الذي تأخر أربعة قرون حتى جاءت الفرصة المناسبة بعد أن ضعفت الدولة العثمانية في مطلع القرن التاسع عشر، إذ بدأت أوربا حينها بإتباع سياسة القضم في البلاد الإسلامية شيئاً فشيئاً( ).

4. مؤامرة النساء الأجنبيات في البلاط العثماني والصفوي:

لقد كانت مؤامرة النساء الأجنبيات في البلاط العثماني والصفوي لا تقل خطراً عن أثر الصراع الدموي الطائفي بين الدولتين، وقد تزامنت مع نشأة الدولة الصفوية في مطلع القرن السادس عشر الميلادي.

ففي البلاط العثماني كانت الروسية الصليبية (ركسلانة) زوجة السلطان سليمان القانوني، وأحب نسائه إلى قلبه، والإيطالية اليهودية (نوربانو) زوجة ابنه السلطان سليم الثاني، كانتا أخطر امرأتين أوربيتين كان لهما أثر حاسم في مجريات الأحداث السياسية والعسكرية في الدولة العثمانية، منذ عهد سليمان وحتى سقوطها بعد قرون طويلة من الوهن والضعف. فقد استطاعت ركسلانة الصليبية أن تغري السلطان سليمان القانوني بقتل ابنه وولي عهده وأبرز قادة جيشه مصطفى جلبي، الذي حقق انتصارات عديدة في الشرق والغرب أثارت مخاوف أوربا والدولة الصفوية معاً. كما أغرته بالعدول عن قيادة الجيوش بنفسه في الحرب، وهو تقليد عثماني أصيل وإسلامي عريق، ودفعته للانصراف إلى اللهو والمظاهر المادية، وترك إدارة الدولة بيد الصدور العظام الذين كانت تشرف على تعيينهم وسياستهم في الحكم والإدارة، وأقنعته بتوقيع معاهدة مع فرنسا ثم بقية الدول الأوربية، تنص على منح الدولة العثمانية الامتيازات الأجنبية لفرنسا وبقية الدول الأوربية، وإدخال القوانين الأوربية إلى الدولة العثمانية لحماية الرعايا الأجانب والأقليات غير المسلمة من جور الشريعة الإسلامية وقصورها في شمولهم بالعدل والرعاية (على حد زعم الأوربيين) ولذلك سمي السلطان سليمان بالقانوني.

وأخيراً مهدت ركسلانة الصليبية لزواج ابنها سليم الثاني من اليهودية الإيطالية (نوربانو)، التي كان لها دور في البلاط العثماني أكثر مما كان لعمتها ركسلانة، ولكثرة دسائس ركسلانة وتآمرها على الدولة العثمانية اضطر ابنها السلطان سليم الثاني إلى قتلها والتخلص منها ولتأخذ نوربانو دورها الخبيث في إدارة شؤون البلاد عن طريق زوجها السكير سليم الثاني.

أما في البلاط الصفوي، فقد كان لأم الشاه إسماعيل الصفوي (مارته) بنت حسن الطويل مؤسس دولة الخروف الأبيض، وامها كاترين بنت كارلو يوحنا ملك مملكة طرابزوت المسيحية على ساحل البحر الأسود، وتدعى مارته (حليمة بيكم) أيضاً، كان لهما دور مهم في حياة الشاه إسماعيل، فهما اللتان ربتا الشاه إسماعيل بعد مقتل أبيه (حيدر) وهو ابن سنة واحدة، فرضع حليبهما وتربى منذ نعومة أظفاره على مأدبتهما في محبة أجداده لأمه، وكره خصومهم، ونحن نعلم أن جده حسن الطويل وجد أمه كارلو يوحنا ملك مملكة طرابزوت كانا من أشد أعداء الدولة

العثمانية، فضلاً عن مصلحة أوربا الصليبية في ضرورة تنمية العداء الصفوي العثماني وإشعال نار الحرب والفتنة بينهما كما هو معلوم بداهة( ).

5. إن أسوأ وأخطر صراع شهدته هذه الدولة هو الصراع الطائفي بين الصفويين والعثمانيين، وما كان له من أثر قاتل على المنطقة الإسلامية برمتها، فضلاً عن الدولتين بشكل خاص، إن هذا الصراع الذي بدأ منذ عهد الشاه إسماعيل الصفوي مؤسس الدولة الصفوية، ودام أكثر من ثلاثة قرون (من القرن السادس عشر حتى القرن التاسع عشر بعد الصلح النهائي مع الدولة القاجارية الإيرانية) وكان سبباً مهماً في تبديد الطاقات الإسلامية والضعف السياسي والاقتصادي والتخلف العلمي والحضاري فضلاً عن بلورة الشعور الطائفي بين المسلمين وانتشار أفكار الغلو والتكفير والبدع والمستحدثات بين الطرفين، ومن قبل علماء ومجتهدين من الطرفين، لإخفاء الدافع الحقيقي للصراع، وهو الصراع حول المرجعية الإسلامية وقيادة العالم الإسلامي وتحفيز المسلمين على الصراع والقتال باسم الجهاد المقدس وقتال البغاة والمارقين. ولم ينتبه كلا الطرفين إلى ضرورة الصلح والتعايش إلا بعد قرون من الصراع الدموي المرير، ولقد أدى ذلك الصراع إلى وقوف الدولة الصفوية في صف أعداء الإسلام وتحالفها مع الدول الأوربية الاستعمارية وعلى رأسها إنكلترا وفرنسا وإيطاليا وغيرها ضد الدولة العثمانية التي وقفت ضد الأطماع الأوربية في العالم الإسلامي، باعتبارها الدولة الإسلامية الوحيدة التي وقفت أمام تلك الدول، لتمثل الشرق المسلم المدافع عن حقه في الوجود مهما كانت السلبيات التي واكبت الدولة العثمانية.

ولقد شهد ذلك الصراع معارك عديدة، كانت معركة جالديران إحدى تلك المعارك التي انتصر فيها السلطان سليم الأول على الشاه إسماعيل بعد احتلاله لبغداد، حيث استطاع العثمانيين طرد الصفويين منها، ومتابعتهم في أراضيهم، ودخلت الجيوش العثمانية العاصمة (تبريز). ولم يستمر العثمانيين في زحفهم شرقاً لانشغالهم بالجبهة الشمالية في شرق أوربا، ولو قدر لهم الاستمرار في الزحف شرقاً حتى أراضي الهند لكان أولى لهم من استمرار التقدم باتجاه أوربا التي جمعت كل قواها لإيقاف الزحف العثماني، فبددت الدولة كل قواها لتثبيت أقدامها في شرق أوربا، حيث كان الصرب والكروات والبلغار يشغلونها ويستمدون العون من أوربا، وفي هذه الأثناء التهمت روسيا القيصيرية كل الأقاليم الإسلامية في آسيا الوسطى من بخارى إلى باكو.

ثم تكررت محاولات الدولة الصفوية لاحتلال العراق ودخول بغداد بعد أن أخرجوا منها في المرة الأولى في عهد السلطان سليمان القانوني عام 1534م، بعد أن مكث الصفويين فيها ربع قرن من الزمن، وذلك بعد وفاة الشاه إسماعيل وفي عهد ابنه طهماسب.

واستمرت هذه الحروب المدمرة بين الدولتين حتى استطاع الشاه عباس بن الشاه طهماسب أن يحتل بغداد من جديد سنة 1623م بعد حصار دام ثلاثة أشهر، ثم استطاع السلطان مراد الرابع العثماني أن يستردها عام 1638م، بعد أن فشل مرتين في إعادتها حيث أرسل قوات كبيرة عام 1624م ثم في عام 1630م، مما اضطره أن يقود الجيش بنفسه، وأن يحاصر بغداد واستردادها في النهاية. ثم أعقب هذا الحادث أن عقدت الدولتين صلحاً استطاع أن يدوم أكثر من تسعين سنة، وكان لسقوط الدولة الصفوية بعد ذلك من شأنه أن يعود بالصراع الإيراني العثماني من جديد، لاسيما في عهد نادر شاه الذي خلف الصفويين بعد أن شهدت إيران فوضى سياسية دامت نصف قرن، بعد اجتياح الأفغان للدولة الصفوية وإسقاطها، مما جعلهم وجهاً لوجه أمام العثمانيين الذين لم يكن ليشفع لهم أنهم هم الآخرين كانوا من أهل السنة، إذ أنّ الصراع السياسي كان هو العامل الأهم

في تحديد وجهة الصراع، وكان إصرار العثمانيين على الانفراد بالمرجعية وقيادة العالم الإسلامي هو السبب الرئيسي لاستمرار الصراع مع الحكام الجدد من الأفغان، وبعد أن استطاع نادر شاه حسم الموقف في إيران والسيطرة على زمام الأمور وطرد الأفغان من إيران وتعيين نفسه ملكاً على إيران، وبعد أن حقق انتصارات عديدة في إيران والهند وبلاد الأفغان وبحر قزوين، أطلق على نفسه لقب شاهنشاه أي ملك الملوك. بعد ذلك وبعد صراع مرير مع العثمانيين ومعارك عديدة وحصار لبغداد والموصل أكثر من مرة، عرض نادر شاه الصلح على العثمانيين، وطرح مشروعه المعروف، مشروع المذهب الخامس، لكي يحل مشكلة تعدد المذاهب في إمبراطوريته ويزيل التكفير والغلو الذي جاء به الصفويون بين شعوبه، وبعد مفاوضات وصراعات ومحاولات عديدة قام بها نادر شاه لإقناع العثمانيين بضرورة الاعتراف بمشروعه، وإطلاق اسم المذهب الجعفري على الشيعة واعتباره خامس المذاهب الإسلامية المعترف بها رسمياً، استطاع أن يعقد مؤتمر النجف برعاية الدولتين الإسلاميتين سنة 1743م، وتم الاتفاق بين علماء الطرفين على ضرورة إزالة المكفرات وسب الصحابة -وعلى رأسهم الشيخين- وضرورة اعتراف العثمانيين بالمذهب الجعفري بعد تخليه عن هذه المكفرات والمستحدثات التي أوجدها الصفويون، وتمت أول صلاة جمعة جامعة للفريقين. وكاد الأمر الذي تبناه نادر شاه ووافق عليه العثمانيون، فيما يخص التقريب والوحدة بين المسلمين، أن يتم لولا أن عجلت المنية نادر شاه، إذ قتل بعد ثلاثة أشهر من إبرام هذا الاتفاق( )، فعمت الفوضى إيران من جديد لتستمر لنصف قرن آخر، حتى ظهور الدولة القاجارية في إيران عام 1796م والتي كانت أشد طائفية وتعصباً من سابقتها الدولة الصفوية، مما مهد لاستمرار الصراع الإيراني العثماني لنصف قرن آخر أنهك الدولتين، وشهد العصر القاجاري تحالفاً أشد بين إيران وأوربا ضد الدولة العثمانية التي بدأت تعاني من أعراض التخلف والضعف والشيخوخة شأنها شأن الدولة القاجارية، مما سارع في تفاقم الخطر الأوربي وتوسيع سياسة الامتيازات الأجنبية التي أدت في النهاية إلى سقوط الدولتين فريسة بأيدي الاستعمار الغربي.

لقد عادت الدولة القاجارية إلى نفس النهج الطائفي لدى الصفويين في سياسة ترويج السب وطقوس العزاء المبالغ فيها، وانتهاج سياسة التكفير والتحالف مع أعداء الإسلام، غير إن الصراع الدموي قد تحول فيما بعد من صراع السيف إلى صراع القلم والإعلام، بعد أن توقفت الحرب بين الدولتين نهائياً منذ منتصف القرن التاسع عشر على أثر عقد الصلح وتثبيت الحدود بينهما بشكل نهائي، لكن ذلك لم يخفف من حدة الجدل الطائفي، وربما زاد لهيباً بعد إدخال المطبعة الحجرية إلى إيران سنة 1833م، حيث بدأت المؤلفات الطائفية تصدر بأعداد كبيرة، يقابلها الرد عليها وتفنيدها من قبل الطرف الآخر.. وهكذا

6. لقد كانت الدولة العثمانية في أول عهدها تشجع العلم والعلماء وتهتم بالتنظيم الإداري، ولكنها ارتكبت خطأً كبيراً حين لم تعتمد اللغة العربية لغة العلم والإدارة، فتأخرت اللغة العربية في العهد العثماني عموماً، وإن كان هذا التأخر والإهمال قد تحول فيما بعد إلى محاربة، وتبني سياسة التتريك ودعم التوجه الطوراني العرقي في أواخر عهدها، بعد أن سيطر الاتحاديون (جماعة الاتحاد والترقي) على السلطة وخلعوا السلطان عبد الحميد الثاني وذلك عام 1909م، مما فجر الصراع القومي بين القوميات المسلمة (وفي مقدمتهم العرب والترك) داخل الدولة، ولكننا لا نريد أن نضع العقدين الأخيرين في الميزان، مقارنة مع خمسة قرون بكمالها كانت هذه الدولة العظيمة تحكم معظم العالم الإسلامي، فيما عدا إيران وشرق آسيا، فلقد كان إهمال اللغة العربية خلال هذه

الحقبة الطويلة من عيوبها الرئيسية التي لا تغتفر، وذلك لأن الفقه الإسلامي تابع للعربية، لأن مادته القرآن والسنة وهما عربيان، والعلماء العثمانيون الذين تصدوا للقضاء والإفتاء لسان معظمهم أعجمي لا قبل لهم بفهم نصوص القرآن وبلاغته وأساليبه اللغوية، فلذلك لم يشتغلوا بالاجتهاد( ).

7. اهتمت الدولة العثمانية بعمارة المساجد، ووجد من السلاطين وبعض الولاة من يهتم بالعلم وإنشاء المكتبات، ولكن لم يكن هناك سياسة واضحة للدعوة الإسلامية بين صفوف الشعوب التي خضعت للحكم العثماني، ولذلك لم يرْسخ وجودها في تلك الأقاليم، لاسيما دول البلقان وشرق أوربا، ولقد تبنت الدولة العثمانية المذهب الحنفي دون غيره من المذاهب الإسلامية المعروفة، مما حرم علماءها ومفكروها من مادة علمية وتشريعية وقانونية كبيرة، ومن تراث المذاهب الذي مثّل قمة الإنتاج الفكري التشريعي البشري لقرون طويلة، مما جعلها تضيّق واسعاً من تراث الأمة الثر وتحدد نفسها في اتجاه فقهي واحد يؤدي -بالضرورة ومع الزمن وبسبب عدم وجود منافس له- إلى الجمود والتحجر الذي تأمر بعكسه تعاليم القرآن وهدي السنة المطهرة، مما ألقى هذا النهج بظلاله على الحياة العلمية والاجتماعية وحتى السياسية في عصر النهضة الأوربية المتسارعة بخفاء لكي تسبق هذه الدولة العملاقة. وحدد ميدان العقل في أضيق نطاق ممهداً لحالة التخلف المستديم الذي واكب حياة الدولة بعد رحيل سلاطينها العظام أمثال محمد الفاتح وسليم الأول وسليمان القانوني ومراد الرابع وغيرهم، ومما ساعد على عدم اجتياز حالة التخلف الحضاري ضعف السلاطين في القرون الأخيرة والصراع الطائفي المذكور أعلاه وهيمنة الجيش الانكشاري وسيطرته على مقاليد الدولة.

8. إن تعلق الدولة العثمانية بالطرق الصوفية، لاسيما التي ابتعدت عن روح الإسلام وتعاليم القرآن والسنة، وغرقت في الغلو والخرافة وأشهرها الطريقة البكتاشية، التي كانت في حقيقتها ستاراً صوفياً للفرق الباطنية التي كانت شائعة في تركستان وإيران في تلك الفترة، فقد كان العثمانيون يعتمدون في حروبهم بشكل أساس على مجاهدي الجيش الانكشاري (الذي يعني الجيش الجديد)، وكان الجيش الانكشاري يعتمد على الطاقة الروحية والتعاليم الجهادية للطريقة البكتاشية، وكان الحاج محمد ولي بكتاش هو الذي أسسها، وقد كلفه السلطان أورخان (1326م) بتدريب جنوده، وتعليمهم ما يتطلبه الجندي العثماني من الطاعة والصبر والشجاعة والتضحية، فضلاً عن معرفة أصول الدين والعبادة والأذكار وغيرها، وقد أعطى السلطان الشيخ محمد ولي بكتاش صلاحيات واسعة مهدت لتأسيس الجيش الانكشاري وتطويره مع الزمن، والقيام بعمليات الفتح والجهاد في قلب أوربا لفترة من الزمن.

غير أن هذا الجيش نفسه ومن ورائه شيوخ البكتاشية أصبحوا -فيما بعد- مصدر قلق وإعاقة لتطوير مؤسسات الدولة، لاسيما الجيش وآلياته، بحجة تحريم تقليد الكفار، وان الجيش الانكشاري ينصر بالكرامة وبأذن الله، وليس بتطوير السلاح والعدد والآليات والوسائل الحديثة الأخرى، مما اضطر السلاطين العثمانيون إلى التصادم مع هذا الجيش الذي أصبح يهدد الدولة، وقام بأعمال شغب وثورات مضادة، فأصبح من واجب السلاطين تحجيم هذا الخطر والقضاء عليه، ولقد برز هذا الصراع داخل الدولة العثمانية منذ عهد السلطان سليم الأول حتى عهد السلطان مراد الرابع الذي لم يستطع استعادة بغداد إلا بعد قضائه على الانكشاريين في العاصمة عام 1638م.

وهكذا كان هذا الجيش أحد أسباب ضعف الدولة العثمانية حتى القرن السابع عشر حيث تم القضاء عليه، إلا أن الطريقة البكتاشية المغالية ومنهجها الخرافي ظل مهيمناً على الحياة الدينية في الدولة العثمانية حتى بعد القضاء على الجيش الانكشاري، حيث كان معظم شيوخ الإسلام في الدولة العثمانية والتي تصدر من جهتهم فتاوى الجهاد وقتال الأعداء وإعلان الحرب على خصوم الدولة، كان معظمهم من هذه الطائفة البكتاشية، والتي كانت تشترك مع الطريقة الصفوية الصوفية التي أسسها صفي الدين الأردبيلي جد الشاه إسماعيل والتي كانت الملهم الروحي للشاه إسماعيل في نزعته المغالية المكفرة، تشترك في نقاط عديدة، حتى عدّ المؤرخون هاتين الطريقتين ذات أصل باطني واحد، ومن أبرز عقائدها تأليه الإمام علي والأئمة الآخرين من ذريته، والتأويل الباطني المغالي والمنهجية الخرافية التي تحكم نظرتهم للدين والحياة.

ولم يخلو الوسط الإسلامي في العصر العثماني من الطرق الصوفية المعتدلة الأخرى كالطريقة النقشبندية والقادرية وغيرهما والتيارات والمذاهب الإسلامية الأخرى كالمذهب الحنفي والشافعي والمالكي، لاسيما في جنوب تركيا والعراق ومصر وشمال أفريقيا، كما برز المذهب الحنبلي بشكل رئيسي في الحجاز، والمهب الزيدي في اليمن، فضلاً عن المذهب الجعفري في العراق ولبنان وغيرها من المذاهب الإسلامية العديدة.

9. من الأخطاء الكبيرة التي وقعت فيها الدولة العثمانية، شأن بقية الدول الإسلامية المتصارعة معها وعلى رأسها الدولة الصفوية والقاجارية، إعطاء الدولة العثمانية الامتيازات الخاصة للأقليات غير المسلمة الموجودة في كيان الدولة، وتوسعها في ذلك بطلب من الدول الأوربية، واستغلال هذه الدول الطامعة لتلك الحالة، حيث جعلتها ثغرة للدخول منها والتمدد لتأمين مصالحها، يقول الشيخ محمد رشيد رضا في ذلك: ومن المثلات والعبر في هذا أن المسلمين أباحوا في حال عزتهم وسلطانهم لأهل الملل الأخرى حرية واسعة في دينهم ومعاملاتهم في بلاد المسلمين، عادت على المسلمين ودولهم بأشد المضار والمصائب في طور ضعفهم، كامتيازات الكنائس ورؤساء الأديان التي جعلت كل طائفة منهم ذات حكومة مستقلة في داخل الحكومة الإسلامية، ومن ذلك ما يسمونه في هذا العصر بالامتيازات الأجنبية التي كانت فضلاً وإحساناً من ملوك المسلمين فصارت امتيازات عليهم، مذلة لهم، مفضلة للأجنبي عليهم في عقر دارهم، حتى أن الصعلوك من أولئك الأجانب صار أعز من أكابر أمرائهم وعلمائهم( ).

10. من المفيد أن نذكر رأي الدكتور علي شريعي المفكر الإيراني الإسلامي المعاصر المعروف، في موضوع الدولة العثمانية وتقييمها، وكيف كان ينظر إليها، والى الدولة الصفوية التي كانت المنافس والخصم اللدود لها لعدة قرون كما نعلم. يقول علي شريعتي عن موقف الدولة الصفوية المتخاذل والمتحالف مع الدول الأوربية الاستعمارية في كتابه (التشيع العلوي والتشيع الصفوي): إن موقف الدولة الصفوية بتعاونها مع دول الغرب ضد العثمانيين، يعد موقفاً خائناً ومتخاذلاً وفق المنظور الإسلامي، وأن الدولة العثمانية رغم ما كانت تحمله من علل وعيوب وأمراض، ورغم أنها كانت تمثل التسنن –بينما كان مذهب المؤلف هو التشيع- وما كانت تعاني من تخلف ونزعة إمبراطورية، إلا أنها كانت تمثل دولة الخلافة الشرعية ومركز السلطان والوجود الإسلامي في ذلك الوقت العصيب، وإن التعاون مع أعدائها وخصومها التقليديين، هو طعنة غادرة للإسلام من الخلف، وإتاحة الفرصة لأعدائه للانقضاض عليه واستعماره واستعباده، كما حصل -فيما بعد- كنتيجة لهذا للصراع الطائفي الذي كان من ثمار ذلك التحالف الأوربي الصفوي الغادر. وقد أثبتت

الأحداث التي تلت ضعف الدولة العثمانية وانهيارها وسقوطها، جسامة الخطر التي أحاق بالأمة من جراء اختفاء الخلافة العثمانية، في انقضاض الغرب الاستعماري على العالم الإسلامي واستعمار أراضيه، وتفاقم الخطر الحقيقي في هيمنة الثقافة الغربية على ثقافة المسلمين الأصيلة وانحسار الثقافة الإسلامية، وتكالب دول الاستكبار العالمي على العالم الإسلامي ومحاولات الانقضاض على مقدرات الشرق وثرواته، والمحاولات الحثيثة لمسخ الهوية الإسلامية، مما مهد إلى تكريس التخلف والتجزئة والتبعية للغرب وتراجع الدور السياسي والحضاري الإسلامي بشكل عام، مقارنة مع العصور الإسلامية التي سبقت التحالف الأوربي الصفوي والصراع الطويل بين قطبي العالم الإسلامي آنذاك.

وهكذا نرى أن الدولة العثمانية شأنها شأن بقية الدول الإسلامية في العصور المتأخرة من التاريخ الإسلامي، هي دولة إسلامية من حيث هويتها وانتمائها، لكنها بحكم سمتها العسكرية البارزة وأخطائها المحددة وأبرزها صراعها الطائفي وإهمالها التراث العربي الإسلامي واللغة العربية، وعدم استنادها على تعددية مذهبية مع هيمنة التصوف الباطني المغالي على سياستها الجهادية والروحية وتفشي البدع في الكثير من المعتقدات التي سادت خلال حكمها، كلها أسباب تنقص من مدى نقاوة هويتها الإسلامية وتمسكها بعرى الإسلام الأصلية، ومع ذلك لا يمكن أن يشك المسلم أنها مثلت الوجود السياسي الإسلامي أمام الغرب الطامع وكانت شوكة في أعينهم، ولولاها لنهب العالم الإسلامي منذ عصر هولاكو وسقوط الخلافة العباسية واحتلال بغداد عام 656هـ/ 1258م، ولكنها ظلت ولقرون طويلة سداً منيعاً أمام الاستعمار الغربي بشكليه الصليبي والصهيوني، ولا يضرها ما انتقض في زمنها من عرى الإسلام، كما تنبأ النبي بذلك حيث قال: (لتنتقضن عرى الإسلام عروة عروة، كلما انتقضت عروة تشبث الناس بالتي تليها، أولهن نقضاً الحكم وآخرهن الصلاة).

الفصل السادس

الصراع الصفوي العثماني

وأثـره فـي بلـورة الطـائفيـة

مقدمة

إن الأمة لا تزال بخير ما لم يدب فيها الخلاف والفتنة والصراع، فإن الخلاف والخصومة والطائفية، تولد مع الزمن الفتن والصراعات الفكرية والدموية مما يؤدي إلى الضعف والوهن في جسم الأمة وكيان الدولة، ويورثها في النهاية الموت والزوال، وفي ذلك يقول النبي : يوشك أن تداعى عليكم الأمم كما تداعى الأكلة على قصعتها، قالوا: أومن قلة نحن يومئذ يا رسول الله؟ قال : بل أنتم كثير، ولكنكم غثاء كغثاء السيل، ولينزعنّ الله المهابة من قلوب أعدائكم لكم، وليقذفنّ في قلوبكم الوهن، قالوا: وما الوهن يا رسول الله؟ قال: حب الدنيا وكراهية الموت( ). وهل مرض الطائفية والخصومة إلا أحد إفرازات حبَّ الدنيا وكراهية الموت والتعصب للذات والقوم والموروث الفكري والعقائدي دون نقد أو تمحيص؟...

وقد كان للصراع الصفوي العثماني الذي دام ثلاثة قرون تقريبا، منذ مطلع القرن السادس عشر، الأثر الكبير في تكريس الوهن والتخلف في العالم الإسلامي وبلورة الطائفية والخصومة والتعصب بين المسلمين لاسيما في المشرق الإسلامي، ولقد كان العراق، هو المسرح الرئيسي لهذا الصراع المرير، فقد تعرضت بغداد لاحتلالين من قبل الصفويين، وتعرضت للحصار العسكري مرات عديدة، وكان من نتائج ذلك الصراع، أن خرجت منه الدولتان المتصارعتان ضعيفتين متخلفتين في ميادين العلم والحضارة والنهضة، التي كانت أوربا آنذاك تتسابق للولوج في بحارها وينابيعها والتي أثمرت القوة والحضارة والتقدم العلمي في القرنين الأخيرين، تاركةً العالم الإسلامي يتخبط في تخلفه وظلامه وضعفه، مما مهّد لعهد الاستعمار الأوربي والاحتلال العسكري الذي شهده العالم العربي والإسلامي في مطلع القرن العشرين..

وسنجد في هذا البحث المبسّط والاستعراض الموجز لمفردات هذا الصراع بين العثمانيين والصفويين، مدى الخطر المحدق الذي أحاط بالأمة العربية والإسلامية، بسبب تخلي العرب عن قيادة المسلمين من جهة، وسقوط أكبر دولتين إسلاميتين في دوامة الصراع الطائفي والسياسي الدموي المرير، ووقوعها في بئر التصارع العقيم الذي جلب لها الويلات، وكبدّها الخسائر الفادحة، لترى نفسها بعد حين من الزمن خارج التاريخ والصراع والتنافس الحضاري المشروع.

قال تعالى: سنة الله في الذين خلوا من قبل ولن تجد لسنة الله تبديلا ( ).

نشأة الصفويين ودورهم في نشر الغلو

بعد انحطاط وتدهور خلفاء تيمورلنك، تعاقب على إيران دويلات صغيرة عديدة حتى ظهرت إلى الوجود الدولة الصفوية وكان مؤسسها الشاه إسماعيل الصفوي من أتباع الشيخ صفي الدين الإردبيلي وهو كما يزعم مؤرخو الدولة الصفوية – من أحفاد الإمام الكاظم ، وكان صفي الدين وابنه صدر الدين من بعده من أهل السنة الشوافع المذهب، وكذلك كانت الطريقة الصفوية التي أنشأها في أردبيل، ولكن حفيده خوجه علي الذي تولى رئاسة الطريقة سنة 801هـ/ 1399م تحول إلى التشيع، وكان معتدلا غير متعصباً لمذهبه الجديد، غير أن ابنه إبراهيم أصبح متعصبا ومتحمساً للاثني عشرية، فقاد أتباعه للصراع مع أهل السنة في داغستان وخلفه في نفس الطريق ابنه الشيخ حيدر والد إسماعيل الصفوي والذي تولى رئاسة جماعته سنة 859هـ/ 1455م، وكان أتباعه من التركمان وليس من الإيرانيين، وكانوا يسمون (القزلباشية) أي ذوو الرؤوس الحمراء، وقد تزوج الشيخ حيدر من (مارته) بنت حسن الطويل مؤسس دولة الخروف الأبيض التي حكمت شمال غرب إيران، وكانت أمها (أي زوجة حسن الطويل) مسيحية اسمها (كاترينا) وهي ابنة (كارلو يوحنا) ملك مملكة طرابزوت اليونانية على ساحل البحر الأسود. وكان الشيخ حيدر متعصباً لمذهبه، مقاتلا في سبيله، حتى لقي الموت في صراعه مع ملك سيروان المتعصب لسنته أيضا، وخلفه ثلاثة أولاد أصغرهم إسماعيل (مؤسس الدولة الصفوية) وكان عمره سنة واحدة عندما قتل أبوه.

في ذلك الوقت كان العثمانيون يمدون سلطانهم على آسيا الصغرى وشمال غرب إيران، فتصدى لهم إسماعيل وهو فتى، وتزعم التركمان الشيعة في صراعه مع العثمانيين، وتمكن من الاستيلاء على تبريز، وهناك أعلن نفسه شاهاً لإيران وذلك سنة 907هـ/ 1501م.

كان إسماعيل هو الذي صبغ الحركة الصفوية كلها بالصيغة الشيعية رغم أن معظم أتباعه من أهل السنة أول الأمر. ولكنه اجتهد في تحويلهم إلى الشيعة الاثني عشرية بغية التمايز السياسي وإيجاد أسباب الخلاف، وتصدى معهم لحرب السلطان العثماني سليم الأول الذي كان شديد الحماس لمذهبه السني، وقد استطاع العثمانيون أن يهزموا الصفويين هزيمة حاسمة – كما سنرى - ولكن إسماعيل استطاع أن يتجاوز الهزيمة بعد انسحاب العثمانيين من أراضيه بسبب فتنة الانكشارية داخل الجيش( ).

يؤكد الكاتب الغربي المستشرق دوايت رونلدسن في كتابه (عقيدة الشيعة)، تلازم عقائد الغلو والتكفير مع العصر الصفوي وقد عاش دوايت في إيران ستة عشر عاما وسكن في مدينة طوس بجوار مشهد الإمام الرضا ، وقضى هذه الحقبة الطويلة في دراسة العقائد الإمامية الإيرانية وإخراج كتابه المذكور، ويقول هذا المستشرق في كتابه( ):

لو درسنا حياة الأئمة دراسة دقيقة وافية، انكشفت لنا حقيقة واحدة، وهي أن الأئمة رجال لا يزيدون على مستوى الشخص الاعتيادي (المؤمن) بشيء وقد رفعوا إلى مصاف الخالدين، فالمصادر القديمة تؤكد ما كان عليه هؤلاء الناس في حياتهم الحقيقية وفي وجودهم المجرد عن التقديس والتمجيد، وان الهالة التي أحاطتهم بها القصص المتأخرة إنما هي من صنع الرواة. وما لم نذهب إلى وراء ما كانوا عليه إلى ما قد قيل فيهم، فسيكون نصيبنا الفشل التام، ولا نتمكن من

إيضاح نشوء العقائد الغريبة الشاملة التي تعتبر اليوم أساسية للإيمان لبعض دعاة الغلو وتقديس الأئمة...

في الحقيقة إن النصيب الأوفر لظهور هذه العقائد الغالية والمستحدثات والبدع والمنكرات والمكفرات التي ارتبطت بتراث أئمة أهل البيت الكرام إنما يرجع إلى العهد الصفوي، منذ تأسيس الدولة الصفوية على يد الشاه إسماعيل الصفوي، أما ترجمة مؤسس الدولة الصفوية (إسماعيل)، فهو إسماعيل بن حيدر بن إبراهيم بن خوجة علي بن موسى (صدر الدين) بن صفي الدين إسحاق الاردبيلي، من منطقة أذربيجان، كان جده صفي الدين زعيما صوفياً، وكان من أصل تركماني.. ويبدو أن الطريقة الصفوية في إيران والطريقة البكتاشية في الدولة العثمانية (الأناضول) من الطرق الباطنية المغالية والمتماثلة (أي المتشابهة) تقريبا.. من حيث كونهما مزيجاً من التصوف والغلو في التقديس والتأليه للأئمة الاثني عشر.. وقد استطاع إسماعيل الصفوي أن يؤسس الدولة الصفوية وهو لم يتجاوز الثالثة عشرة من عمره!؟ واستطاع خلال سنوات أن يوسع حدود دولته التي أصبحت عاصمتها (أصفهان) حيث ضمَّ لها ما وراء النهر والعراق وقفقاسيا.

وقد عمد إسماعيل الصفوي إلى فرض التشيع على الإيرانيين بالقوة، وجعل شعاره سب الخلفاء الراشدين الثلاثة مع المغالاة في تقديس الأئمة، وقد قتل في سبيل تطبيق تلك السياسة أكثر من مليون نفس في بضع سنين( ).

وفي سنة 1508م احتل إسماعيل الصفوي بغداد، وقد فعل بأهل بغداد مثل ما فعل بالإيرانيين من قبل، فأعلن سب الخلفاء وقتل الكثير من أهل السنة، ونبش قبر الإمام أبي حنيفة .

وفي عام 1524م توفي إسماعيل الصفوي عن عمر لم يتجاوز السابعة والثلاثين من عمره، إذ كان مولده سنة 1487م، وكان إعلانه تأسيس الدولة الصفوية سنة 1501م. وبعد إسماعيل جاء ابنه الشاه طهماسب وخلفه على عرش المملكة الصفوية.

لقد استطاع العثمانيون بقيادة السلطان سليم الأول أن يهزموا الصفويين هزيمة حاسمة في معركة جالديران في رجب سنة 920هـ/ 1514م في شمال غربي إيران، وقد احتل العثمانيون العاصمة تبريز أثر المعركة، وفر الشاه وتقهقرت جيوشه ووقعت إحدى زوجاته في الأسر، ودخل السلطان تبريز، واستولى على خزائن الشاه وأرسلها للعاصمة، كما أرسل إليها أربعين شخصاً من الصناع المهرة مظهراً اهتمامه بتقدم الصناعة، رغم انشغاله بالحروب، ثم استراح في تبريز، تحرك بعدها مقتفياً أثر الشاه حتى وصل ضفاف نهر الرس الذي يصب في بحر قزوين. وهناك أمتنع الانكشارية من مواصلة التقدم لشدة البرد ونقص المؤونة واللباس، فرجع إلى (أماسية) بآسيا الصغرى بانتظار الربيع، واستكمالا للاستعدادات، ثم فتح بعض القلاع الإيرانية وإمارة ذي القدر عام 921هـ/ 1515م. ثم عاد إلى الأستانة تاركاً قواده لإتمام فتح الولايات الفارسية الشرقية، وحينما وصل إلى العاصمة أمر بنقل عدد كبير من قادة الانكشارية الذين كانوا وراء الامتناع عن مواصلة التقدم في بلاد العجم، وجعل لنفسه حق تعيين قائدهم العام من خارج الانكشارية، وفتحت جيوشه بعد عودته من ماردين وأورفه والرقة والموصل، ففتح بذلك إقليم ديار بكر، وأطاعت قبائل الكرد بشرط بقائهم تحت حكم رؤسائهم( ).

وهكذا اضطر السلطان سليم الأول إلى ترك تعقيب الشاه إسماعيل وإخلاء الولايات الإيرانية الشرقية والعودة إلى تركيا بسبب الفتنة التي وقعت في صفوف جنده، وعصيان الانكشارية لأوامره

فأدت إلى إنقاذ الصفويين من الأزمة الخطيرة التي أحاطت بدولتهم وهي بعد في طور النشأة.

من هذا الاستعراض الموجز نرى إن الشاه إسماعيل الصفوي، هو الذي فرض التشيع الاثني عشري على الإيرانيين قسراً، وجعله المذهب الرسمي للحكومة الإيرانية ولشعوبها، بعد أن كانت إيران حتى ذلك الحين تأخذ بالمذهب الشافعي حيث كان يمثل مذهب الأغلبية منذ صدر الإسلام وظهور المذاهب حتى القرن العاشر الهجري (أي مطلع القرن السادس عشر الميلادي).. ويبدو أن هذا الرجل – كما يقول د. علي الوردي – كان يخيل إليه، أن القدر قد هيأه للقيام بمهمة ما.
والظاهر أنه حين قام بفرض مذهبه على الإيرانيين، كان واثقا بأنه مكلف بذلك من قبل قوة روحية عليا، فضلا عن الدوافع السياسية والصراع على المرجعية الإسلامية مع الدولة العثمانية، التي لم تكن خافية على أمثاله في ذلك الوقت( ).

ولقد كان إسماعيل رجلاً صوفياً، ومن شأن المتصوفة بوجه عام أنهم يؤمنون بالكشف – أي الإلهام الغيبي– وقد يعلن لمريديه أنه لا يتحرك إلا بمقتضى أوامر الأئمة الاثني عشرية، وأنه لذلك معصوم وليس بينه وبين المهدي فاصل( ). ويبدو أن المستحدثات الصفوية التي جاء بها هذا الرجل، قد انبعثت من هذه النزعة الكشفية فيه إذ يصعب على شخص فرض مثل تلك الأمور على الناس دفعة واحدة دون أن يستند فيها إلى الغيب والكشف والإلهام الروحي.

وسائل نشر المذهب الصفوي

اتخذ الشاه إسماعيل سب الخلفاء الثلاثة، وسيلة لامتحان الإيرانيين، فمن يسمع السب منهم يجب عليه أن يطلب المزيد منه ويوافق عليه.. وإلا قطعت رقبته فورا. وقد أمر الشاه بأن يعلن السب في الشوارع والأسواق وعلى المنابر، منذرا المعاندين بقطع رقابهم.

ولم يكتف هذا الرجل بالإرهاب وحده في سبيل نشر المذهب الصفوي، بل عمد كذلك إلى اتخاذ وسيلة أخرى، هي وسيلة الدعاية والإقناع النفسي، فقد أمر بتنظيم الاحتفال بذكرى مقتل الحسين على النحو الذي يتبع الآن في إيران( ) وهذا الاحتفال كان قد بدأ به البويهيون في بغداد في القرن الرابع الهجري، ولكنه أهمل وتضاءل شأنه من بعدهم، ثم جاء الشاه إسماعيل أخيراً فطوره وأضاف إليه (مجالس التعزية) ثم تطورت هذه المجالس إلى (التشبيه) والتمثيل في العهد القاجاري الذي تلا العهد الصفوي( ).

وكان لقيام إسماعيل الصفوي بتنظيم هذا الاحتفال الأثر في القلوب والنفوس، والدعاية الكافية لتثبيت دعائم التشيع الصفوي المغالى في إيران، والذي قال عنه المفكر الإيراني المعاصر د. علي شريعتي، انه تشيع السلاطين الذي لا يمت بصلة بالتشيع العلوي الأصيل الذي عرفه المسلمون في صدر الإسلام وقرونه الأولى( ).

أما هذا المذهب الصفوي الذي فرضه الشاه إسماعيل فقد قام بإثارة الفتن والصراع بين المسلمين وقام بفصل إيران الصفوية عن بقية العالم الإسلامي، بل تكفيره وإباحة دم المسلمين وقتالهم، كما أمر الشاه إسماعيل هذا أيضا بإدخال الشهادة الثالثة في الآذان، إمعانا في إثارة الفتنة والتمايز بين المسلمين ومذاهبهم( ).

وكانت هذه الشهادة قد أدخلها بعض الغلاة، من أصحاب المذاهب الباطنية الغالية، في الأذان منذ القرن الرابع الهجري، غير أن الشيعة المعتدلين، من أصحاب التشيع العلوي، استنكروا ذلك في حينه ولم يقبلوا بتلك الزيادة على الأذان، ولا تزال هذه الشهادة موضع أخذ ورد عند الشيعة حتى الآن( ).

سار طهماسب على سياسة أبيه إسماعيل، ثم خلفه ابنه بعد وفاته، وهو الشاه عباس الكبير الشاه طهماسب، وقد استعان الصفويون في تدعيم موقفهم المذهبي والطائفي بالمجتهدين والفقهاء من النجف في العراق وجبل عامل في لبنان، وكان أبرز هؤلاء الشيخ علي الكركي العاملي( ) الذي كان في بلاط الشاه طهماسب، وفي خدمة العرش الصفوي بعكس نظيره الشيخ إبراهيم القطيفي الذي لم يقبل التبعية والخضوع لما كان يريده الصفويون، وكان من المعارضين لطريقة الكركي في استرضاء الحكام الصفويين على حساب الدين والمذهب، ومن بين المهاجرين من جبل عامل إلى إيران أيضا، الشيخ حسين بن عبد الصمد، الذي هجر إيران، وترك منصب (شيخ الإسلام) في عاصمة الصفويين واستقر في البحرين ثم ابنه محمد بن حسين المعروف بالبهائي الذي تميز بالاعتدال ومحبة المسلمين وعدم التمييز بين أهل السنة والشيعة، وقد ترك إيران أيضا ونفر من صحبة السلطان، وذهب إلى الحجاز ومصر وفلسطين بعد أن تجول في أسفاره في بلاد الهند والباكستان وكان الشيخ البهائي عالماً ربانياً مجاهداً زاهداً متصوفاً، والظريف أن أهل السنة كانوا يعدونه منهم، ويعده الشيعة أنه منهم أيضا، لشدة إخلاصه للدين، وإيمانه بوحدة المسلمين، وقناعته أن المذهبية وتعددها لا تؤثر في وحدة الدين بل يّدعم الوحدة بين المسلمين، وكذلك عدم تمييزه بين المذاهب، واعتداله في آرائه وفتاويه.

المؤامرة الكبرى على الإسلام في العصور الوسيطة

بعد سقوط الخلافة العباسية ببغداد على يد المغول، عند احتلال هولاكو لبغداد سنة 656هـ / 1258م، تفرق المسلمون إلى إمارات ودول صغيرة، تكيد بعضها إلى بعض، إلى أن ظهرت الدولة العثمانية التي وحّدت كلمة المسلمين واتجهت تنشر الإسلام في أوربا، مما حدا بأعداء الإسلام أن يوقفوا هذا المد الإسلامي الجديد، كما فعلوا في المؤامرة السابقة التي حيكت بالتنسيق بين العالم الصليبي اليهودي والعالم الوثني المغولي بقيادة جنكيزخان، ثم هولاكو، ثم تيمورلنك الذي أسلم فيما بعد، كما أسلم المغول من قبله، ليسجل التاريخ أول سابقة في إتباع الغالب دين المغلوب في عهد السلطان محمود غازان المغولي (وهو حفيد هولاكو)، مظهرا عظمة رسالة الإسلام وقوته في تحطيم المؤامرات التي حيكت ضده، سواء في صدر الإسلام أم في العصر الوسيط أبان الحروب الصليبية والهجمات الشعوبية والمغولية، أم في عصور الحقبة الوسيطة التي شهدت التآمر الأوربي الاستعماري فضلاً عن إفرازات الصراع الطائفي بين الصفويين والعثمانيين وكذا الخبث اليهودي الذي لم يغب يوماً في كل فصول التآمر تلك وحلقاته المريرة وثقلها على العالم العربي والإسلامي قديماً وحديثا.

وقد حيكت في العصور الوسيطة الأخيرة وقبيل عهد الاستعمار الغربي، تجاه العالم العربي والإسلامي مؤامرة خسيسة استهدفت أرض المسلمين ومقدساتهم وحكمهم ومرجعيتهم ورسالتهم، بغية إخضاعهم والسيطرة عليهم نهائياً، وقد اتخذت عدة محاور وصور، فمن الناحية العسكرية

وضع العالم الإسلامي داخل كماشة من الشرق والغرب، بل من الشمال والجنوب أيضا. فأوربا وجيوش الغرب الصليبي من الشمال والغرب، والأساطيل البحرية البرتغالية والإنكليزية من الجنوب، والصراع الصفوي العثماني من الشرق.

وبعد أن فشلت المؤامرة والهجمة الوثنية الصليبية اليهودية في العصر الوسيط وفي القرنين السادس والسابع الهجري بالذات، والتي اندحرت فيها الجيوش الصليبية في بلاد الشام، بقيادة الناصر صلاح الدين الذي انتصر على الصليبيين في معركة حطين وطرد الغزاة من فلسطين وحرر القدس. ثم انهزم – بعد ذلك بقرن – هولاكو وجيشه المغولي في معركة عين جالوت في فلسطين أمام الجيش الإسلامي المصري الذي أنهى أسطورة التفوق المغولي( )، وأذاق المغول الهزيمة الماحقة، ثم الذوبان النهائي في المجتمع الإسلامي، وتفكك التحالف الصليبي اليهودي مع المغول الوثنيين بعد تحولهم إلى الإسلام بل وأصبحوا من دعاته والمبشرين به في أواسط آسيا والصين والهند، أعاد الأعداء الكرة بعد قرون من فشلهم المرير، يدفعهم حسهم الاستعماري وتعصبهم العرقي والديني الذي لا يهدأ، فاظهروا ذلك التآمر والكيد الاستعماري بأشكال عديدة في القرون الأخيرة، وأبرز تلك الأشكال والصور:

- تغلغلهم في البلاط العثماني عن طريق النساء والجواسيس وتحت مظلة الدفاع عن رعاياهم والأقليات غير المسلمة والحصول على الامتيازات القانونية التي تسهل تغلغلهم في البلاد الإسلامية.

- تحالفهم مع الدولة الصفوية ضد الدولة العثمانية في الصراع الدائر بينهما، وتشجيعهم لذلك الصراع الدموي المرير.

- تشجيعهم للحركات الانفصالية في البلاد العربية والإسلامية لاسيما مصر والهند والخليج العربي والجزائر وغيرها.

- التغلغل الفكري والإعلامي الصليبي اليهودي في البلاد الإسلامية.

- تشجيعهم الحركة الصهيونية ودعمهم لإيجاد كيان هزيل لليهود في قلب الوطن العربي في فلسطين.

فبعد أن فشلت المؤامرة الصليبية الوثنية اليهودية، باعتناق قادة المغول والتركمان والتيموريين الإسلام، بقيت بعض الجيوب غير المنظورة لهؤلاء الغزاة في لبنان وسواحل الشام، من الغلاة وأتباع الغرب الصليبي، وأوصى الباطنيون بالتنسيق مع اليد الغربية الخفية إلى الغلاة في لبنان وفلسطين بالنظرية السياسية التي تبنتها الدولة الصفوية فيما بعد.. وهي ضرورة إثارة الصراع الطائفي وتكفير أهل السنة، لأنهم لم يؤمنوا بإمامة علي مما دفع الشيخ علي الكركي العاملي في زمن الشاه طهماسب والمجلسي في زمن الشاه سليمان بن عباس الثاني ومن شايعهم بوضع التشيع الصفوي الذي دفع بأنصاره لمقاتلة أهل السنة، لأنهم يعترفون بخلافة أبي بكر وعمر وعثمان والذين هم في نظر التشيع الصفوي المغالي مرتدون لأنهم خالفوا وصية الرسول في غدير خم، حيث اغتصبوا الخلافة والإمامة من علي .

وهكذا فتح الصراع الدموي الطائفي بين المسلمين على مصراعيه. هذا من جهة الشرق، أما الغرب، فقد توجهت إسبانيا صوب الأندلس (فردوس العرب المفقود) ومن إسبانيا والبرتغال إلى

الحدود الغربية والجنوبية عبر أفريقيا ورأس الرجاء الصالح وعدن وعمان والبصرة. فاحتلت أساطيل البرتغال – بعد سقوط غرناطة آخر معاقل الأندلس – سواحل البحر الأحمر الجنوبية والبحر العربي والخليج العربي.. ثم سقوط الهند بيد الاستعمار الإنكليزي.

وقد واجه العثمانيون أوربا كلها بدولها الطامعة في استعمار الشعوب وعلى رأسها أسبانيا والبرتغال وإنكلترا وفرنسا وروسيا القيصرية -الجارة المتربصة والطامعة في الأراضي العثمانية والصفوية- كما واجه العثمانيون الصفويين في الجنوب الشرقي، والمماليك في مصر وأفريقيا.

أوربا تستعين بالصفويين ضد العثمانيين

كان العثمانيون يتقدمون في قلب أوربا، حيث وصلوا إلى أبواب فينا عاصمة النمسا وحاصروها أشهراً عديدة، كما وصلوا إلى إيطاليا، وحاصروا البندقية وهددوا روما ومعظم الساحل الأوربي للبحر المتوسط، سعياً منهم لإنقاذ غرناطة في الأندلس وفك الحصار الإسباني على الأندلس والمغرب العربي، بعد أن تم لهم فتح القسطنطينية عام 1453م على يد السلطان محمد الفاتح العثماني المعروف.

في تلك الظروف، وفي زمن السلطان سليمان الذي كان العثمانيون في عهده في أوج قوتهم العسكرية وتقدمهم في عمق أوربا، وبعد أن سقطت غرناطة في الأندلس، بأيدي الأسبان، وهزم العثمانيون الصفويين في جالديران واستعادوا بغداد منهم على يد السلطان سليمان، وكذلك حصاره فينا عاصمة النمسا وتهديده لإيطاليا، فكر الأوربيون بالتحالف الستراتيجي مع الصفويين، لدفع الخطر العثماني عن أوربا وأنهاك المسلمين بحروب داخلية، تكون لمصلحة أوربا في كافة الأحوال. فأرسلت إنكلترا سفيراً لمقابلة الشاه طهماسب في مدينة (قزوين) سنة 1535م ولكنه طرد السفير، عندما شعر أنه نصراني يريد أن يزيد الفتنة بين المسلمين( )، غير أن الدولة الصفوية ضعفت ضعفاً شديداً في أيام الشاه طهماسب لأن رؤساء الجند من التركمان تقاسموا السلطان مع إمارتهم وتركوا الشاه لمصيره في أثناء الصراع الحاسم مع الأتراك.

ثم عادت الدولة الصفوية فانتعشت من جديد في عصر الشاه عباس الكبير (996-1038هـ/ 1587-1629م) وهو الذي جدد قوة الدولة العسكرية وسمح لمدربين من الإنكليز بإنشاء فرق محاربة على النظام الحديث، تظاهي فرق الانكشارية العثمانية قوة ونظاما.. وبذلك استطاع الشاه عباس أن يقف بوجه العثمانيين، وقد استعان باختصاصين من الإنكليز في شؤون الحرب. وتمكن من تحويل إيران إلى قوة عسكرية يحسب لها حساب.

وفي سنة 1011هـ/ 1602م وبمعاونة الإنكليز استطاع الشاه عباس أن يطرد البرتغاليين من جزيرة هرمز، وعندما توفى الشاه عباس سنة 1629م بعد أن حكم 42 سنة، كانت إيران قد أصبحت قوة ضخمة في الشرق الأوسط، بملكات الشاه ومواهبه وبالقسوة التي اشتهر بها أيضا. ولم يرث خلفاؤه إلا القسوة، وأسرع التدهور إلى البيت الصفوي، فاسترد العثمانيون العراق وبغداد ثانية، ووصل تدهور إيران أقصاه سنة 1136هـ/ 1724م عندما تمكن العثمانيون من اجتياح إيران واقتسام الولايات الإيرانية في الشمال، حتى جاء نادر شاه لتستعيد إيران قوتها ومساحتها السابقة، وذلك سنة 1148هـ/ 1735م.

مؤامرة النساء الأجنبيات في البلاط العثماني والصفوي

إن زواج المسلمين: لاسيما قادتهم وملوكهم من الأجنبيات (أهل الكتاب) هو سلاح ذو حدين، ففي حالة قوة الإسلام وعمق إيمان رجاله وانقيادهم التام لتعاليم القرآن وهدي النبوة وهيمنة تلك التعاليم على الحياة يمكن أن ينفع، باعتباره أحد وسائل الدعوة إلى الإسلام والتأثير في نفوس الشعوب الداخلة في الإسلام حديثاً أو التي هي في طريق الدخول في دين الله، كما حدث في عصر النبوة الزاهر وعصر الصحابة( )، فأدت هذه الطريقة إلى إزالة الحاجز النفسي بين تلك الشعوب المغلوبة وبين الإسلام، فسببت دخول الناس في الدين الجديد أفواجاً، أما في الأحوال الأخرى التي تتزامن مع الفتن والظروف السياسية المعقدة وكثرة خصوم الإسلام وتعاظم دسائسهم، فانه لا يأمن المسلمون من أن تكون تلك النساء جواسيس على الحكام والملوك والقادة والوزراء كما حدث مراراً في التاريخ الإسلامي، في الأندلس وبلاد الشام ومع العثمانيين والصفويين كما سنرى.

لقد كانت مؤامرة النساء الأجنبيات في البلاط العثماني والصفوي أشد خطرا من المؤامرات السياسية والتحالفات العسكرية التي قام بها الأعداء ضد الدول الإسلامية. ففي البلاط العثماني كانت ركسلانة الروسية الصليبية زوجة السلطان سليمان القانوني، ونوربانو الإيطالية اليهودية زوجة السلطان سليم الثاني بن سليمان، هما أخطر امرأتين كان لهما أثر حاسم في مجريات الأحداث السياسية والعسكرية في الدولة العثمانية منذ عهد السلطان سليمان وحتى مرحلة التخلف وانهيار الدولة ثم سقوطها بعد قرون طويلة من الوهن والضعف.

أما البلاط الصفوي فقد كان لام الشاه إسماعيل الصفوي، مارته بنت حسن الطويل، وأمها كاترينا بنت كارلو يوحنا ملك مملكة طرابزوت المسيحية، وتدعى مارته (حليمة بيكم) أيضا، كان لهما دور مهم في حياة الشاه إسماعيل فهما اللتان ربتا الشاه إسماعيل بعد مقتل أبيه وهو ابن سنة واحدة.

وفي البلاط العثماني، كان السلطان سليمان القانوني قد هام بزوجته ركسلانه حتى الوله، وكان ابنهما سليم الثاني قد زوجته أمه ركسلانة من نوربانو اليهودية الإيطالية (من مدينة البندقية) التي كان يكثر فيها اليهود لأنها مدينة تجارية، كما كان السلطان سليم الأول ثم ابنه سليمان قد حاصراها براً وبحراً وكانت في عداد المدن التي كان فتحها وشيكاً أمام المسلمين في طريق فتحهم لمدينة روما في قلب إيطاليا.

أما الجذور التاريخية لدخول النساء الأجنبيات في البلاط الصفوي فترجع إلى صلة جنيد بن صدر الدين جد الشاه إسماعيل بحسن الطويل مؤسس دولة الخروف الأبيض في ديار بكر. كان لصفي الدين منزلة دينية ورثها منه ابنه صدر الدين الذي حرر من أسر تيمورلنك جماعة من الأتراك، كان قد أخذهم من ديار بكر، ولما حرروا من الأسر أصبحوا من مريدي الشيخ( ).

وارتحلت جماعات من أعقاب هؤلاء الأسرى إلى جيلان وعضدوا الصفويين في تأسيس دويلتهم، وتعاظم أمر الصفويين حتى خشي عاقبة أمرهم ميرزا جهان شاه، ثالث حكام دولة الخروف الأسود، فنفى من أذربيجان الشيخ جنيد بن صدر الدين. فالتجأ جنيد إلى حسن الطويل، فأكرم مثواه وأنزله على الرحب والسعة، وزوجه من أخته (خديجة بيكم) ثم سافر إلى شروان وأقام فيها، وقتل هناك بعد مدة. وقد تزوج ابنه الشيخ حيدر بن جنيد (859هـ / 1455م) من بنت خاله حسن الطويل من زوجته (كاترينا) الأميرة اليونانية بنت الملك كارلو يوحنا، والتي تدعى (حليمة بيكم)

وتكنى أيضا (عالمشاه) خاتون، واسمها الحقيقي (مارته)، فولد من هذا الزواج علي وإبراهيم وإسماعيل مؤسس الدولة الصفوية.

بداية الانحطاط العثماني ودور ركسلانة زوجة القانوني فيه

غالباً ما يقال إن قتل السلطان سليمان القانوني لولديه مصطفى وبايزيد، قد سبب في اعتلاء السلطان السكير سليم الثاني بن ركسلانه الروسية وبداية انحطاط العثمانيين. وقد يكون سبب ذلك أن خوف سليمان القانوني من ضعف أولاده جعله يحاسبهم بقسوة غير إنسانية عند أول بادرة خروج عن الولاء. وقد وصفه المؤرخ (باقي) أنه (لا يزحزح كالقدر)، ومن المؤكد إن قسوة سليمان في تنفيذ أحكام الإعدام كانت بصورة رئيسية ضمن عائلته( ).

ولكن حين حكمت النساء، انتهت مع سليمان القوة التي (لا تتزحزح كالقدر) التي خصت العائلة بحكم الأمة. فقد انتقل سليم الثاني بن سليمان فوراً إلى حرم السراي مع أهل بيته المؤلفين من مائة وخمسين امرأة من جميع الدرجات. والقول السائد هو أن (ركسلانة) الصليبية زوجة سليمان وأم السلطان الفاسد، هي التي بدأت ذلك. فقد كان دخولها السراي المحروس أمرا خطرا كما ثبت فيما بعد. ففي الممرات المزدحمة وحجر السراي وجدنا النساء أنفسهن ضمن الهمس في الديوان، فكنّ يعشن وينمن على بعد ياردات من محافظين السود الذين كانوا مزدحمين أمام الحرس الخارجي الأبيض. وكانت الخزينة ملاصقة لغرفة العرش الداخلية. وأكثر من ذلك كانت زوجتي سليمان (كُلْ بهار) أم مصطفى، و (ركسلانة) الروسية (وهي من الجنس السلافي المتعصب) أم سليم، وتسمى أيضا خرّم أي الضاحكة، تسكنان القصر (السراي). وكان السلطان يحب ركسلانة حبا جماً، ويثق بها إلى حد أنه يتهم قومه. ويتهمها الآخرين بأنها كانت ساحرة تستعمل قوتها السحرية للتأثير على السلطان، وبسبب ذلك كان الجيش يكرهها، كما يكرهها أولادها أيضا (سليم، بايزيد، جهان) ولكن لا يجرأ أحد على الاعتراض على ذلك لأن السلطان يحبها ذلك الحب المفرط.

أما أهم أعمال ركسلانة ودسائسها التي أدت إلى انحطاط الدولة العثمانية وضعفها التدريجي الذي أدى إلى تخلفها وسقوطها:

إغراء السلطان سليمان القانوني بقتل ابنه وولي عهده مصطفى جلبي الذي كان يقود جيشه ضد أوربا والدولة الصفوية، وكانت الانتصارات العديدة في الشرق والغرب تثير مخاوف أوربا والدولة الصفوية.

أغرته بعدم قيادة الجيوش في الحرب (وهو تقليد عثماني أصيل وإسلامي عريق) مما سبب للجيوش العثمانية الهزائم.

أغرته بالانصراف إلى اللهو والمظاهر المادية وترك إدارة الدولة بيد الصدور العظام، والتي كانت تشرف هي على ترشيحهم وتعينهم وسياستهم.

شغلته في حبها ولهوها عن أمور كثيرة، سياسية واقتصادية وحضارية، لأنه سلمها إلى حاشية ركسلانة، مما أدى إلى استفحال الفساد الإداري وانتشار الرشوة والخيانة، وجمع المال على حساب

الشعب، وإثارة الحسد بين قادة الجيش ورجال السياسة والإدارة وتنظيم الدسائس والمؤامرات بين القادة والمسؤولين والأمراء والوزراء.

وأخطر من كل ما تقدم، هو إقناعها السلطان سليمان القانوني بتوقيع معاهدة مع فرنسا، وإعطاؤها صلاحيات غير محدودة بما يسمى تاريخيا، منح الامتيازات الأجنبية التي كانت سبباً لتدخل الدول الاستعمارية فيما بعد في شؤون الدولة، بحجة حماية الأقليات غير المسلمة ورعايا الدول الأخرى، وجعل هؤلاء الرعايا والأقليات غير خاضعين لأحكام الشريعة الإسلامية، بحجة عدم كفاية الشريعة لحقوقهم، واستبدال أحكام الشريعة بالقوانين الوضعية الأوربية، مما مهد للغزو الفكري والثقافي الأوربي الاستعماري للشرق الإسلامي، ومن هنا جاءت تسمية السلطان سليمان بالقانوني وذلك لأنه سمح للقوانين الأوربية أن تتحكم في شؤون الدولة العثمانية بموازاة القضاء والفقه الإسلامي الذي كان يحكم الدولة العثمانية حتى ذلك العصر. ومن المعلوم أن هذه التداعيات كانت من الأسباب المهمة لضعف الدولة العثمانية والتمهيد لسقوطها بعد مدة طويلة من التخلف والوهن العام.

مهدت ركسلانة لزواج ابنها سليم الثاني من اليهودية الإيطالية (نوربانو) التي كان لها أثر في البلاط العثماني أكثر مما كان لعمتها الصليبية ركسلانة، والتي انتهت حياتها بالقتل على يد ابنها سليم الثاني نفسه، للتخلص من دسائسها وخبثها وتآمرها.

وهكذا يبدو جلياً أن العلل الفتاكة لا تظهر في حال القوة وعنفوان الشباب والبناء والتألق ولكنها تظهر حين الضعف والوهن، ومن هذه العلل القاتلة الزواج بالأجنبيات غير المسلمات، فكم مسلم مخلص تحول إلى أجير مسلوب الإرادة بتأثير النساء اللاتي دسهن الغرب بيننا عن طريق ثغرة الزواج بالأجنبيات لاسيما الكتابيات.

وأدناه قائمة بأسماء السلاطين العثمانيين الذين تزوجوا من أجنبيات:

أورخان بن عثمان، وهو الذي استولى على القسم الآسيوي من الدولة البيزنطينية، وجاور عاصمتها القسطنطينية، فاضطر إمبراطورها جان باليولوج إن يستنجد به على ملك الصرب وزوّجه ابنته.

مراد الأول تزوج من بنت ملك الصرب والبلغار.

بايزيد بن مراد الأول، تزوج شقيقة ملك الصرب.

سليمان بن بايزيد تزوج من بنت أخت الإمبراطور قسطنطينة عمانوئيل الثاني.

مراد الثاني تزوج (مارا) بنت ملك الصرب جورج برتكوفيتش.

سليمان القانوني تزوج من ركسلانة الروسية وتدعى خرّم (الضاحكة).

سليم الثاني تزوج من نوربانو اليهودية من مدينة البندقية والتي سميت بعد ذلك بـ (صفية) تبركاً بعمل النبي حين تزوج من صفية بنت حيي بن أخطب التي كانت يهودية قبل أن تسلم على يدي رسول الله وهي من معجزاته وتأييد الله له، حيث فتح الله قلبها للإسلام بعد أن قُتِلَ أبوها وعمها وزوجها في غزوة بني قريظة.

إذن: كانت ركسلانة ونوربانو، أهم النساء الأجنبيات في البلاط العثماني، استطاعتا هدم الدولة من الداخل، قبل عصر الضعف والوهن وتغلغل يهود الدونمة والإطاحة بالخلافة، بقرون.

ومن جهة أخرى يذكر إسماعيل الشطي، في مقال في مجلة المجتمع( )، وعنوان المقال: كيف دب الضعف في جسم الدولة العثمانية وضمن فقرة يهوديات في القصر، ما ملخصه:

في سنة (1529) أصبحت (استيرك يرا) هي المسؤولة عن كافة جمارك الأستانة بإدارة ملكية من السلطان سليمان، وهي امرأة يهودية فنانة .. جميلة ذات جاذبية فائقة .. تمكنت من النفوذ إلى دائرة حرم السراي في الأستانة حتى استطاعت أن تخرج بهذا المنصب الخطير، ومنه استطاعت أن تمتص خزائن الدولة، كما أصبحت واسطة الارشاء لذوي النفوذ في القصر مقابل عمولة كانت تأخذها منهم. وقد سهلت نوربانو في عهد زوجها سليم الثاني كثير من الأمور لها ومكنتها من النفوذ.

وقد لوثت نوربانو عصر سليم الثاني بكثير من المساوئ. فكان سليم فاسداً غارقاً في الشهوات حتى أطلق عليه (الثمل) وكان واقعاً تحت سيطرتها، وبدأ عهده باغتيال (إخوته) أبناء القانوني وأحفاده الصغار بصورة مأساوية، وبسبب نوربانو استطاعت فرنسا وغيرها أن تحقق مطالبها وأهدافها الخبيثة عند السلطان وتتغلغل في الدولة العثمانية بشكل متسارع.

أما اليهودية (استيرك يرا) فقد ازداد نفوذها أكثر في عهد السلطان(مراد الثالث) ابن نوربانو التي كانت تسيّر ابنها كيف تشاء. وقد جاءت استير بصديقة يهودية لها اسمها (بافا) إلى القصر، وأصبحت (بافا) معشوقة مراد الثالث، وهي امرأة بندقية، وقد استفادت كثيراً من خدمات استير وابنيها (ايليا) و(يوسف) في زمن السلطان (محمد الثالث).

لقد كانت خزينة الدولة تخسر مبالغ ضخمة تذهب إلى استير وأعوانها في السراي من أعضاء اللوبي اليهودي المتزايد النفوذ. ولعله كانت هناك اتصالات سرية مهمة قد جرت بين هذا اللوبي ويهود الأندلس (إسبانيا) بعد طردهم من الأندلس إلى المغرب في القرن الخامس عشر وما بعده بعد سقوط غرناطة وإقامة محاكم التفتيش في أسبانيا ضد المسلمين واليهود، فكانت أن أثمرت تلك الاتصالات والجهود في عهد السلاطين الذين خضعوا للنفوذ اليهودي الغربي منذ عهد سليمان وابنه سليم الثاني مروراً بعد مراد الثالث ومحمد الثالث، أثمرت عن موافقة الدولة العثمانية لاستقبال تلك الجالية اليهودية ونقلها من المغرب إلى غرب الدولة وبجوار عاصمتها الأستانة، في منطقة (سلانيك) المحاذية لأوربا أيضا (إيطاليا وفرنسا وألمانيا وغيرها)، وهم الذين سمّوا بعد ذلك بيهود الدونمة، الذين أظهروا الإسلام وأبطنوا اليهودية، شأن تلك النسوة اليهوديات اللاتي كنَّ يتجسسن على الدولة العثمانية باسم الإسلام والتواجد في قصر السلطنة كما رأينا، وقد استطاع يهود الدونمة أن يدقوا آخر مسمار في نعْش الإمبراطورية العثمانية ويقضوا عليها إلى الأبد بعد أن سيطروا على الاقتصاد والسياسة والإعلام وأقاموا الأحزاب والجمعيات، وتصدوا لقيادة الدولة بعد قضائهم على آخر السلاطين المخلصين وهو السلطان عبد الحميد الثاني وذلك سنة 1908 والإطاحة به، وبسقوط الدولة العثمانية بعد الحرب العالمية الأولى بدأت فعلاً الغزوة الصليبية التاسعة الأخيرة، وبدأ عهد الاستعمار الغربي والتمهيد لقيام إسرائيل والغزو الفكري ومحاولة القضاء على الإسلام ديناً وفكراً وحضارة، وطرح الحضارة الغربية للعرب والمسلمين كبديل

للحضارة والهوية العربية والإسلامية باسم العلمانية والعولمة والحتمية التاريخية وغيرها من المفاهيم الغربية المعاصرة.

مقتطفات عن الدور اليهودي الغربي

في الصراع الصفوي العثماني

1. جاء في كتاب يهود آسيا، أن يهود إيران افتتنوا بأعمال الشاه إسماعيل الصفوي العسكرية وسعوا للحصول على رضائه، إلا أنهم مع إعجابهم وخضوعهم له، لا يظهر أنهم توفقوا لنيل التفات ملكهم المستبد والشديد الشكيمة.

2. وذكر صاحب خلاصة تاريخ العراق ، للأب انستاس الكرملي ص195:

وكان الشاه إسماعيل.. قد قتل كثيراً من مسلمي السنة وذبح جميع نصارى المدينة (بغداد)، أما اليهود فانه لم يتعرض بهم.. وكانوا يهدون إليه الهدايا الجليلة والأموال الطائلة لاحتياجه إليها يومئذ. وان الشاه إسماعيل لم يعاد اليهود وترك لهم الحرية في أعمالهم وأشغالهم.

3. ويذكر أحد الرحالة الإيطاليين (1511-1520)م في معرض كلامه عن مدينة تبريز ما يأتي: وهناك يهود أيضا ولكنهم ليسوا من سكانها المقيمين فيها، بل أنهم جميعهم غرباء يأتون إليها من بغداد وكاشان ويزد، وهم من التبعية الصفوية، فيسكنون في الخانات كسائر التجار الغرباء.

4. كان الموفدون البنادقة( ) يحثون الشاه للقيام بذلك الغزو للأطراف الشرقية للدولة العثمانية، ويعملون بحذق لتسليط قوة الشاه في حرب على مؤخرة العثمانيين. فحرب كهذه ستخفف الضغط على فيينا وإيطاليا والبحر المتوسط، إذا أمكن إيقاد نارها.. وكان السياسي الفرنسي يوسفيك نفسه سيكتب بعد أمد غير طويل.. أن الإيرانيين فقط يقفون بيننا وبين الدمار( ).

5. وقد شهد القرن السادس عشر تحالفا بين الاستعمار البرتغالي وبين الشاه إسماعيل للقضاء على النفوذ العربي في منطقة الخليج.

6. في سنة 1708م أرسل الشاه (حسين) الصفوي وفدا رسميا إلى ملك فرنسا لويس الرابع عشر، ووقع معاهدة تحالف بين فرنسا و إيران، نصت في إحدى موادها على أن يقوم الفرنسيون بإرسال أسطول إلى الخليج العربي لمساعدة إيران على احتلال مسقط.

7. وفي سنة 1837م قامت حملة فارسية بقيادة لطيف خان من ميناء بندر عباس بمعاونة أسطول شركة الهند الشرقية (وهي شركة إنكليزية معروفة) بغزو رأس الخيمة.

8. وفي منتصف القرن التاسع عشر اتفقت إنكلترا و إيران (القاجارية) على ضرورة وضع خطة محكمة لنشر التشيع الصفوي بين العشائر العربية في جنوب العراق والخليج، وتتعهد الحكومة الإنكليزية بتسهيل مهمة الوافدين الإيرانيين واستحصال موافقة والي بغداد والباب العالي العثماني على ذلك والترتيبات اللازمة له، ويتعهد الجانب القاجاري بإرسال رجال الدين والأموال اللازمة لتنفيذ تلك الخطة، وذلك بغية زعزعة قبضة الدولة العثمانية ووالي بغداد على جنوب العراق والخليج، لتامين طريق الهند التجاري والعسكري من خلال السيطرة الإنكليزية على الطريق البري

والبحري الإستراتيجي المتمثل بخط الشام - بغداد – البصرة – البحرين – رأس الخيمة – مسقط – موانئ إيران الجنوبية – الهند. وفعلا تم تحويل انتماء معظم العشائر العربية إلى التشيع الصفوي لتكفير باقي المسلمين وضمان ولائهم لإيران بما يعود إلى إضعاف العراق واستفادة السياسة الاستعمارية الإنكليزية من الورقة الطائفية.

تآمر المماليك على العثمانيين

عندما رأى سلطان المماليك (الغوري) إن الشاه إسماعيل الصفوي -حليفه- قد اندحر في معركة جالديران، عرض وساطته لدى السلطان سليم الأول على عقد صلح بين الشاه والسلطان سليم، إلا أن السلطان طرد مبعوثه، وسار بجيش نحو بلاد الشام وتقابل مع جيش الغوري في مرج دابق شمال غربي حلب فدقه بالمدافع، وقتل الغوري وهو ابن الثمانين بعدما خرج من جيشهِ أمير حلب وأمير دمشق وأمير لبنان فاحتل العثمانيون بلاد الشام ثم مصر وحينذاك تنازل الخليفة العباسي الأخير في القاهرة (محمد المتوكل) عن الخلافة للسلطان سليم الأول سنة 1518م ثم جاء شريف مكة إلى مصر وقدم مفاتيح الحرمين الشريفين إليه.

وبعدها تم فتح اليمن أيضا. وهكذا استطاع السلطان سليم الأول أن يوحد البلاد، ليحارب فرسان الصليب في قلب أوربا.. ولكن المنية عاجلته في سنة 1520م ليأتي بعده ابنه السلطان سليمان القانوني، لتبدأ مرحلة الوهن والضعف والتخلف والركون إلى الدنيا بعد مدة غير طويلة من عهد التألق والقوة التي اتصف بها العثمانيون خلال القرنين الخامس والسادس عشر الميلادي.

الاحتلال الصفوي الثاني لبغداد

في عهد الشاه عباس، استطاع الصفويون من احتلال بغداد مرة أخرى، وذلك سنة 1623م بعد حصار دام ثلاثة أشهر، والظاهر أن الشاه عباس، قد فعل ببغداد عند احتلالها، مثلما فعل جده الشاه إسماعيل، وربما زاد عليه، فقد هدم مرقدي الإمامين أبي حنيفة والشيخ عبد القادر الجيلاني وقتل عدداً كبيراً من أهل السنة، وقد نجا الباقون بشفاعة كليدار الحضرة الحسينية( ).

دور الشيخ المجلسي في العصر الصفوي

من أشهر المجتهدين المتشددين الذين شهدتهم الدولة الصفوية هو الشيخ المجلسي في أواخر الدولة الصفوية، إذ توفى سنة 1699م، أي قبل سقوطها بثلاث وعشرين سنة. أشهر كتب (المجلسي) كتاب (بحار الأنوار) الذي يتكون من خمسة وعشرين مجلدا ضخما، وكتبه باللغة العربية، بينما كانت مؤلفاته الأخرى بالفارسية، منها كتاب (حق اليقين) وكتاب (مرآة العقول) وغيره.

لقد كان كتاب (بحار الأنوار) من أضخم الكتب في التراث الإمامي ويعد موسوعة كبرى، إذ هو جمع معظم أحاديث الشيعة وأخبارهم وعلومهم، وفي رأي بعض الباحثين، أن المجلسي أساء إلى التشيع بهذا الكتاب أكثر مما نفعه فهو قد جمع فيه كل ما عثر عليه من الأخبار والقصص والأساطير (من الغث والسمين) ثم وضعها في متناول كل من يريد الاغتراف منها، وجاء بعدئذ قرّاء (التعزية) وخطباء المنابر، فصاروا يأخذون منه ما يروق لهم، فذا ملأوا أذهان العامة بالغلو

والخرافة وجعلوهم يحلقون في عالم من الأوهام لا صلة له بالواقع الذي يعيشون فيه. وعندما تم تأليف كتاب (بحار الأنوار) أوقف الشاه سليمان بعض أملاكه الخاصة في سبيل نسخ الكتاب وتوفيره للطلبة( ). وحين أدخلت المطبعة الحجرية في إيران في العهد القاجاري كان هذا الكتاب من أوائل المؤلفات التي طبعت فيها على نطاق واسع، وقد وردت إلى العراق والخليج منه نسخٌ كثيرة، مما أدى إلى انتشار معلوماته (الغثة) في أوساط العراقيين (والخليجيين) أيضا على منوال ما حدث في إيران( ).

فتح بغداد ثانية

استطاع السلطان العثماني المعروف مراد الرابع أن يفتح بغداد مرة أخرى، ويستردها من الصفويين سنة 1638م بعد احتلال صفوي دام خمسة عشر عاما في زمن شاه عباس. ولقد نجح مراد الرابع في استرداد بغداد، بعد أن فشل مرتين قبل ذلك، حين أرسل إلى بغداد قوات كبيرة سنة 1624م، ثم أعاد الكرة سنة 1630م. وقد حوصرت بغداد في كلتا المرتين وضيق عليها الخناق ولكن الجيش العثماني اضطر إلى رفع الحصار في المرتين. والعودة من حيث أتى، بسبب قوة الحامية الصفوية على لبغداد، والتحصينات المنيعة التي أحيطت بسور بغداد، وبسالة الصفويين في الدفاع عن أنفسهم ومعسكراتهم حول بغداد، وضخامة الإمدادات وسرعة إيصالها من أصفهان إلى الحامية الصفوية في بغداد عبر حوض ديالى الحدودي بين إيران والعراق. مما اضطر السلطان العثماني مراد الرابع إلى قيادة الجيش بنفسه، وحاصر بغداد أربعين يوما، وحدث قتال شديد بين الطرفين، حتى تم له فتحها، وفي أعقاب ذلك حدثت مذبحة كبيرة للحامية الإيرانية، بحجة أن الحامية أخلت بشروط الاستسلام( ).

اتفاق الصلح العثماني الصفوي

بعد مضي سنة واحدة على فتح بغداد بيد السلطان مراد الرابع عقد صلح بين الدولتين العثمانية والصفوية، وذلك سنة 1639م وقد قدر لهذا الصلح أن يدوم طويلاً، إذ استمر أكثر من تسعين سنة، ومن أهم أسباب هذا الصلح أن الدولة الصفوية كانت في حينه تعاني الانحطاط والوهن، فقد جاء بعد الشاه عباس الكبير، حفيده الشاه صفي الدين الذي كان منغمساً في الملذات والسكر والنساء، وكذلك ابنه الذي جاء بعده عباس الثاني، وكذا حفيده الشاه سليمان( ) الذي ترك أمور الدولة بأيدي عبيده والملا محمد باقر المجلسي يتنافسون عليها، وانغمس الشاه في الخمرة والنساء خلال فترة حكمه الذي دام أكثر من ربع قرن (1666-1694م).

كما كانت الدولة العثمانية هي الأخرى تعاني في تلك الحقبة من الانحطاط والوهن، فبعد السلطان مراد الرابع( )، آخر السلاطين العظام في الدولة العثمانية، بدأ التخلف والضعف يدب في كيان الدولة، وبدأ التفوق الأوربي وتهديده للدولة العثمانية، وظهر الصراع الغربي المعروف والمسمى (بالمسألة الشرقية) على تقسيم إرث الدولة العثمانية من الخارج، والصراع بين القديم والحديث يتفاقم في داخل الدولة المسلمة مما أسهم في توقف النزاع الطائفي الدموي بين العثمانيين والصفويين لحقبة من الزمن. علماً بأن من بين أهم أسباب ذلك الوهن والتخلف الذي أصاب

الدولتين المسلمتين هو الصراع الدامي الذي بدأ منذ قرنين ومع نشأة الدولة الصفوية بالتحديد، فضلا عن الدسائس والمؤامرات والتحديات التي كانت تواجه الدولة العثمانية( ).

سقوط الدولة الصفوية

انهارت الدولة الصفوية أخيراً على يد إحدى القبائل الأفغانية وذلك في سنة 1722م. والجدير بالذكر أن الدولة الصفوية كانت أيام قوتها قد احتلت جزءا كبيرا من بلاد الأفغان، واضطهدت الأفغان السنة فيها، ولكنها لم تنجح في تحويلهم إلى التشيع كما نجحت في إيران، وظل الأفغان يتحينون الفرصة للانقضاض على الدولة الصفوية، والانتقام منها. شن الأفغان الحرب على الصفويين بقيادة أمير ويس، وبعد مدة توفى أمير ويس وذلك سنة 1715م، فخلف ابنه أمير محمود، الذي تم له فتح العاصمة الصفوية أصفهان سنة 1722م، وأعلن سقوط الدولة الصفوية، ثم تولى قيادة الأفغان بعد أمير محمود، ابن عمه أشرف خان سنة 1725م، وفي تلك المرحلة بدأ النزاع بين الأفغان وبين العثمانيين، وقد بدأ النزاع بين هاتين الدولتين رغم أن كلتا الدولتين من أهل السنة ويتبعان مذهباً واحداً هو المذهب الحنفي، وقد بدأ النزاع بشكل نزاع فقهي حول المرجعية باعتبار أن الأفغان سنة، ثم تطور إلى نزاع السيف، واستطاع أشرف خان أن يهزم العثمانيين في البداية على الرغم من قلة عدد جيشه وبساطة معداته العسكرية، بعد أن رفع لافتة استنكار القتال بين أهل السنة( ). وفي سنة 1727م تم الصلح بين الفريقين، على أن يعترف الأفغان بخلافة السلطان العثماني، وأن يبقى أشرف خان ملكا على إيران وبلاد الأفغان وكالة عن السلطان العثماني.

ظهور نادر شاه

يعد نادر شاه من طراز القادة النادرين أمثال الاسكندر أو المنصور أو جنكيز خان، وقد سماه المستشرقون الأوربيون (نابليون الشرق) وقد نشأ نادر نشأة وضيعة شأنه شأن معظم جبابرة التاريخ، إذ كان في صباه راعيا للغنم بالقرب من خراسان، ثم صار قاطع طريق تتبعه عصابة من الأشقياء وأخذ أتباعه يزدادون حتى بلغوا سنة 1727م نحو خمسة آلاف محارب.

وقد توافق في ذلك الحين. أن ظهر في مازندران رجل يطالب بعرش إيران يدعى طهماسب شاه، وهو ابن الشاه حسين آخر ملوك الدولة الصفوية فأسرع (نادر قلي) إليه واضعا نفسه وأتباعه تحت أمره.

وضع طهماسب ثقته في نادر قلي وسلمه قيادة جيشه، وأخذ نادر قلي يكسب الانتصارات تباعا، فتمكن في سنتين من طرد الأفغان وقضى على أشرف خان، واستطاع أن يطرد العثمانيين من مناطق إيران الغربية، وهكذا استعادت إيران حدودها القديمة، وخيل للناس أن الدولة الصفوية عادت إلى الحياة من جديد. وعاد التوتر والنفير من جديد بين العثمانيين والإيرانيين وقد خاض نادر قلي حروبا عديدة، وقد حاصر (نادر) بغداد مرتين كما حاصر الموصل أيضا، وبعد كر وفر استطاع نادر أن يفرض نفسه على الإيرانيين باعتباره الرجل الأول بعد عزل طهماسب شاه، ونصب مكانه على العرش ابنه الرضيع، وجعل من نفسه وصيا على هذا الملك الصغير.

وفي سنة 1736م وفي الاحتفال بعيد النيروز، وبعد انتصارات كبيرة ومثيرة أحرزها نادر قلي في نواحي أذربيجان وقفقاسيا على الجيوش الروسية والعثمانية، أعلن (نادر) موت الشاه الطفل الذي كان هو وصيا عليه، وطلب من أعيان الدولة وقادة الجيش الإيراني أن يختاروا ملكاً جديداً.

ولادة مشروع المذهب الخامس

اختار القادة والوجهاء الحاضرون نادر قلي أن يكون ملكا عليهم لكنه اظهر التمنع ورفض الاستجابة لهتاف الحاضرين، وأصر نادر على موقفه طيلة شهر كاملٍ، ثم رضي أخيراً بأن يتولى العرش ولكن بعد أن اشترط لذلك شروطاً أثارت الدهشة في الناس وكان أهم تلك الشروط، هو أن يترك الإيرانيون سب الخلفاء ومواكب العزاء وجميع الأمور التي من شأنها التفريق بين الشيعة وأهل السنة، وكان أحد المجتهدين قد اعترض على هذا الشرط ولكنه مات فجأة، مما جعل الآخرين يحجمون عن المعارضة، وانتهى الاجتماع بقبول الشروط التي أرادها الملك الجديد( ). وجرى بعدئذ تتويج نادر قلي باحتفال عظيم، وصار اسمه بعد هذا التتويج (نادر شاه).

لقد كان نادر شاه شخصية متميزة ذات طموح سياسي كبير، وان مشروعه هذا لا يقل أهمية عن نجاحاته العسكرية وانتصاراته الكثيرة، رغم ما تكبد خلالها من صعاب وهزائم.

وقد حاول فلاسفة التاريخ والمحللون إيجاد تفسير للدوافع التي دفعت نادر شاه لتبني هذا المشروع ودعوته القوية للتقريب بين المسلمين ومن هذه التفسيرات، انه أراد أن يوحد الشعوب التي كانت خاضعة لحكمه، وأن يرفع المكفرات فيما بينهم، إذ كانت هذه الشعوب ذات انتماءات مذهبية وعرقية عديدة، فيهم الإيرانيون وهم شيعة في الغالب، والأفغان وما وراء النهر والتركستان وهم سنة في الغالب، وكذا الهنود والأكراد والعرب وغيرهم، ومن تلك الدوافع المحتملة، حلم نادر شاه السياسي أن يكوّن إمبراطورية إسلامية عظمى على أنقاض الدولة العثمانية، ومنها : محاولة مسح الأثر الصفوي المنافس لمجده الذاتي في نفوس الإيرانيين بإزالة مستحدثاتهم من السب واللعن ومواكب العزاء التي نشرها الصفويون في إيران. وأخيراً وربما الأهم والأقوى أثرا – شخصية نادر شاه وتكوينه النفسي والمذهبي لقد كان نادر شاه نفسه معتدلاً من الناحية المذهبية، ولم يكن متعصباً لأية طائفة من الطائفتين المتنازعتين، وربما جاز أن نعتبره شيعياً سنياً في الوقت نفسه، إذ نشأ في بيئة سنية، وهو من قبيلة أفشار التركمانية المجاورة للقبائل الكردية، ثم خالط الشيعة بعدئذ وقادهم في الحروب، فهو بطبعه محب وخبير بالخصال الطيبة للفريقين، ويمقت التعصب والطائفية لدى الفريقين أيضاً.

نادر شاه والمذهب الخامس

لقد كانت خطة نادر شاه أن يجعل من التشيع مذهبا فقهياً خامسا، يضاف إلى المذاهب الأربعة المعروفة عند أهل السنة، وقد سماه (المذهب الجعفري) نسبة إلى الإمام جعفر بن محمد الصادق ( )، ومن الجدير بالذكر أن الشريف المرتضى نقيب العلويين في القرن الرابع الهجري الذي عاش في بغداد في العهد البويهي، كان قد سبق نادر شاه إلى مثل هذه الفكرة، ولابد أن للضغط السياسي في كلتا الحالتين دوراً في إنضاج وطرح هذه الأفكار التقريبية والتوحيدية بين المسلمين، لاسيما في

البلاد التي تتعدد وتتنوع المذاهب والفرق فيها، مما يجعل آلية التعايش البنّاء والتصحيح والتقريب ضرورة دينية واجتماعية وسياسية في مثل تلك البلدان المختلطة لتوحيد جهودها وتقوية النظام السياسي وفسح المجال لتلك الشعوب للولوج في ميدان الحضارة والتمدن والتقدم العلمي بعيداً عن التخلف والخرافة والتعصب.

وقد نجح نادر شاه جزئياً في ذلك المشروع الحيوي، في حين لم يوفق الشريف المرتضى آنذاك في عهد الخليفة العباسي (القادر بالله) بسبب التشدد والتعنت الطائفي الذي أثاره البويهيون في تلك الحقبة، وعدم رغبتهم في إتمام هذا المشروع.

لقد عزم نادر شاه أن يسير بخطته هذه رغم كل الصعوبات التي ظهرت أمامه سواء من جهة الإيرانيين أو العثمانيين، وقد وجد في الإمام جعفر الصادق الرجل الذي يصلح أن يكون رمزاً للتقريب بين الفريقين، فقد كان الإمام الصادق يعيش في نفس العصر الذي عاش فيه الإمامان مالك وأبو حنيفة، وكانا يجلانه كل الإجلال فضلاً عن صلة الصادق بجدّيه علي وأبي بكر ، والمأثور عن الإمام الصادق أنه كان يعلن للناس قائلا: (ولدني أبو بكر مرتين) إشارة إلى اشتراك نسبه من جهة أمه بنسب الصديق مرتين، فأمه أم فروة زوجة الإمام الباقر، هي بنت القاسم بن محمد بن أبي بكر الصديق، وأمها أسماء بنت عبد الرحمن بن أبي بكر الصديق، وهو جعفر بن محمد الباقر بن علي زين العابدين بن الحسين بن علي بن أبي طالب، وهكذا يظهر أن الإمام الصادق من حيث النسب علوي بكري، وكان يردد قوله هذا لكي يردع الغلاة والجهلة الذين استحلوا سب الشيخين أبي بكر وعمر .

وقبل أن يتفرغ نادر شاه لمشروعه تماما، استطاع فتح الهند وإخضاعها لحكمه سنه 1738، ثم اجتاح بلخ وبخارى وبذا وصل إلى قمة مجده العسكري والسياسي فأطلق على نفسه لقب (شاهنشاه) أي ملك الملوك.

أخذ نادر شاه يرغم الإيرانيين بالقوة على ترك ما كان الصفويون قد أحدثوه من عادات وطقوس طائفية، وحارب خصومه ومعارضيه من المجتهدين وغيرهم. وفي عام 1740م أرسل نادر شاه تحفا وهدايا إلى مرقد الإمام أبي حنيفة ومراقد الأئمة في الكاظمية والنجف وكربلاء. وأرسل هدايا إلى السلطان العثماني ووالي بغداد (احمد باشا)، وقام بتذهيب المرقد العلوي في النجف.

غزو نادر شاه للعراق للمرة الثالثة

في سنة 1743 أرسل نادر شاه إلى السلطان العثماني يطلب منه الاعتراف الرسمي بالمذهب الجعفري، فلم يستجب السلطان العثماني خوفا من طموح نادر شاه وغموض نواياه السياسية فاتخذ نادر شاه ذلك ذريعة لإعلان الحرب على الدولة العثمانية والزحف على العراق مرة أخرى، وقام نادر شاه بحصار الموصل بعد أن اجتاح كركوك وأربيل، وقد دام حصار الموصل اثنين وأربعين يوماً، قذف على المدينة ما يزيد على الأربعين ألف قنبلة، وشن عليها خمس هجمات ودافع أهل الموصل عن بلدتهم دفاعاً بطولياً. وقد اضطر نادر شاه أخيرا أن يطلب الصلح من أهل الموصل.

مسيرة نادر شاه إلى النجف

ترك نادر شاه الموصل بعد الصلح مع أهلها، وسار باتجاه الجنوب ليعسكر قرب بغداد، وأرسل إلى أحمد باشا والي بغداد يطلب الصلح مع الدولة العثمانية وبعد أن تم الصلح زار نادر شاه الإمام الكاظم والإمام الأعظم على ضفتي دجلة شمالي بغداد، وتراجع عن طلبه للدولة العثمانية بالإقرار بمشروع المذهب الحامية، ثم توجه إلى النجف لزيارة الإمام علي ، وليرى القبة التي أمر أن تبنى لمرقد الإمام المغطاة بالذهب( ).

لم يكد نادر شاه أن يستقر في النجف حتى عزم على الأعداد لعقد مؤتمر عام يجمع فيه علماء الشيعة والسنة لوضع أسس التوفيق بين الطائفتين المتخاصمتين داخل مملكته وخارجها، وهو أول مؤتمر تقريبي من نوعه في التاريخ الإسلامي. وفي 22 شوال من سنة 1156هـ الموافق 11/12/1743م بعث الوالي أحمد باشا علامة العراق السيد عبد الله السويدي بناءً على طلب من نادر شاه للمشاركة في المؤتمر وكان نادر شاه قد جلب معه من إيران سبعين عالماً شيعيا، كما جلب سبعة علماء من تركستان وسبعة من أفغانستان، ثم استدعى المجتهد العلامة نصر الله الحائري من كربلاء الذي كان يعد كبير مجتهدي الشيعة في العراق، وعند وصول السويدي النجف أدخل على نادر شاه فرحب به الشاه. ثم قال له موضحا السبب الذي دعاه إلى عقد المؤتمر: أن في مملكتي فرقتين- تركستان وأفغان- يقولون للإيرانيين أنتم كفار، والكفر قبيح، ولا يليق بمملكتي قوم يكفر بعضهم بعضا، فالآن أنت وكيل من قبلي، ترفع جميع المكفرات والمستحدثات التي أقحمت في الدين من قبل إسماعيل الصفوي، وتشهد على الفرقة الثالثة (الإيرانيين) بما يلتزمونه .. ثم إذن له بالخروج وأمر بضيافته عند اعتماد الدولة، وذهب السويدي بعدها إلى خيمة الملا باشي الشيخ علي أكبر (كبير المجتهدين الإيرانيين)، وتحاور العالمان بود واحترام. وبعد مجادلات طويلة في الفقه والعقيدة والتراث والتاريخ الإسلامي، تم الاتفاق بين علماء الطرفين على قرارات معينة. ثم اجتمع علماء الفريقين تحت السقيفة قرب ضريح الإمام علي وكتبوا محضراً يشتمل على ما اتفقوا عليه، بشهادة وحضور العلامة عبد الله السويدي ورعاية نادر شاه ورقابته.

قرارات مؤتمر النجف

إن أهم قرارات المؤتمر التي ثبتت في المحضر الرسمي هي:

شهد الحضور من العلماء والمجتهدين، أن الإيرانيين قد عدلوا عن العقائد السالفة، والمستحدثات والمكفرات التي انتشرت في العصر الصفوي، ونكلوا عن الرفض والسب، وقبلوا المذهب الجعفري الذي هو من المذاهب الحقة، وأحد المذاهب الإسلامية في العبادة وفهم الدين الإسلامي الحنيف، والمأمول من القضاة والعلماء والمعنيين الكرام، الإذعان لذلك، وجعله خامس المذاهب الإسلامية.

إن الأركان الأربعة من الكعبة المعظمة في المسجد الحرام تتعلق بالمذاهب الأربعة، وحسب الطريقة المعمول بها والمقرة من الدولة العلية العثمانية وما اتفق عليه فقهاؤها، وقد اقترح المجتمعون أن يشارك أتباع المذهب الجعفري باقي المذاهب في الوقوف والصلاة والدعاء في أحد أركان الكعبة، وان يشاركوهم في الركن الشامي بعد فراغ الإمام الراتب فيه من الصلاة، يصلون بإمامهم على الطريقة المتبعة في المذهب الجعفري.

يعين من حكومة إيران في كل سنة أمير للحج الإيراني، ويكون في الدولة العلية العثمانية أعلى منزلة من الأمير المصري والشامي.

فك الأسرى من الجانبين العثماني والإيراني وإطلاق سراحهم ومنع وقوع التحقير والإذلال والأذى عليهم.

يعين وكيلان في الدولتين في مقر السلطتين لأجل القيام بمصالح الدولتين وبهذه الوسيلة ترتفع الاختلافات الصورية والمعنوية ما بين أمة سيد الثقلين محمد .

كما سجلت في المحضر خلاصة العقيدة الأصيلة الخالية من البدع والمستحدثات التي تم الاتفاق عليها بين الفريقين، بعد إزالة المكفرات والمستحدثات الصفوية وتيارات الغلو عبر التاريخ، وأهم ما جاء فيها الإقرار بشرعية الخلفاء الراشدين الأربعة على الترتيب (أبي بكر وعمر وعثمان وعلي) وعلو منزلتهم وجلالهم في نظر المسلمين جميعا. باعتبارهم وزراء النبي وصحابته المقربين، وأهل السبق والهجرة في الإسلام، وأن الإمام جعفر الصادق من كبار أئمة أهل البيت وممدوح من قبل سائر المسلمين وأئمة المذاهب الإسلامية، وجدير بأن يكون صاحب المذهب الجعفري كما ورد عنه من تراث وفقه عند الرواة الثقاة. كما شهد علماء أهل السنة المجتمعون من التركستان والأفغان، على الاعتراف بأخوة الدين مع الإيرانيين، وان الاختلاف معهم أصبح الآن بعد هذا الاتفاق، في بعض الفروع الشرعية والفقهية الاجتهادية، وهو غير مناف ولا مغاير للإسلام، وان أصحاب هذه المذاهب من الطرفين هم من أهل الإسلام. ويحرم على الفريقين المسلمين من أمة محمد قتل كل واحد منهم للآخر ونهبه وأسره وهم إخوان في الدين( ).

ويذكر العلامة السويدي في مذكراته وانطباعاته عن مؤتمر النجف هذا، فيقول: إنه حين تم توقيع العلماء على المحضر، فرح الحاضرون فرحاً لم يقع مثله في العصور ولا تشبهه الأعراس والأعياد، فكان يوماً مشهوداً.. والحمد لله على ذلك... ويقول: ثم تناولوا الطعام والحلويات، وصار ذكر الصحابة ومناقبهم في كل خيمة من المعسكر وعلى لسان العجم كلهم، بحيث كانوا يذكرون لأبي بكر وعمر وعثمان مناقب وفضائل يستنبطونها من الآيات والأحاديث مما يعجز عنه فحول أهل السنة، وأخذوا يسفهون رأي الشاه إسماعيل الصفوي في سبهم( ).

وهكذا نجح مؤتمر النجف في إزالة الخلاف المستعصي والتكفير بين الفريقين، ولو لمدة محدودة، بسبب جو الاعتدال والرغبة في التعايش وإزالة المكفرات والمستحدثات وبسبب رغبة نادر شاه الشخصية، ولدوافع سياسية أخرى كانت تحيط بجو المؤتمر، وذلك لا ينقص من قيمة هذه التجربة الفريدة في رسم منهجية للتصحيح والتقريب والوحدة بين المذاهب الإسلامية، وفي بتر الأسباب الكامنة للتوتر الطائفي والصراع الدموي المرير الذي كان يغذيه الطموح السياسي والغلو الطائفي الذي أرسى أسسه الصفويون وانساق وراءه العثمانيون وفق منهجية رد الفعل والعنجهية.

وفي ختام أيام المؤتمر صلى المجتمعون صلاة الجمعة في جامع الكوفة، وصعد السيد نصر الله الحائري مجتهد العراق في كربلاء فألقى خطبته، وأثنى فيها على الخلفاء الأربعة كما أثنى على بقية الصحابة وأهل البيت ثم دعا للسلطان العثماني ولنادر شاه بعده.

اعتراف العثمانيين بقرارات المؤتمر

بعد مؤتمر النجف بمدة وجيزة، عاد التوتر بين الإيرانيين والعثمانيين من جديد، ودارت بينهما حرب الحدود بالقرب من أرمينيا، استطاع نادر شاه أن يوقع الهزيمة بالعثمانيين، ثم استمرت الحرب بين الطرفين، غير أن نادر شاه أبدى رغبته في الصلح، وأرسل وفدا إلى الأستانة للمفاوضة ووسط والي بغداد (أحمد باشا) من أجل الصلح، ونبذ الحرب والصراع الدموي بين الطرفين.. وجاء جواب السلطان (محمود خان) على كتاب نادر شاه ووفده: أننا تلقينا كتابكم الكريم وقد زادنا سروراً ما بذلتموه من جهود في المؤتمر الذي عقدتموه في العراق، ووحدتم به وجهة نظر المسلمين، وأزلتم من بينهم النفرة التي كانت مستحكمة بين الطائفتين، وحملتموهما على انتهاج منهج القرآن والسنة في محبة الخلفاء واحترامهم ورفعتم البدع والأعمال المنكرة.. ولأجل إدامة هذه الصداقة والمحبة الأخوية بين الدولتين، فإننا نتمسك بالمواد الخمس التي جاءت في قرارات مؤتمر النجف، لتكون وسيلة لتوثيق عرى الصداقة وإدامتها وتجديدها.. وينبغي إفهام الإيرانيين بالتي هي أحسن بضرورة نبذ ما كانوا عليه أيام الصفويين من بدع.. والكف عن سب الخلفاء الراشدين وسائر الصحابة الكرام.

اغتيال المشروع وقتل صاحبه من قبل الغلاة

تم الصلح بين العثمانيين والإيرانيين في 21/3/1747م وصدرت المصادقة عليه والاعتراف به من قبل حكومة إيران، غير أن هذا الصلح وهذا النجاح الذي تحقق في مؤتمر النجف لإزالة مستحدثات الصفويين في التراث الشيعي لم يدم طويلا. إذ اغتيل نادر شاه بعد ثلاثة أشهر من تاريخ ذلك الصلح الذي قام على الأسس التي أرساها مؤتمر النجف قبل ثلاث سنوات ونصف تقريبا. والذي أنهى حالة الحرب والصراع الدموي بين أكبر دولتين إسلاميتين آنذاك، حرب طاحنة استمرت ثلاثة قرون تقريبا، وأدت إلى إنهاكها وتخلفها عن باقي الأمم والشعوب والدول المتحضرة، بسبب النزعة الطائفية التي كانت تغذي نار الحرب الدائرة بالوقود الدائم.

تم اغتيال نادر شاه في 20/6/1747م من قبل بعض الإيرانيين الغلاة المتشددين والعنصريين العرقيين، لأن نادر شاه كان قد قرّب التركمان والأزبك أكثر من الإيرانيين الفرس..

وبعد مقتله عمّت الفوضى في إيران، وفي جميع أنحاء مملكة نادر شاه التي كانت تضم فضلا عن إيران، أفغانستان وتركستان وباكستان وأجزاء من الهند الحالية، وبدأ الصراع والنزاع بين الشيعة وأهل السنة في تلك المملكة العظيمة المنهارة، لاقتسام إرث المملكة، فانفصلت أقاليم الأفغان والهند، وشاع القتل والنهب واضطراب الأمن في كل مكان... وتتابع الملوك على عرش إيران من أسرة نادر شاه وأقاربه وقد جاوزوا عشرة ملوك، والغريب في أمر هؤلاء، إن كل واحد منهم حين كان ينتصر على غريمه يسمل عينيه، واستمرت هذه الفوضى نصف قرن تقريباً، أي حتى تأسيس الدولة القاجارية سنة 1796م( ).

وكان أشهر الحكام الذين ظهروا على الساحة السياسية في تلك الفترة المضطربة التي سبقت ظهور الدولة القاجارية، هو كريم خان الزندي، وهو من قبائل الأكراد (الفَيليه) المنتشرة على الحدود الإيرانية الغربية، وقد استطاع كريم خان أن يؤسس دولة خاصة به وجعل عاصمتها (شيراز) ورغم سيطرته على مقاليد الحكم وتعاطف الإنكليز في الخليج معه، فقد اكتفى بأن يسمي نفسه (الوكيل) بدل (الشاه). وحين توفى كريم خان عام 1779م عادت الفوضى والحروب بين

المتنافسين على الحكم، ولم يهدأ الوضع في إيران إلا في سنة 1796 عندما تولى العرش آقا محمد الخصي، وهو أخو زوجة كريم خان، وكان ذلك بداية حكم الأسرة القاجارية التي ظلت تحكم إيران حتى العقد الثاني من القرن العشرين، إذ ورثتها الأسرة البهلوية كما هو معروف تاريخيا.

وكانت الدولة القاجارية قد عادت بالحكم إلى نفس النهج والتعصب الذي سلكته الدولة الصفوية من قبل، من حيث أفكار الغلو والتعصب والباطنية وترويج السب وطقوس العزاء وما أشبه، وبذا عاد النزاع الطائفي بين الفريقين إلى وضعه القديم، دون أن يظهر عليه أي اثر من تلك الجهود التي بذلها نادر شاه وعبد الله السويدي في سبيل التقريب ولكن هذه المرة لم يكن الصراع صراع السيف والمدفع بل صراع القلم والأعلام، لأن الحرب بين الدولتين القاجارية والعثمانية قد توقفت نهائياً، منذ منتصف القرن التاسع عشر على أثر عقد الصلح بين الدولتين وتعيين الحدود بشكل ثابت، ولكن ذلك الصلح والاستقرار السياسي لم يخفف من حدة الجدال الطائفي بين الفريقين، وربما زاد الجدال اشتعالا بعد إدخال المطبعة الحجرية إلى إيران سنة 1833م، حيث بدأت الكتب والمؤلفات الطائفية تصدر بأعداد كبيرة يقابلها الرد عليها وتفنيدها من قبل الطرف الثاني.

وهكذا نرى أن الصراع الطائفي لا ينتهي إذا اعتمد على الجدل العقلي العقيم( )، بخلاف الصراع الدموي وإشهار السيف ودق طبول الحرب، التي رغم مرارتها، فقد تفرض الظروف السياسية أحياناً حلاً، ولكن قد يلائم مجموعة من البشر أبسط ما يوصفون به أنهم متخلفون ولم يواكبوا ما تتطلبه الحياة المتحضرة، والوعي بقيمة الإنسان على الأرض وحرية الفكر واستغلال طاقة الإنسان للتعايش البناء وأعمار الأرض وخلافتها، أما الإنسان المتحضر فغالباً ما نراه يبحث عن حل منطقي متوازن لأي مشكلة فكرية، ومنها المعضلة الطائفية، ولقد ابتلى العراق منذ قرون بهذا الصراع المرير المتخلف بين الإيرانيين والعثمانيين مما كرّس وضعا طائفياً ازدواجاً متخلفا لدى الكثير من أبناء البلد، دون أن يفكروا في أسبابه ونتائجه، والذي كان الصراع الصفوي العثماني من أهم أسباب تكريسه وبلورة الطائفية في العقول والنفوس، والأرواح البعيدة عن منهج القرآن وتعاليمه السمحة.

والواقع إن تلك (البلوى) لم يقتصر أثرها على تخريب الاقتصاد والدين والحضارة فقط، بل ساهمت أيضا في تخريب العقول والنفوس عند الكثير ممن استجاب لنداء الطائفية تحت ضغط التخلف والسذاجة وإلغاء دور العقل والعلم والحكمة، فبات الانتماء الطائفي والغلو فيه لدى هؤلاء أهم من الانتماء للدين والبلد والأمة، بل الإنسانية بشكل عام، ونظرة مبسطة لما جرى من أحداث وحروب وصراع مرير مما تم سرده في الصفحات السابقة، يعيد لنا التوازن والنظرة الراشدة للخروج من دوامة الفتن هذه في بئر الطائفية الآسن والمظلم العميق.

خاتمة

لسنا هنا بصدد دراسة تاريخ الصفويين والعثمانيين وإصدار الحكم على الدولتين أيهما أقرب للحق والعدل، لأن ذلك تاريخ انتهى وانقضى والاهم من ذلك أن نأخذ العبرة منه، لا أن نحاكمه، ونستعيد الذكريات الأليمة والفتن المظلمة فيه، والحكيم هو من يستخرج الحكم والعبر من التاريخ والتراث، والأحمق هو الذي يجتر الفتن من التاريخ، ويعيد تلك الصراعات والفتن إلى الحياة بعد أن دفنت في مقابر التاريخ، وفي ذلك يقول تعالى سواء فيما يخص القرون الأخيرة أو القرون الأولى قبل الإسلام وبعده: قال تعالى: تلك أمة قد خلت لها ما كسبت ولكم ما كسبتم ولا تسألون عما كانوا يعملون ( ).

والأمر نفسه ينطبق على نادر شاه، صاحب مشروع التقريب وإزالة المكفرات بين المذاهب الإسلامية، إذ هو ليس أول من قال بهذا المشروع، وإنما سبقه العديد من المفكرين والعلماء والحكام، فقد سبقه الشريف المرتضى العلوي البغدادي في العصر البويهي، فإن نادر شاه لم يكن وليا صالحاً ولا داعية سلام، فقد قتل على يديه مئات الآلاف من المسلمين سواء كانوا إيرانيين أو عثمانيين أو عرباً أو هنوداً أو أكرادا أو أفغاناً أو غيرهم من الشعوب المسلمة التي شهدت الصراع فهو أحد جبابرة التاريخ القساة، والطغاة المتجبرين الذين كانوا يحلمون أن يحكموا العالم الإسلامي كله، بل الأرض ومن عليها إن استطاعوا، وقد أمتاز هذا الرجل بقدرة عسكرية فذة وحنكة سياسية متميزة، قلما نجد لها نظيراً، ولما كانت الحكمة ضالة المؤمن، فليس هناك بأس من تقويم تجربته التقريبية ومشروعه الذي دعا له وحارب من أجله حروبا عديدة لكي يقنع العثمانيين بوجهة نظره، ولما كان مشروعه يقوم على حقيقة أن أسباب الخصومة والتوتر الطائفي تكمن بشكل أساس في المستجدات الصفوية، وما أدخله إسماعيل الصفوي على التشيع المعتدل خلال فترة حكمه وتأسيسه الدولة الصفوية، ولما كانت تلك التجربة قد نادى بها قبله الشريف المرتضى، لإزالة التناقض الطائفي بين السلاطين البويهيين الذين تظاهروا بالتشيع للسيطرة على دولة الخلافة، وبين الخلفاء العباسيين حاملي لواء التسنن في ذلك العصر، مما يشير إلى أن ظهور هذه الدعوة في عهد نادر شاه مرة أخرى، ربما يعود إلى تشابه الظروف السياسية والطائفية التي مر بها المسلمون في الحالتين، وإذا أردنا التدقيق في الأمر نجد أن هذه الأفكار والدعوات التقريبية هي أسبق عهداً من عصر الشريف المرتضى أيضا، فقد قام الخليفة المأمون بعمل مشابه ونصب الإمام علي الرضا وليا لعهده وزوّجه بنته أم إسحاق بنت المأمون، كما قام الخليفة الأموي الراشد عمر بن عبد العزيز بعمل مشابه حينما عفا عن الخوارج والمعارضين وقرب العلويين إليه.. وهكذا نجد أن روح الوحدة الإسلامية والتقريب بين المسلمين مذاهب وأفرادا لم تكن غائبة عن عقول المسلمين حكاما ومحكومين، علماء ومجتهدين ومصلحين..

وإذا أضفنا إلى كل ذلك، إن أفكار التقريب والدعوة المخلصة للوحدة الإسلامية تظهر دائماً في الأماكن والأمصار التي تتميز بالتعدد المذهبي والتنوع الفكري، ولقد رأينا أن العراق هو البلد الأول الذي كان دائماً حاملا لواء الوحدة والتقريب بجانب لواء التحدي والجهاد في سبيل الله لنشر رسالة القرآن وتعاليمه في العالم القديم والحديث، فدعوة المأمون انطلقت من بغداد وكذلك مشروع

الشريف المرتضى انطلق من بغداد عاصمة الخلافة وكذا مؤتمر النجف الذي أشرف عليه وأداره علماء عراقيون من بغداد والنجف وكربلاء بمعية العلماء الذين جاء بهم نادر شاه من مملكته.. وقد سبق هؤلاء كلهم الإمام الحسن بن علي من الكوفة عاصمة الخلافة الراشدة، حين تنازل لمعاوية عن الخلافة حقناً لدماء المسلمين، وإجهاضا للفتنة الدامية، وسعياً لتوحيد صفوف المسلمين وانتصارا لمبدأ الشورى الذي جعله أحد شروط الصلح مع معاوية، لطبيعة نظام الحكم الذي يؤول إليه الأمر بعد معاوية.. وفي موقف الإمام الحسن الشجاع والمخلص والمتجرد لله ورسوله وللمسلمين، والمضحي بالحكم ومباهج الدنيا من أجل المبادئ والوحدة الإسلامية، في هذا الموقف نبوءة نبوية مباركة، تؤكد صحة منهج الوحدة والتقريب مهما كان الثمن وكانت العواقب.. يقول رسول الله في ذلك ويتحدث عن الحسن: إن ابني هذا سيّد، ولعل الله يصلح على يده بين طائفتين من المسلمين( ).

إذن، أي جهد في ميدان الوحدة الإسلامية وفي التقريب هو منهج نبوي كريم، وتوجه قرآني منير، ودعوة صادقة إلى التوازن والاعتدال والوسطية والقرآنية، ونبذ الخصومة والتشرذم واللعن والتكفير والغلو والتطرف والتعصب بكل أنواعه... قال تعالى: وكذلك جعلناكم أمة وسطا .. ( ). فلا يضير المسلمين كثرة المذاهب وتعددها، إذا أزالوا المكفرات والبدع والمستحدثات التي دست في تراثهم الزاهر عبر الزمن، وقاموا بجهد التصحيح والتنقيح والنقد العلمي على ضوء تعاليم القرآن وهدي المصطفى وصولا إلى التقريب والتعايش البناء والمثمر والتسامي من الطائفية إلى القرآنية، في إطار التعددية المذهبية فيضاف إلى المذاهب الأربعة التي اختص بها الجمهور مذاهب أخرى تتعبد وفق الفقه الجعفري أو الزيدي أو الاباضي أو السلفي أو الصوفي، ما دامت قد ابتعدت عن الغلو وتكفير المسلمين واستنبطت آراءها وتشريعاتها في ضوء القرآن والسنة النبوية.

فمشروع المذهب الخامس أو التعددية المذهبية وإزالة المستحدثات المدسوسة عن قصد هو مشروع دائم يخص كل مسلم فردا كان أو جماعة أو مذهباً أو دولة، تبنت الإسلام دينا، والقرآن منهجا، وهو مشروع تاريخي متكرر في تراث الأمة بغض النظر عن الملابسات والظروف والدوافع السياسية المحلية التي كانت تحكم هذا الحاكم أو ذاك، والمشروع التقريبي الوحدوي المذكور ليس أسير مرحلة زمنية، رغم أن الصراع الدموي المرير الذي جرى بين الصفويين والعثمانيين والذي كان العراق مسرحه وساحته، هو من الأسباب الرئيسية التي دفعت الحاكم الإيراني التفكير فيه، للتخلص من ضغط الطائفية والتشتت والصراع الدائم، ودفعت العثمانيين إلى قبوله للتخلص أيضا من آثار الصراع الطائفي الطويل، وما صاحبه من تخلف وتراجع ووهن ظهر على أغلب مؤسسات الدولة ومفرداتها. فإن مشروع التصحيح والتقريب مشروع قائم، وخيار دائم أمام المسلمين للتخلص من مرض الطائفية والعصبية التي قال عنها الرسول الكريم: دعوها فإنها منتنة.. ومن واجب المسلمين اليوم أفراداً ومذاهب ودولاً التفكير بجد لبحث هذا الأمر الخطير، والسعي لعلاج هذا الداء العضال، وفق مفاهيم الاعتدال والتعايش والتعاليم القرآنية، وسيجد مثل هذا الجهد والتوجه دائما من يقف ضده من أعداء الأمة في الخارج ودعاة الغلو والنفاق والمصالح وأمراء السوء ووعاظهم في الداخل، فيحاولا إجهاض هذا المشروع الحيوي، لكي يتسنى لهم تحقيق مآربهم في السيطرة على مقدرات المسلمين ومستقبلهم وإبقائهم غارقين في التخلف

والخرافة والوهم والتمزق، ليمنعوا نور القرآن أن يطل على العالم من جديد لاستعادة دوره وحضارته المشرقة لتنير للإنسان على الأرض على ضوء الوحي الإلهي الخالد.

قال تعالى: يريدون ليطفئوا نور الله بأفواههم والله متم نوره ولو كره الكافرون ( ).

الفصل السابع

المرأة في عَصْر النبوة

المقدمة

إن موضوع المرأة في عصْر النبوة، ومن خلال متابعة أواصر النسب والمُصاهرة بين أهْل البيت والصَّحابة، يجرنا إلى ما هو أوسع من ذلك.. إلى موضوع مميزات عصّر الصحابة بشكل عامّ. إن هذا الجيَل القرآني الفريدَ الذي شهدَ عصر النورِ عصر القرآن، قد استطاعَ بإرشاد النبيّ وتوجيهه أن يُترجمَ تعاليمَ القرآن على الأرض واقعاً ملموساً. من خلال تلك المآثر والفعالِ الفريدة التي عناها من خلال تراجم أهل البيت والصحابةِ وأبنائهم، ولقد شهدَ اللهُ سبحانه لهمْ بالخيريةِ والفضل على سائر الأمم، وكفى به شهيداً، وقد امتازَ هذا الجيل عن غيره من الأجيال بالإيمان العميق حتى وصَلَ إلى مرتبة الإحسان، وبزهْدهم بالدنيا وتضحيتهم بالمال والنفس والولد، وتفانيهم وجهادهم في سبيل الله ونشر دينه القويم، حتى بلغتْ قوافل الشهداء بين المجاهدينَ منهمْ، أبهى صورٍ مقارنة مع أيّ تجربة أخرى في التاريخ البشَري، فقدْ أقامَ الصحابةَ بدمائِهم صَرْح حضارةِ القرآن التي عمّ نورُها وجهَ الأرض لأكثر منْ آلف عامٍ، حتى أضاعها الخلفُ بغفلتهم وتفرقهم وتناحرهم وارتكاسهم إلى الحضيض وانحطاطهم بين الأمم، فخسر العالم بركة ذلك النور الإلهيّ وأثر الرسالة الخالدة، فاستلمَ أتباعُ الشيطان من جديد أمر الناس ليعيثوا بهم وبمقدراتهم ويعيدوها كسرويةً قيصريةً، يكون الناس فيها بعضهم لبعض أربابا من دون الله، طبقات وطوائف وأحزاباً يستعبد بعضهم بعضاً.

وقد امتاز جيلُ النبوة أيضا بكل معاني الأخوة والمحبة والألفةِ والإيثار والوحدة، فلم تغيرهُمْ عواصف المحنِ وتياراتُ الفتنِ، وكانوا أذلة على المؤمنين أعزة على الكافرين، ثبتوا وصدقوا ما عاهدوا الله عليه وبايعوا رسوله، رُغم تغير الزّمن وتبدّل الحال ورحل أفواجا بكل ما لديهم من أفكار وعقائد وحضارات، فكانوا كالجبال الرواسي. لكنّ أمواجَ الفتنِ والتكالب على الدنيا والتنافس على ما فيها من نعم، بعد أن فتحها الله للمسلمين غيرَ كثيراً من حال المجتمع بعد أن كان الصحابة هم وأبناؤهم ملاذا للناس، منهم أخذوا دينهم وعلمهم وتراثهم، وعجبَ الناسُ حين اضطرب الأمر في عهد عليّ الخليفة الراشد الرابع، فسأله بعضُ الدهاة من الرعاع! وأهل النفاق، وقد عرفه الإمام من نبرة سؤاله فقال له: يا أمير المؤمنين، لماذا كانَ عهدُ الشيخين أبي بكر وعُمرَ عهد استقرارٍ ووحدةٍ، وعهدكَ عهد اضطراب وفتنةٍ؟ فقال له: يا هذا لقد كانوا أمراءِ على مثلي، وأصبحت أميراً على مثلك( ). لقد أدرك الإمام عليّ ومن بعده الحسنُ ومعاويةُ اللذان اصطلحا على إنهاء تلك الفتنة أن الزمن قد تغير وتغير الناس أيضا، فلم يعد يصلح فيه، ما أفسده أهل الغلو والبدع، وإنما سيكون الحكم ملكاً وفق مبادئ الدين وأصوله، فكان الحسن قد استغنى أن يحكم الناس بالملك، فزهد به وتنازل لمعاوية، حرصاً منه على وحدة المسلمين وحقنا لدمائهم. وساسَ

معاوية الدولة متأولاً مجتهدً درعاً لمفسدة أكبر، فاجتمع الأمر له بعد اضطراب، وكانت تلك أول ثلمة في عرى الإسلام، إلا وهي انتقاض عروة الحكم وتحوله من الخلافة الراشدة إلى الملك ثم الوصية بعد ذلك.

وهكذا استمر الحال في العهد الأموي والعباسي، ثم تحول الأمر إلى ملك عضوض وسلطان متجبّرٍ بعيدٍ عن روح الشورى وتعاليم القرآن حتى انهارت الخلافة الإسلامية باحتلال بغداد على يد هولاكو وإنهاء الخلافة العباسية بأيدي المغول، وبعدها بقرون سقطت الدولة العثمانية على يد دول الغرب وساد حكم الاستعمار الغربي الكافر على بلاد العرب والمسلمين.. وفي ذلك يقول المصطفى : لتنتقضنّ عُرى الإسلام عروة عُروة، كلما انتقضت عُروة نشبّث الناسُ بالتي تليها، أولهن نقضاً الحكمُ وآخرهنْ الصلاة ( ).

إذن فقد كان عصر الصحابة عصر حضارة القرآن وتعاليمه الصافية، وكان قدوةً للأجيال.. ومنارة الهدى لمن أراد بأمته طريق المجد والإيمان.

المرأة في عَصْر الصحابة

ولقد حظيت المرأة كما حظي الرجل بكل ما يُكرمها ويُسعدها،فكانت مكانتها بحق أرفع ما شهده التاريخ البشري للمرأة من تكريم.. حتى يومنا هذا والى الأبد، في حين بقيت المرأة في أوربا حتى عصر النهضة الحديثة، لا يُعترف لها بأدنى الحقوق الاجتماعية والاقتصادية والسياسية، وحين كانت المرأة في أوربا والعالم والى اليوم رمزا للشهوة والتلذذ والهبوط والإغراء، حتى أصبح عَرض جمالها ومفاتنها على الصحائف الأولى للمجلات والإعلانات وغيرها مما ينشره ويشجعه دُعاة الفساد والرذيلة في الغرب المادي الذي لا يؤمن إلا بمبادئ اللذة والقوة الميكافيلية( ) أمام هذا التراث الغربي الهابط الوضيع، جاء الإسلام ليضع المرأة في مكانها الصحيح كقوةٍ فاعلةٍ في حياة الأمة، لتربي النشْء على تعاليم الدين الحنيف وعلى الأخلاق الحسنة، وعلى كل ما يحتاجه المجتمع وفق مُثل وقيم عُليا، فبعد أن ساوى الإسلام بين الرجل والمرأة من الناحية الإنسانية والمسؤولية أمام الله قال تعالى: كلُ نفسٍ بما كسبتْ رَهينة ( ) أعطاها هذا الدور المتميز في تربية الأبناء وأعطى القوامة بيد الرجل لكي يحافظ عليها ويقودها مع أبنائه إلى شاطئ الأمان وفق منهج الله وشرعه. وهكذا كانت المرأة في عصر الصحابة والتابعين وتابعيهم، ولم تترك المرأة مكانها في سوح الجهاد أو في ميادين العلم وحفظ تراث الإسلام الخالد بدعامتيه القرآن والسنة (الوحي). فكان من نساء الصحابة والتابعين راويات الحديث والسيرة والتاريخ، وعلى رأسهم زوجات النبي والخلفاء الراشدين بل كانت زينب بنت عليّ مع أخيها الحسين وراء ظهره تدفعه للجهاد والتضحية، حتى إذا كانت الشهادة، كانت الشاهدة والراوية التي تقص على الملأ استشهاد أخوتها وأهلها، فاضحة دور القتلة والمتخاذلين فأسمعت صوت الحُسين ودعوة الحقّ التي جاء بها إلى الأجيال عبر القرون بما روت من أحداث وأخبار عن ثباته وبسالته ومصرعه الزكي. وكانت أسماء بنت أبي بكر مع أبنها عبد الله بن الزبير في مكة وهي محاصرة، رغم تقدمها في السن وفقدها البصر، توصي ابنها، حينما جاء يستشيرها، بقولها: (يا بُني إن الشاة لا يضيرها السلخ بعد ذبحها فإن كنت على الحق فأمض في سبيل الله حتى تلقى الله وأنت شهيدٌ). وهي نفسها التي كان لها دورها الخالد في هجرة النبي وأبيها أبي بكر الصديق حتى سميت بذات النطاقين لأنها

فتحت نطاقها وشقته شقين لتحمل الطعام والمؤن إلى رسول الله   وهو مختبئ في الغار أثناء الهجرة، ونجد الدور الجهادي في امرأة أخرى من الصحابيات هي (الخنساء) في معركة القادسية عند فتح العراق، وهي التي حزنت في الجاهلية على أخويها صخر ومعاوية دهراً طويلا بسبب مصرعهما في حروب الجاهلية، تقف هنا في القادسية وتقول بعد أن سمعت باستشهاد أولادها الأربعة: (الحمد لله الذي شرفني بقتلهم). هكذا يفعل الإسلام بالنفوس نساءً ورجالا.

وكذلك كان دورُ أسماء بنت عُميس وهي صحابيةٌ جليلةٌ ومن المسلمات الأوائل ومن ذوات الهجرتين، هاجرت مع زوجها جعفر بي أبي طالب إلى الحبشة ثم إلى المدينة، ثم يستشهد زوجها جعفر في معركة (مؤتة) وقد أنجبت منه عبد الله ومحمد وعون، وهي بعد ذلك زوجة خليفتين من الخلفاء الراشدين، أبو بكر الصديق الذي تزوجها بعد جعفر وأنجبت منه محمد بن أبي بكر ثم يتزوجها بعد وفاة الصديق، علي بن أبي طالب وتنجب منه عون ويحيى، لتدلل على الرباط القوي بين البكريّين والعلويين. وأم كلثوم بنت عليّ حين كانت زوجة أمير المؤمنين عُمر   كانت تشاركه هموم الحكم والرعية كما هو معروف تاريخياً. وغيرهن كثير. لقد كان تراث المرأة في عصر الرسالة وصدر الإسلام مدرسة للأجيال يغرفون منه ما يريدون في شتى أنواع النشاط الاجتماعي والتربوي والجهادي، وإذا كان المثل الذي يقوله البعض (وراء كل رجلٍ عظيمٍ امرأةٌ) صحيحاً، فإن الأصح منه والذي نلمسه ونقرأه عن حياة الصحابة، ومنْ تبعهم هو الحكمة: (إن وراء كل مجاهدٍ وقائدٍ مسلمٍ امرأةً أحسنت تربيته وزرعت فيه روح التضحية والفداء)..

قضية المرأة والتعدد ومحاولات التشويه المتعمد لها

ومن الصور المشرقة للمرأة في ذلك العصر والتي اختفت في مجتمعاتنا اليوم، تلك الصورة الاجتماعية المتيسرة، ذلك هي قناعة جيل الصحابة بضرورة زواج المرأة والإسراع به، وعدم الخجل أو الحرج من عرض بناتهم لمن يريدون الزواج من أخوتهم في الدين والإيمان، وكذلك الحاح البعض وطلب البنت للزواج من أبيها أو أخيها أو حتى من ابنها دون حرج أو تكلف. بل أكثر من هذا في عرض المرأة نفسها على الرجل للزواج بأسلوب جميل محتشم. هو غاية في الذوق والجمال والأدب، كما حدث في قصة زواج السيدة خديجة، حين عرضت زواجها من النبي بواسطة جاريتها نفيسة بنت منبه( ). وكذلك زواج السيدة حفصة من النبي   بعد أن عرضها أبوها عُمر على أبي بكر وعثمان، وكذلك حين وهبت السيدة ميمونة بنت الحارث نفسها للنبي إن أراد أن يستنكحها، وقصة زواج عثمان من أم كلثوم بنت النبي   بعد وفاة أختها رقية( )، وكذلك زواج الخليفة عمر من أم كلثوم بنت عليّ مع فارق السن بينهما. وكذلك زواج الحسن والحسين من أم إسحاق بنت طلحة تباعاً( ) إن تلك الصّور تعطي فكرةً واضحةً عن سهولة الزواج ويُسْر آليته. ذلك لأن الزواج في الإسلام ليس كالزواج في الغرب الذي يجعل من الرابطة الزوجية رابطة مقدسة لذاتها. ويركز على المحبة والعشق والوفاء الكاذب للزوجين، وكأن العالم قد خلق لهما دون غيرهما، ولا يجوز لأحد أن يفكر بما هو ابعد من محبوبه، فتتكون بذلك رابطة الزواج المقدّس البعيدة عن التصور الواقعي للحياة، وتكون هذه الآصرة هي الأصل في حياة الإنسان والتي يجب أن لا تنفصم لأي سبب كان، ولما كانت تلك التصورات مبالغاً فيها ولا تنسجم مع الفطرة والتكوين النفسي للرجل والمرأة فسرعان ما نرى تصدع هذه الآصرة وضمور تلك العلاقة

المقدسة والحب المتفاني، والاستعاضة عن ذلك بالصلة الاجتماعية التي يفرضها الواقع، والتي قد تنحدر عند البعض إلى نوع من التحلل وربما الخيانة المتبادلة للزوجين، وقد يصحبها انتشار للعلاقات غير الشرعية، مما اضطر أصحاب مبدأ الزواج المقدس إلى سن قانونٍ للطلاق، لفسح المجال للإنسان في الغرب في بناء حياته الاجتماعية بالطريقة التي يُحب والبحثُ عن فرصة ثانية لزواج ناجح إذا فشل الأول وانتهى بالانفصال والطلاق. أما الإسلام فينظر إلى الزواج على أنه رباط شرعي بين الرجل والمرأة لكي يتاح لهما فرصة بناء أسرة مسلمة وإنشاء جيل مسلم، وليحقق الاثنان أفضل حياة يريدها الله سبحانه لهما. فتكون العلاقة في الإسلام متينة وتولد عاطفة فيّاضة وفهم عميق للحياة لأداء دور الإنسان على الأرض، بما ينزله الله سبحانه على الزوجين ويباركهم بالمودة والرحمة التي هي أعمق وأصدق من عاطفة الحبّ الكاذب الذي يولده الزواج المقدس الغربي، وتلك الرابطة الزوجية يذكرها الله سبحانه في سورة الروم بقوله تعالى: ومنْ آياته أنْ خلق لكم من أنفسكم أزواجاً لتسكنوا إليها، وجعل بينكم مودة ورحمة، إن في ذلك لآيات لقوم يتفكرون ( ).

ولهذه الأسباب يُصبح الزواج مُيسَّرا سهلا يتجاوز حتى فوارق السن والصفات الاجتماعية والخلقية الأخرى، كما في زواج السيدة عائشة من النبي وزواج عمر من أم كلثوم بنت علي، وزواج علي من أمامة بنت أبي العاص وطلحة من أم كلثوم بنت أبي بكر، فتحققت في زواج عائشة وحفصة (مثلاً) مصلحة نقل الحياة الأسرية النبوية للمسلمين في الأحاديث التي روتها السيدة عائشة عن النبي لكونها أقرب الناس إليه وأحبهم إلى قلبه وأزواجه فضلاً عن مصلحة تدعيم مقام وزراء النبي وخلفائه وتكريمهم، وكذلك زواج السيدة خديجة من النبي وهي أسن منه، فإن فرصة الزواج حين يتوفى أحد الزوجين كانت مُيسرة ومتاحة، فلا تبقى أرملة أو مطلقة بدون زواج، مما يسهل تصور فكرة الزواج بين أثنين فارق السن بينهما غير قليل. والأمر نفسه ينطبق على ظاهرة التعدد في عصر الصحابة، والجدير بالذكر إننا ومن خلال قراءة تراجم الصحابة لم نعثر على أحدٍ من الصحابة ممن لم يعدد في زواجه غير حالتين، حالة الصحابي أبو عبيدة عامر بن الجراح، الذي شغله الجهاد في سبيل الله عن نفسه، والصحابي عثمان بن مظعون، المتبتل في عبادته، حتى اشتكته زوجته التي أهمل حقها إلى النبي : وكان عثمان بن مظعون راهباً بالليل مجاهداً بالنهار حتى اعتزل زوجته، فقال له النبي : يا ابن مظعون أما لك بي أسوة، قال: كيف ذلك وأنت الأسوة الحسنة، فقال له: إن لجسدك عليك حقاً، وإن لدينك عليك حقاً، وإن لأهلك عليك حقا( ) ، فكان عثمان بن مظعون منشغلاً بالعبادة عن الدنيا والزواج والنساء وفي كل خيرٌ. ولكن الأكثرية أولى بالقياس والإتباع.

أما تعدد الأزواج تباعا الذي قد لا يستسيغه البعض - فإن تشويه صورته أيضا من بقايا ذلك الركام الذي زرعه أعداء الأمة في قلوب الرجال والنساء، فتأثروا بفكرة الزواج المقدس الغربي. والأولى بالمسلم أن يتصور بأن الزوجين هما جنديان في ميدان العمل الإسلامي الاجتماعي المشترك فإذا مات أحدهما ينبغي أن يمضي الآخر مع قرين جديد. وهكذا يستمر العمل من أجل الآخرة وخلافة الأرض لبناء الأسرة المسلمة فضلاً عما يعكسه ذلك من كفالة اليتيم ورعايته والاهتمام بالشهيد وتكريم زوجته، باعتبار أن الأمة المسلمة أمة مجاهدة يكثر فيها الشهداء والأرامل والأيتام، ومن تعتذر من النساء بالصبية، كما اعتذرت أم هانئ بنت أبي طالب من الزواج من رسول الله ،

فلها ذلك( )، وان كان الزواج أولى تنفيذا للتوجيه الإلهي في القرآن الكريم، قال تعالى: فانكحوا ما طاب لكم من النساء مثنى وثلاث ورباع فإن خفتم ألا تعدلوا فواحدة ( ).. والله أعلمُ.

ومن الصور الأخرى للمرأة في عصر الصحابة اهتمام جيل النبوة بحُسن تسمية المرأة فضلاً عن الرجل (أي تسمية الأبناء ذكوراً وإناثاً)، فالاهتمام بالاسم من حقوق الأبناء التي فرضها الإسلام على الآباء، بأن يختاروا لهم أفضل الأسماء وأجملها، ولقد امتازت أسماء النساء في عصر الرسالة برقتها وجمالها، وقد سماهن رسول الله قوارير أي تحفاً زجاجيةً، حين قال في النساء: رفقا بالقوارير، وقال: أوصيكم بالنساء خيرا فإنهن عوان عندكم (أي أُسارى)( ). فمن الأسماء المتداولة في عصر الصحابة رقية، ميمونة، صفية، رملة، أروى، إمامة، هالة، اميمة، فاختة، نفيسة، جمانة، درّة، سكينة، سمية،... وهكذا. وتميزت أسماء بنات أهل البيت والصحابة بالتكرار فيما بينهم، وذلك دليل تحاببهم ومحبة رسولهم، فلا تكادُ تجدُ صحابياً مقرباً لم يسمّ أحد الأسماء التي اشتهرت في عصر الرسالة، ومنها زينب وفاطمة وأم كلثوم وعائشة وخديجة وأسماء وهند، كما قد تكنى البنات مثل الأولاد بإضافة أم فلان إلى الاسم. كأم كلثوم وأم فروة وأم إسحاق وأم الحسن وكذا في الرجال كأبي بكر وأبي ذر وأبي الدرداء وهكذا، وهو أسلوب تربوي غني عن التوضيح لتهيئة الدور في تربية الجيل الجديد وفي تحمل المسؤولية وتربية الأبناء.. وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.

المؤلف في سطور

باحث عراقي ولد في ديالى/ بلدروز، سنة 1954م..

أكمل دراسته الجامعية في كلية الهندسة/ جامعة بغداد سنة 1976, وعمل مهندساً ثم مديراً لدائرة الصيانة والخدمات في إحدى منشآت وزارة الصناعة والمعادن حتى سنة 1992م, ثم أحيل على التقاعد في تلك السنة..

أعتقلته أجهزة الأمن السرية في عهد صدام عام1995م لمدة سبعة أشهر.

تفرغ للبحوث والدراسات التاريخية والقرآنية لمدة 25 سنة.

ويتمحور فكر المؤلف ومشروعه الحضاري في ثلاثة محاور قرآنية تجديدية رئيسية هي:

1- محور الإعجاز العلمي وقد طبع له فيه أكثر من عشرة مؤلفات خلال السنين 1986 – 1996م.

2- محور الوحدة والتقريب الإسلامي وعلاج الطائفية، وقد طبع له فيه أكثر من عشرين كتاباً في بغداد وعمان والقاهرة والدوحة ودمشق، منذ سنة 1994 – 2006م.

3- محور الهوية والانتماء الحضاري للأمة، وأبحاث في لغة القرآن والتأكيد على فهمه فهماً عصرياً بلسان عربي مبين، وتعريف الإسلام العربي الرباني، والتأكيد على وحدة الأصل البشري والحضاري، لغةً وعقيدةً وجنساً، وقد طبع له في هذا المجال مؤخراً كتابان مهمان في عمان ودمشق، هما:

- كتاب في آفاق عولمة اللغة والتاريخ.. لغة آدم ولغة القرآن وأثرها في لغات العالم، طبع عمان/ عالم الكتب الحديث 2008م.

- كتاب الانتماء الحضاري والهوية الثقافية في ضوء عروبة القرآن.. أو الإسلام العربي، طبع دمشق/ دار يعرب 2008م.

4- إضافة إلى كتب وبحوث عديدة في مجال التراث والتاريخ وعلوم القرآن وبعض الكتب الهندسية (مجال تخصصه الوظيفي). وكتب المدرس عشرات المقالات التراثية والإسلامية في الصحف والمجلات العراقية والمواقع العربية والإسلامية، منها مجلة المفكر الإسلامي ومجلة الكوثر جريدة الزمان, وموقع هدي الإسلام وموقع الإسلام أون لاين وغيرها.. وطبع له أكثر من أربعين كتاباً في بغداد وعمان والدوحة والقاهرة ودمشق وبيروت, أهمها:

1- الظاهرة القرآنية والعقل ط. بغداد سنة 1986م.

2- النبوءة والإعجاز في القرآن والسنة ط.بغداد سنة 1988م.

3- الوصايا الخالدة في القرآن الكريم ط.بغداد سنة 1992م.

4- النسب والمصاهرة بين أهل البيت والصحابة ط.بغداد وعمان والدوحة والقاهرة خلال السنين 1998 - 2006م.

5- ثقافة الوسط ط. بغداد وعمان سنة 2004- 2006م.

6- الدر المنثور من تراث أهل البيت والصحابة ط. بغداد وعمان 1999م- 2005م.

7- أقباس من الإعجاز العلمي في القرآن والسنة ط. بغداد2001م.

8- أقباس من أثر القرآن في التاريخ والحضارة والتراث ط. بغداد 2001م.

9- تراث الأنبياء بين العلم والقرآن والتوراة ط. بغداد سنة2000م.

10- تحت رماد الحرب العاصفة ط. بغداد وعمان وبيروت ودمشق سنة الطبع 2003م/ 2004م.

العضوية في النقابات والجمعيات:

1. عضو نقابة المهندسين العراقية رقم 12535 سنة 1976.
2. عضو اتحاد المؤرخين العرب منذ سنة 1998م.
3. عضو الاتحاد العام للأدباء والكتاب في العراق منذ سنة 1999م.
4. عضو جمعية الناشرين العراقيين منذ سنة 2001م.
5. عضو جمعية الصحفيين العراقية منذ سنة 2003م.
6. عضو جمعيتا الآداب والتربية الإسلامية/ بغداد.
7. عضو جماعة الوحدة والتقريب بين المذاهب الإسلامية/ كربلاء.
8. عضو جماعة الإعجاز العلمي في القرآن والسنة/ بغداد.
9. عضو التجمع الدستوري العراقي/ بغداد.
10. عضو في المنتدى العالمي للوسطية/ عمان.

المصادر

1. القرآن الكريم
2. أنساب الأشراف/ للبلاذري.
3. الأنساب/ للسمعاني.
4. الإصابة في تمييز الصحابة / لابن حجر العسقلاني.
5. الطبقات الكبرى/ لابن سعد.
6. العقد الفريد/ لابن عبد ربه الأندلسي.
7. جمهرة أنساب العرب/ لابن حزم الأندلسي.
8. عمدة الطالب في أنساب آل أبي طالب/ لابن عَنَبَة.
9. كتب التاريخ لكل من: الطبري واليعقوبي والمسعودي وابن كثير.
10. تاريخ العرب قبل الإسلام/ د. جواد علي.
11. مفصل العرب واليهود في التاريخ/ د. أحمد سوسة.
12. تاريخ العرب/ د. محمد أسعد طلس.
13. نهاية الأرب في أنساب العرب/ للنويري.
14. بلوغ الأرب في معرفة أحوال العرب/ للآلوسي.
15. سبائك الذهب في معرفة أنساب العرب/ للسويدي.
16. نسب قحطان وعدنان/ للمبرد.
17. صبح الأعشى/ للقلقشندي.
18. مقدمة ابن خلدون.
19. العهد القديم والعهد الجديد (الكتاب المقدس / التوراة والإنجيل).
20. الإمامة والسياسة/ ابن قتيبة.
21. الأحكام السلطانية/ الماوردي.
22. حلية الأولياء/ لأبي نعيم الأصفهاني.
23. الطبقات الكبرى/ لابن سعد.
24. الإصابة في تمييز الصحابة/ لابن حجر العسقلاني.
25. تهذيب سيرة ابن هشام/ عبد السلام هارون.

26. مقاتل الطالبيين/ لأبي الفرج الأصفهاني.
27. مقدمة في تاريخ الحضارات/ طه باقر.
28. تاريخ المذاهب الإسلامية/ الشيخ محمد أبو زهرة.
29. جمهرة انساب العرب/ لابن حزم الأندلسي.
30. بلوغ الإرب في معرفة أحوال العرب/ للآلوسي.
31. العواصم من القواصم/ القاضي ابن العربي.
32. التاريخ الإسلامي والمذهب المادي في التفسير/ محمد فتحي عثمان.
33. الخلفاء الراشدون من الاستخلاف إلى الاستشهاد/ د. صلاح الدين الخالدي.
34. الخلافة ونشأة الأحزاب الإسلامية/ د. محمد عمارة.
35. ماذا يعني الاستقلال الحضاري/ د. محمد عمارة.
36. الخوارج والشيعة/ يوليوس فلهاوزن.
37. تاريخ الشعوب الإسلامية/ كارل بروكلمان.
38. العقيدة والشريعة/ كولدزيهر.
39. الفتنة الكبرى/ د. طه حسين.
40. مقدمة في تاريخ صدر الإسلام/ عبد العزيز الدوري.
41. تطور الفكر السياسي الشيعي/ أحمد الكاتب.
42. سير ومناقب كبار الصحابة/ الشيخ نجم الدين الكيلاني.
43. الإمامة عند الجمهور والفرق المختلفة/ د. علي أحمد السالوس.
44. الإمام الصادق/ الشيخ محمد أبو زهرة.
45. الإمام زيد بن علي/ شريف صالح الخطيب.
46. الإمام علي الرضا/ د. محمد علي البار.
47. إخبار عمر وابن عمر/ علي الطنطاوي.
48. الإسلام ونظام الحكم/ علي عبد الرازق.
49. الصواعق المحرقة/ ابن حجر الهيثمي.
50. الدولة العلية العثمانية/ محمد فريد وجدي.
51. تاريخ العراق بين احتلالين/ عباس العزاوي.
52. لمحات اجتماعية من تاريخ العراق الحديث/ د. علي الوردي.
53. النسب والمصاهرة بين أهل البيت والصحابة/ علاء الدين المدرس.

54. ثقافة الوسط/ علاء الدين المدرس.
55. المؤامرة الكبرى في صدر الإسلام/ علاء الدين المدرس.
56. الوصايا الخالدة في القرآن الكريم/ علاء الدين المدرس.
57. الأنبياء في العراق/ د. رعد شمس الدين الكيلاني.
58. هكذا تكلم علي شريعتي/ د. فاضل رسول.
59. العراق في العهد العثماني/ د. علاء نورس.
60. تاريخ العراق في العهد العثماني/ علي شاكر علي.
61. الصلة بين التصوف والتشيع/ د. كامل مصطفى الشيبي.
62. التعصب الأوربي/ شكيب أرسلان.
63. تاريخ الإسلام السياسي/ د. حسن إبراهيم حسن.
64. دعاة ... لا قضاة/ الشيخ حسن إسماعيل الهضيبي.
65. ملامح في فقه اللهجات العربيات/ د. محمد بهجت قبيسي.
66. حول إعادة كتابة التاريخ الإسلامي/ د. عماد الدين خليل.
67. أساليب الدعوة والتربية في السنة النبوية/ د. زياد العاني.
68. نزهة المشتاق في تاريخ يهود العراق/ يوسف غنيمة.
69. أربع قرون من تاريخ العراق الحديث/ لونكريك، ترجمة جعفر الخياط.
70. إيران في العصر الصفوي/ راجر سيوري.
71. رجال من الكتيبة الراشدة/ خالد محسن إسماعيل.
72. السيف اليماني في نحر الأصفهاني صاحب الأغاني/ وليد الأعظمي.
73. شعراء الرسول/ وليد الاعظمي.
74. الباز الأشهب/ إبراهيم الدروبي.
75. الشيخ عبد القادر الجيلاني وأولاده/ إبراهيم الدروبي.
76. البيوتات والقبائل الهاشمية/ يونس السامرائي.
77. الدعوة العباسية/ د. محمد بركات.
78. معركة التقاليد/ محمد قطب.
79. المرأة بين الفقه والقانون/ د. مصطفى السباعي.
80. تربية الأسرة في هدي القرآن والسنة/ د. محمود أحمد عبود.